الحوار

بين التأصيل والتنظير

حسن السيد عز الدين بحر العلوم





الحوار
بين التأصيل والتنظير

الحوار
بين التأصيل والتنظير

حسن السيد عز الدين بحر العلوم



الحوار
بين التأصيل والتنظير

حسن السيد عز الدين بحر العلوم

الطبعة الأولى 2014
القياس: 17 x 24
عدد الصفحات: 296

نشر وتوزيع

شركة العارف للأعمال ش.م.م.

العارف للمطبوعات

بيروت - لبنان
00961 1452077
العراق – النجف الأشرف
00964 7801327828
Trl: www.alaref.net

التوزيع في الجزائر والمغرب العربي:
دار الأبحاث للطباعة للنشر والتوزيع
الجزائر - هاتف: 744281 ـ 21 (00213)
البريد الإلكتروني: www.alabhaath@.com

التوزيع في الأردن:
دار المناهج للنشر وللتوزيع
الأردن - هاتف/ فاكس 00962 4650624
البريد الإلكتروني: info@daralmanahej.com



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النّحل: 125]

صدق الله العلي العظيم

تقديم
الدكتور إبراهيم بحر العلوم

صراع الحضارات وهيمنة القطب الواحد

في نهاية الثمانينات من القرن الماضي وعلى اثر انهيار منظومة الاتحاد السوفيتي وأروبا الشرقية وافول الدب الروسي وبروز الولايات المتحدة كقوة عظمى مهيمنة على مقدرات العالم، فوجئ العالم في بداية ومنتصف التسعينات باطروحات المفكر صموئيل هنتجتون في نظريته (صراع الحضارات) والتي جاءت متماهية ومتناغمة مع أفكار فرانسيس فوكوياما في كتابه عن (نهاية التأريخ).

وكلا الاطروحتين جاءت لتلغي دور التلاقح الثقافي والتراكم المعرفي والحضاري للأمم والمجتمعات في مسار البشرية، ولتؤسس بأن الثقافة باعتبارها الهوية الأساسية هي مصدر صدام الحضارات في عالم ما بعد الحرب الباردة. جاءت هذه الاطروحات في سياق رسم المنحنى البياني لعلاقات القوة والثقافة.

وأثارت هذه الأفكار والنظريات العديد من الكتاب والمفكرين وبرز سعي لمواجهتها والتأكيد على أهمية حوار الثقافات والأديان والحضارات كبديل لها. وحظيت هذه الاطروحات وخاصة في بداية القرن الحالي في تفعيل العديد من المبادرات ومنها اعلان الامم المتحدة عام 2001م (عام حوار الحضارات) وتم اقتراح بعض المشاريع الهادفة إلى ارساء الحوار، وتولت منظمة اليونسكو تنفيذها عبر مجموعة من الفعاليات والمؤتمرات، وساهمت المرجعيات الدينية في الترويج لها باعتبار أن الحوار ليس خياراً عابراً بين الأديان والثقافات بل ضرورة ملحة ترتبط بمستقبل البشرية.

مدرسة النجف ومشاركتها في الحوار

لم تكن جامعة النجف ومرجعياتها وحوزتها بعيدةً عن هذا الحراك الفكري

والاجتماعي وخاصة بعد التغيير الذي حدث في عام 2003م، فشاركت عبر عدد من اساتذتها وفضلائها في مؤتمرات الحوار بين الأديان وكان من بينهم الباحث سماحة العلامة (حسن السيد عز الدين بحر العلوم) الذي استمر في مواصلة المشوار في حضور هذه المنتديات العالمية وطرح الأفكار الهادفة ولعل بعضاً منها يجدها القارئ بين دفتي هذا الكتاب. كذلك شهدت النجف طوال السنوات الماضية اهتمام مرجعياتها الدينية ومؤسساتها باستقبال الوفود والزائرين من باحثين ومفكرين لترسيخ مبدأ التعارف والتفاهم والتأكيد على الحوار كمبدأ أساسي.

ومشاركة مدرسة النجف في العقدين الماضيين ـ وإن جاءت محدودة بسبب ظروفها ـ لكنها لم تكن طارئة، وإنما استمدت قوتها من رسالتها التي اشتهرت طوال القرون الماضية بأنها ملهمة للوحدة والوسطية والعقلانية وداعية لفتح باب الحوار بين المذاهب والأديان والحضارات. فقد كانت الأساس في انطلاقة الفكر التنويري في شقيه الديني والسياسي، فما كتبه الشيخ النائيني وبشر به الأفغاني وتألق به الإمام الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء، وما حملته أفكار الإمام المغيّب السيد موسى الصدر، والشيخ محمد مهدي شمس الدين وآخرون يضيق المجال بذكرهم تعبر بلون وآخر عن نتاجات المدرسة.

ورغم الظروف القاهرة التي حكمت العراق والنجف في العقود الماضية غير الشخصيات والمؤسسات ذات الصلة بمدرسة النجف ظلت أمينة على رسالتها فكانت رائدة في هذا الشأن وخاصة في المهجر وتحديداً في المملكة المتحدة ولعلني أوفق في مناسبة أخرى للكتابة عن هذا المحور.

العراق الجديد والصراعات وغياب الحوار

لعل ما شهده العراق في العقد الماضي من تغييرات سياسية واجتماعية واقتصادية وما أفرزته من تداعيات على المستوى الوطني والاقليمي والدولي في الساحة العراقية من تطرف وعنف وارهاب تمثل في الاشتباك المذهبي والديني والقومي بين ابناء البلد الواحد كان خارج سياق الانفتاح والتعايش المجتمعي الذي اعتاد عليه العراقيون طوال القرون الماضية.

لقد كان العراق ومازال منطقة صراع بين القوى الاقليمية وتحديداً إيران

وتركيا وأخيرا الدول العربية التي شكلت الطرف الثالث وكان الشعب بذلك يدفع ضريبة هذا الصراع ومازال باهضاً. غير أن ما ظهر في السنوات الاخيرة بعد زوال الديكتاتورية من اقتتال بين عرب العراق بسبب المذهب، وبين تهجير ونزوح المسيحين من جهة، وزعزعة الأقليات إضافة إلى التشابك القومي بين مكونات الشعب العراقي، كلها مؤشرات لا تقبل الشك باتجاه تقويض دعائم استقرار المجتمع العراقي وتفتيت وحدته. ونحن على قناعة بأن معظم ما نراه اليوم هو نتيجة عوامل خارجية مستفيدة من الفوضى الداخلية. ولم يقتصر الأمر على هذه النزاعات وإنما امتدت إلى نزاعات سياسية بين المكون الواحد مما جعل التجربة السياسية الفتية في دائرة الخطر.

وقناعتنا بأن غياب الحوار الجاد بين أبناء الواحد المتعدد الأعراق والقوميات وضبابية مفاهيم التسامح والتعايش المشترك أحد أهم الأسباب لهذه النزاعات، وكان يمكن لهذه النزاعات أن تأخذ اطارات أكثر عنفاً وتطرفاً لولا تدخل المرجعية الدينية في النجف الاشرف للحد منها وتحجيمها فلا زالت تشكل خطراً على وحدة العراق أرضاً وشعباً.

المنطقة وفشل الإسلاموية

لم تكن ثورة شعوب المنطقة والتي انطلقت شرارتها في تونس ومصر وليبيا واليمن وأخيراً في سوريا إلا لتكشف حجم معاناة الشعوب العربية من سطوة الأنظمة الديكتاتورية واستبدادها ولكن ما أعقب الثورات وخاصة في مصر كشف عن الانقسام المجتمعي الحاد. ولكن في هذه المرة كان بفعل الإسلاموية وفشل النخب الإسلامية التي تصدت للحكم في استيعاب الشارع المصري، وفتح قنوات الحوار الجاد مع النخب والتيارات الوطنية، فكان صراعاً حاداً أخذ أشكالاً من العنف في رسم هوية الدولة المصرية مما أدى إلى انقلاب الشارع المصري في (30 من يونيو). وهذه الصورة ليست بعيدة كل البعد عما يجري في العراق. ولا زال الحوار خجولاً في تونس للتوصل إلى رؤى مشتركة لتأسيس الدولة.

أما في سوريا فقد فاق العنف كل التصورات وتعملق الإرهاب المتمثل بالقوى الجهادية الظلامية ليسد المنافذ على آفاق الحوار وعودة الاستقرار إلى

بلاد الشام. فأصبح التغيير الذي يحلم به المواطن العربي بعد عقود من الظلم والاستبداد وبالاً عليه فيستيقظ على صوت المفخخات والعبوات وينام على أصوات المدافع وقصف الطائرات ومزيداً من التشريد والتهجير.

آفاق الحوار و (المواطن)

في صيف عام 2011م وفي بداية غليان المنطقة بحركة شعوبها وبربيعها الفاقع فيما بعد، جرت نقاشات مع بعض اساتذة وفضلاء الحوزة العلمية في النجف ومنهم سماحة العلامة حسن السيد عز الدين بحر العلوم عن ضرورة المشاركة في فتح آفاق نقاشية في مجالات حيوية تعكس أصالة الفكر الاسلامي، ونقاوته، ولمواجهة الآفات الخطيرة التي تهدد مجتمعاتنا وخاصة النزاعات المذهبية والقومية، وكانت جريدة (المواطن) إحدى الخيارات المتاحة لاستقبال نتاج هذه الصفوة والنخبة لتصبح المادة محوراً للتنمية الفكرية.

فكانت استجابة حسن السيد عز الدين بحر العلوم سريعةً وكان خياره الكتابة في محور (الحوار) ولكنه كان متردداً في باديء الأمر في مسألة الالتزام الاسبوعي وكنت مرناً في بادئ الأمر معه اعتقاداً مني بأن بدايات الأمور يجب أن تكون مفتوحة. وخصصت الجريدة صفحتها الثالثة لنشر مقالاته، وأيضاً احتلت مقالاته مكاناً مع كتاب الجريدة في موقعها الألكتروني.

الالتزام والمنهجية

المفأجاة الاولى: كانت في الالتزام بالكتابة في المحور الذي تم اقتراحه حينها، وهو البحث في مادة (الحوار) من جوانبها المختلفة، وكان الاتفاق أن يبَعثها في موعدها النصف الشهري على البريد الألكتروني. وطلب مني مراجعتها غير أني لم أف بوعدي لابن العم حيث حالت انشغالاتي من متابعتها فكنت أحولها مباشرة إلى السيد رئيس التحرير للنشر، والأخير كصاحب سوبرماركت ينتظر نهاية الأسبوع ليغري قراءه ببضاعة جديدة.

نعم كنت أقرأ جزءً منها بغير تتابع في بعض الاحيان عندما اقرأ الجريدة في الصباح أو اتصفح الموقع عند المساء وكنت أسعد حين أجد تفاعلاً من القراء

في تعليقاتهم على المواضيع المنشورة، وهذا ما كان يدفع رئيس التحرير بتذكيرى إن حدث بعض الأحيان تأخير لسفر أو لطاريء. واستمرت الحلقات لأكثر من عام ونصف عام بشكل متسلسل وهذا الالتزام بحد ذاته شكل المفاجأة الاولى.

المفاجأة الثانية: جاءت في منتصف هذا العام عندما أخبرني سماحة العلامة حسن السيد عز الدين بحر العلوم بنيته في طبع ما نشر في (المواطن) من مقالات له في مادة (الحوار) وتجميعها في كتاب منفصل فشجعته على ذلك وكان يفترض بالجريدة أن تأخذ على عاتقها المبادرة في النشر، وبعد أشهر معدودة أجد على البريد الألكتروني مادة الكتاب معدة للطبع ومعها رسالة يطالبني بالتقديم للكتاب. فوجدت نفسي ملزماً بكتابة صفحات معدودة مقابل عطاء متميز.

وبدأت اتصفح عناوين الأبواب والفصول بتأني فشدتني بعض الفصول وبدأت بقراءة المادة ـ وخلافاً للأعراف ـ من نهاية الكتاب وصولاً لبدايته. فجذبتني المنهجية التي اتبعها الباحث في التأصيل والتنظير للحوار فكانت بحق مورد اهتمام واستحسان فشكلت لي المفأجاة الثانية. وهنا شعرت بأنني قد أوفيت بعهدي في قراءة ما كتبه ولكن بعد مرور عامين وفي حلة ممنهجة تشير إلى قدرة الباحث وهذا ليس بغريب عليه إذا ما استعرضنا ما نشر له من مؤلفات تربو على خمسة عشر كتاباً وفي مختلف التوجهات غير أن الأعم الأغلب منها بحثت في مواضيع ذات صلة باحتياجات العصر وهذا التوجه بحد ذاته يسد فراغاً في الساحة العربية والاسلامية.

دوائر ثلاث تتحدد في مركز واحد

جاءت حصيلة الكتاب متمركزة في دوائر ثلاث:

* الدائرة الاولى: تبحث في أصالة الحوار ومبادئه وأصوله في الفكر الاسلامي.
* الدائرة الثانية: تناقش دور الحوار بين الأديان.
* الدائرة الثالثة: تنطلق إلى مواجهة اطروحة صراع الحضارات.

ومركز هذه الدوائر يستند الباحث فيها على دور الإنسان المسلم المؤمن برسالته السماوية باعتبارها خاتمة الأديان والتي تمنحه القدرة بما تمتلكه من

خصائص ومقومات ذاتية على خوض المعركة الحضارية ليكون عنصراً إيجابياً فاعلاً في توظيف امكانياته لتفعيل الحوار الموضوعي والجاد للانطلاق بشكل تدريجي نحو استيعاب الدوائر الثلاث.

واتصور أن هذه المنهجية موضوعية فما لم يستوعب المسلم دوره في التغيير، وما لم تتضح له آليات التغيير ومفاعليها ضمن الرؤى الاسلامية، يصعب عليه التقدم لاختراق أسوار حوار الدوائر الثلاث المتشابكة وما بين الدائرة الواحدة نفسها. إن الاختلاف سنة إلهية، ولا خلاف أن الانطلاق من حالة الاختلاف إلى حالة التوافق لا تمر إلا من خلال بوابة الحوار لذلك فهو محصلة مشترك للأطراف كلها، وللحوار على المستوى الفردي أو الجمعي قواعد وأصول وآليات تستمد أصولها من الشريعة الاسلامية، وأن عدم الالتزام بهذه الآليات سيكون البديل الطبيعي عنها التعصب والتجهيل والتكفير والإلغاء وهذا ما يقود إلى الصراع والنزاع والاقتتال.

يحاول الباحث تخصيص الباب الأول: لتأصيل مبدأ الحوار في الرسالة الاسلامية. ويبدأ بالتأصيل للحوار في الإسلام باعتباره منهجاً أساسيا ومبدئياً، ومبدأً من مبادئ القرآن الكريم، مستعرضاً المنهج القرآني للحوار وأسلوب الحوار، مستفيداً من حوارات الرسل والأنبياء لرسم الخطوط العريضة والقواعد العامة للحوار. فهو الوسيلة التي دعا اليها الله عز وجل للوصول إلى حقيقة الأمور والمستندة على الحجج العقلية والدليل المنطقي والمنسجمة مع الفطرة. ويستمد الباحث من السنة النبوية الكثير من الأقوال والأفعال في تأصيله لمبدأ الحوار حيث كانت وسيلة التواصل والاقناع ممتزجاً بالرحمة ومتصفاً بالعقلانية والرسالية. أما الباب الثاني: فناقش اطروحات السلام والتعايش السلمي وتناول فيها دور الجماعات الدينية في مجالات التنمية وركز على أهمية الحرية الدينية في دعم الاستقرار ممتزجة مع الآليات الديمقراطية.

تحالف الحضارات: تكامل القيم والعلم

كنت احس بانسجام عالي مع استخدام الباحث لهذا المصطلح في دائرته الثالثة: فقد استخدم مصطلح التحالف بدلاً من الصدام الذي بشر به (صموئيل

هنتغتون) الذي يرى حتمية الصدام بين الحضارات وأن الصراع سيكون بالتحديد بين الحضارة الاسلامية والغربية قبل بلوغها مرحلة التعايش في عالم يضم حضارات متعددة.

أما استبدالها بالتحالف سيقلب النظرية رأساً على عقب. وجوهر الأمر أن الحضارات يمكن لها أن تتكامل ولا تتقاطع.. فالحضارة الغربية قادرة على توفير الإمكانات المادية لتسهيل حركة الإنسان بينما الحضارة الإسلامية تساهم في منح الإنسان القيم الاخلاقية.

والواقع أجد تقارباً في الطرح في مفهوم الحضارة، فالحضارة بشكلها العام محصلة لمكونين أساسيين، الاول يختص بالقيم. واما المكون الآخر فيتناول العلم. والجانب العلمي هو الثابت أي بمعنى أن العلم منذ خلق البشرية وحتى اللحظة ومستقبلاً ينمو باستمرار لا يقف عند جهة معينة بل يعيش منحنياً تصاعدياً، نعم قد يتوقف كما نراه في الفترات المظلمة ولكنه لا ينتكس أبداً وترى في هذا الجانب تراكم حضاري علمي ينتقل من أمة إلى أمة.

أما المكون القيمي من الحضارة فهو متذبذب. أي بمعنى يتحد تارة مع الجانب الآخر فترى نمواً في الحضارة واتساعاً لها واختراقات جديدة. وتارة ينفصل المكونان ويبدأ المكون القيمي بالانحدار رغم أن المكون العلمي يأخذ بالصعود أو النمو البطيء حينئذٍ في قناعتي المتواضعة ترسم نهاية الحضارة لتولد حضارة أخرى على انقاضها. لذلك تبدو مقولة (حضارات سادت ثم بادت) مقبولة في هذا السياق.

وأتصور أن الباحث يرمي بنظرته إلى مواقع التحالف بين الحضارتين ويجد أن هناك مساحة للانطلاق بينهما تمنح الحضارة الغربية عمراً أطول ومساحة أوسع لخدمة البشرية. من هذا المنطلق... يمكن إبعاد حتمية الصدام بين الحضارتين وتحويلهما إلى تحالف وتكامل يسعى إلى إنعاش الإنسان.

وفي نظرة شمولية أوسع، يتسع الأطار ليشمل كل الحضارات الإنسانية، فيبحث الكاتب عن نقاط التلاقي بينها لإيجاد تحالف أوسع على قاعدة الثقافات المتنوعة العاكسة لأوجه تلك الحضارات. فهنا يمكن التنظير في تحالف الثقافات كمنطلق ابتدائي للمرحلة القادمة وهذا لا يمكن أن يتم إلا من خلال الحوار

كوسيلة لفهم ثقافة الآخرين وايجاد عناصر القوة فيها واستدعائها لتتموضع في مربعات الحضارة الإنسانية الواعدة. حينئذٍ يمكن لهذه المشتركات الخيرة أن تتحرك في اتجاه بناء حضارة إنسانية جديدة.

الاعتراف بالاخر

تتحد هذه الدوائر الثلاثة في مركز واحد، وهذا المركز هو الإنسان بذاته، فممارسة عملية التغيير التي دعا إليها الإسلام واعتمدها القرآن الكريم كركيزة أساسية نحو البناء، وأكدت عليها الرسالات السماوية، وكانت أساساً لبعثة الأنبياء لتشكل بمجملها حجر الزواية في الحضارة الإنسانية تدفع باتجاه نمو وارتقاء الإنسان.

ومن مستلزمات عملية التغيير هو قبول ثقافة الآخر والرأي الآخر التي تقبله الفطرة الإنسانية وتقوضه الانتماءات الموروثة، وتصبح وحسب تعبير الكاتب لازمة أساسية لتحويل المواقف وتجديد الوعي وتوسيع الادارك، وهذا ما يدعو له الاسلام، دعوته إلى الانفتاح وعدم الإنغلاق الفكري والخطوة الأولى فيها هو الانفتاح على الذات والتعرف على امكاناته ثم يتطلع إلى إمكانات الآخرين وعادة ما يكون الجهل مدعاة لإلغاء الآخر ويبدأ حينها النزاع والصدام.

إن ما يدعو إليه الكاتب في مجمل أبحاثه المتضمنة في هذا الكتاب هو الاعتراف بالآخر كمنهجٍ وليس كلمة تقال أو شعار يرفع بل فعل جماعي متفق عليه بناءاً على قناعة اجتماعية وقيم ومفاهيم يقرها القانون ويحميها حينئذٍ يكون للآخر حضوره ووجوده وشرعيته وقوته في مجريات الحياة لتوجه الحركة بالاتجاه الايجابي ولا يمكن تحقيق ذلك إلا من خلال الحوار.

مدرسة النجف ومسؤوليتها

في ظل التغييرات التي يشهدها العراق والمنطقة تبقى المدارس الفكرية التي لعبت دوراً مميزاً في التأريخ وتمتلك الأصالة في طرح الأفكار والتصورات أن تأخذ دورها في هذه المرحلة التأريخية الخطيرة، ومدرسة النجف لما تمتلك من تأريخ وامكانات فكرية ثرية قادرة على توجيه البوصله من خلال انتاج

الاطروحات الفكرية القادرة على تمويج حركة التنمية الفكرية. وما عرف عن النجف من اعتدال ووسطية ترشحها لأن تلقي بثقلها لتجديد الوعي والمدارك وتحريك الأجواء في المياه الساكنة نحو تشجيع الحوار والاعتراف بالآخر وضمن الأطر والضوابط التي تحفظ للمدرسة ثوابتها وخصوصيتها ساعية بذلك إلى فتح آفاق وعي جديد قادر على انقاذ العالمين العربي والإسلامي من محنته الراهنة.

فما لم تكن اطروحات فكرية تنويرية ناهضة فستبقى الفوضى تضرب أطنابها في المنطقة. ومن خلال هذه النوافذ الفكرية يمكن التأسيس على قواعد تمتد للحوار مع الحضارات الآخرى وتحاصر الفكر التدميري والتكفيري الذي بدأ يتسع بناء على غياب الوعي لدى البعض. إنها مسؤولية تأريخية يجب أن تتظافر الجهود في المدارس الاسلامية المختلفة للخروج من الأزمات التي تعيشها الأمة في خضم الصراعات المريرة. اخذ الله بيد العاملين إلى المزيد من العطاء والإنتاج الفكري المعرفي.

د. ابراهيم محمد بحر العلوم

جمهورية العراق ـ بغداد

25 تشرين الثاني 2013م

المحور الأول

أصالة الحوار ومبادئه وأصوله

هدفية الحوار في مسيرة الإنسان

من الظواهر التي لابد أن تعيشها المجتمعات (ظاهرة الاختلاف)، وهي ظاهرة واقعية لا مناص منها. ففي كل حقول وميادين الحياة نجد لها تجسداً واضحاً. بل لست مبالغاً إن قلت.. إن أساس الحوار ينطلق من الاختلاف، فلو لم تنطلق من الاختلاف لم تصل إلى التوافق. والتوافق هي الحصيلة المثلى للحوار الذي هو همٌّ مشترك لدى جميع المختلفين.

خلق الله البشرية أذواقاً متنوعة، وصوراً غير متشابهة، وأفكاراً مختلفة. قد نجد لهذه الظاهرة أمثلة حيّة حتى في البيت الواحد. فلا توافق كلي في أغلب الأمور ولا اختلاف أيضاً في كل مفاصل هذه الحياة، فكيف إذن بالمجتمعات المتعددة، وما تمليهم عليهم الثقافات العديدة التي تطرح في الميادين كافة. فعلى الإنسان في أن يسيّر الاختلاف في الطريق الصحيح والسليم من أجل الخروج من هذا الاختلاف إلى توافق واتحاد بشرط أن يكون الحوار القائم على أسس صحيحة.

إن الحوار.. لم يكن عندنا ـ نحن المسلمين ـ شعاراً يرفع أو أسلوباً مجرداً عن واقعنا، بل هو منهج رصين جسّده الرمز الأول للإسلام رسول الإنسانية محمد ﷺ، ليس مع المسلمين فقط، وإنما مع من كانوا يشكّلون عقبة كئداء أمام الحركة الرسالية. فحواره لم يكن مساومة، ولذا لم يتنازل عن مبادئه، وإنما من أجل الاقناع والوصول إلى الحقيقة من خلال الانفتاح في الحوار وطرح الرؤى والأفكار وتبادل الرأي...

إن الاختلاف سنّة الله في كونه، ولولا هذا الاختلاف في الخلق، لما دامت الحياة، واستمرّت، ولما تطور الإنسان في وسائله، وأدواته، ولما بلغ هذه المنزلة من السيطرة على قوانين الطبيعة ومظاهرها، وتسخيرها لاحتياجاته

لاجتراح حياة سهلة رغيدة. فالاختلاف أمر طبيعي شرط ألا يقود إلى تدمير مشتركات الحياة الإنسانية قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [يُونس: 19].

إلّا أن للاختلاف مرجعية هي الله وأحكامه قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ [الزُّمَر: 3]، فالحكم لله، والمرجعية في إنهاء الاختلاف والفصل فيه هو أحكامه وتشريعاته.

والحوار وسيلة للتواصل الإنساني بين الأديان والمذاهب والحضارات والفصل بينها ليعطي الاختلاف بعداً إنسانياً، يضعه في موضعه المناسب له. وبه يصبح رحمةً وخيراً. لا دماراً وخراباً. وبه يكون كشفاً للحق، ودحضاً للباطل، وتحريراً للعقول لا انحرافاً. وبذلك يكون الحوار ـ في مفهومه الإسلامي ـ تعبيراً عن قيمة حضارية باعتباره اسلوب الأنبياء في التبليغ والدعوة، واسلوب الإسلام في إظهار الحق، ودحض الباطل باسلوب الحكمة والموعظة الحسنة قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [النّحل: 125].

وتتنوع مجالات الحوار الإسلامي من حيث اطرافه إلى: حوار بين الشعوب، والجماعات، والمذاهب، والحكومات، والأديان، والحضارات. وتتنوّع وسائل الحوار إلى: حوار مباشر، وغير مباشر.. ومن حيث الموضوع إلى: علمي، سياسي، فكري، ثقافي، اجتماعي، اقتصادي.. وعلى ضوء ذلك يمكننا رسم ما يأتي:

1 - يجب أن يحمل المتحاورون، بعضاً من المؤهلات. كالتساوي في الرغبة في الحوار. والتكافؤ في حرية عرض موضوع الحوار. والتسلح بالعلم والمعرفة التامة في موضوع الحوار. والتحلي بسلوك لائق كاحترام الرأي الآخر. والرغبة في الوصول إلى الحقيقة، والاقتناع بنتائج الحوار.

2 -لابد من تحديد موضوع الحوار، ونقاط الاتفاق والاختلاف، وما أبهم وأشكل لكي يكون المتحاوران على بيّنة من الأمر، ليسهل عليهما عرض

الأفكار، ووسائل الوصول إلى نتائج الحوار المرجوة.

3 - كما ولابد ـ في أي حوار، وقبل إجرائه ـ من تعيين أهدافه لكي يكون جاداً، ومتّزناً، ومسؤولاً، ولكي لا يكون موضوعاً عبثياً لا هدف له، ولا فائدة منه.

وأهم أهداف الحوار ـ مهما كان موضوعه ـ هو الوصول إلى الحقيقة والتوافق عليها. وبهذا يحقق الحوار هدفه. فإن (الحكمة ضالة المؤمن). أما الحوار الذي لا يحمل هدفاً معيّناً، فهو لغوٌ باطل، وهو عديم القيمة، والفائدة.

4 - لابد لأي حوار من إدارة، تكون مهمتها تنظيم الحوار، وتوجيهه الوجهة الصحيحة والمفيدة وتكوين الفرص المتكافئة للمتحاورين، ومحاولة لجم الاتجاهات التي تخرج عن أهدافه، وقنواته الصحيحة. ويجب أن يتصف كل ذلك بالحياد، والموضوعية، والعلمية.

5 - للمكان الذي يُجرى فيه الحوار أهمية بالغة، بحيث تطمئن كل أطراف الحوار فيه، وتشعر فيه بالأمان، وتبدي وجهة النظر بحريّة ومن دون خوف أو وجل أو ارتباك مما يولّد مؤثرات تنعكس سلباً على الحوار.

6 - يجب أن تتوافر للمحاورين سعة من الوقت يتيح لهم أن يدلوا بوجهة نظرهم، كما يجب مراعاة الظروف الاجتماعية والنفسية والعلمية لأطراف الحوار زمنياً، بحيث يستطيع أن يعبّر عن وجهة نظره مطمئناً، آمناً، حراً.

7 - الحوار جهد فكري، وعمل عقلي، هدفه الوصول إلى الحقيقة، فيجب ـ على هذا ـ أن يكون للحوار منهج واضح، ومحدّد سلفاً، فيجب أن:

أ - تكون أطراف الحوار متفقة على قواعده، وأصوله التي تلزم الجميع باتباعها، ومراعاتها.

ب - أن يعرف كل طرف من أطراف الحوار حقائق وآراء الطرف الآخر من مصادرها، ويعي تفصيلاتها لكي يكون على بيّنة مما يقول، ويكون على وضوح فيما يهدف.

جـ - ثم أن عليه ألا يخلط بين الحق والباطل، وألا يستخدم أساليب التضليل والإيهام والاحتيال للوصول إلى هدفه، ويحقق الغلبة على خصمه.

د - لابد أن ينطلق المحاور من هدفية الحوار لا من خلفيات القناعة المسبّقة ليباغت الطرف المقابل فيفقد الحوار خاصيته وموضوعيته التي نسعى إليها..

هـ - ثم لابد من الانطلاق من قاعدة المرتكزات المشتركة بين أطراف الحوار للوصول إلى حقائق كلية. قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: 64].

8 - الحوار عمل فكري، هدفه متسام وهو الوصول إلى الحقيقة التي تطمئن إليها النفوس، وتركن عندها العقول، فلابد ـ إذن ـ من أن تكون للمتحاورين أخلاقية متسامية من: احترام مشاعر، ومعتقدات الطرف الآخر. وأن تكون المحاورة بالحكمة والموعظة الحسنة. قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النّحل: 125]. وأن يكون الحوار متسماً بعدم استخدام أساليب تدعو إلى السخرية والانتقاص، والسباب. قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعَام: 108]. ولابد ـ كما أسلفنا ـ أن يكون الحوار مبنياً على لغة مشتركة، وعلى مستوى علمي وفكري، غايته ايصال الرأي والرأي الآخر بسهولة ويسر كما ورد في الحديث الشريف: (إنا معاشر الأنبياء نكلّم الناس على قدر عقولهم) [1].

نستخلص من كل ما تقدم..

أن الحوار ضرورة.. وعلينا تقع المسؤولية بالدرجة الأولى والأساس لتوظيف منهج الحوار في حلّ مشاكلنا، حتى نكون الجزء الأساس من الحل لا من المشكلة.

(1) أحمد بن محمد بن خالد البرقي: المحاسن/ 1، 195، تصحيح وتعليق: السيد جلال الدين الحسيني، دار الكتب الإسلامية.

الحوار مع الآخر

الحوار فعل حضاري، وهو دليل على الحياة المتحضرة التي يعيشها الإنسان ووسائلها التي يطلبها. والحوار بدأ مع الإنسان، مع نفسه، ومع الآخر، على مستوى: الفكر، والعمل، والإنجاز. فبالحوار وحده تقدّم الإنسان، وبه وحده تطورت حياته، ووسائله، واستقرت قناعاته وأفكاره.

والمتأمل في حياة المجتمعات المتطورة، المتنوّرة، وفي حياة نُخبِها يرى أن للحوار وضعاً متقدّماً فيها، وهو في طليعة الوسائل التي ساعدت في حل كثير من الاشكالات، وفي الحفاظ على النسيج الاجتماعي المنسجم، والموحّد، والأنبياء صفوة الله في خلقه، كانت أداتهم ـ لتبليغ قومهم ـ الحوار، حوار ينطلق من أسس ثابتة، ويقوم على قواعد رصينة من الدليل العقلي، والحجّة القاطعة، والبرهان الساطع. وبهذا استجابت لهم أقوامهم، وآمنت برسالاتهم، وسلكت مسلكهم، والقرآن الكريم ـ أحد الكتب السماوية ـ يتخذ الحوار أداة من أدوات البرهنة والإقناع فيورد نماذج من قصص الأنبياء، وكيف اصطنعوا الحوار وسيلة لدعوة أقوامهم، وإقناعهم بصواب مواقفهم، وأحقيّة دعواتهم.

فنوح عليه السلام ومن بعده إبراهيم، وهود، وشعيب، ولوط، وموسى عليهم السلام، ومريم وابنها عليهما السلام ما هم إلّا نماذج عالية للحوار العميق الشفّاف الذي ينطق بالإحساس الصادق، والفكر النيّر، والحجّة البالغة، والنوايا الكريمة في دعوة الناس إلى الهدى والصراط المستقيم. ودعوة محمد ﷺ كلها قامت على الحوار بينه وبين قومه، فكان ما كان من باطل يمحق، وحقٍّ يظهر. وما زال الحوار قائماً، وفاعلاً على مرّ العصور إلى عصرنا الحديث الذي أصبح فيه الحوار ـ على مختلف المستويات والأصعدة ـ يؤدي دوره في حل المشكلات وتقريب وجهات النظر، بل وتوحيدها، والوصول إلى الموقف الأسلم.

هذا ما نراه على صعيد الفكر، والدين، والسياسة، والاجتماع. . .

إن أي حوار لا يقوم على احترام الرأي الآخر، ولا يقرّ له بحقّ الطرح، والعرض هو حوار لا جدوى منه لأنه يلغي الآخر، وبإلغائه تكون الكارثة.

إننا نتساءل: لو تعطّل الحوار، فما هو البديل عنه؟

إن البديل عنه: التعصب، والتجهيل، والتكفير، والتدمير، والإلغاء الذي يقود إلى الصراع، والاقتتال الدموي الذي يذهب بقيم الخير والحبّ والنماء، ويذهب بإنسانية الإنسان، وبعظمة أثر الأديان...

الحوار مع الآخر وأهميته في الفكر الإسلامي

حينما نقول: الفكر الإسلامي، إنما نعني ذلك الفكر المنبثق عن الإسلام، والمتطابق معه، والمعبِّر عنه. ومن المتّفق عليه أن القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة هما المصدر الأساس لكل ما ينبثق عنهما من أفكار، ومفاهيم، ومواقف، وأحكام، وسلوك فردي واجتماعي.

والقارئ للقرآن، والمتدبّر له، يرى أن الحوار سمة بارزة من خصائص القرآن الكريم، ودعوته للناس للتوصل إلى الحقيقة المطلقة، والإيمان بها وبما يستتبع ذلك. وهو حوار قائم على الحجة العقلية، والدليل المنطقي، المنسجم مع الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها.

والدارس لسنّة النبي ﷺ، يرى ـ جلياً ـ كيف كان يخاطب رسول الله ﷺ الناس بمستوى عقولهم، ومداركهم، وكيف كان يدير الحوار مع أصحابه، ومع معارضيه، وكيف كان يحترم الرأي الآخر وإن كان مناقضاً لرسالته. متخذاً كل وسائل الاستخفاف والبذاءة والايذاء سبيلاً لمقاومة الدعوة الإسلامية المباركة، وصاحبها ﷺ.

وهكذا كان الحوار وسيلة للتواصل عنده ﷺ واسلوبه للإقناع. كلُّ ذلك ممتزجاً بالرحمة، ومتصفاً بالعقلانية، وناطقاً بالرسالية.

وهكذا كان منهج أئمة أهل البيت عليهم السلام من بعده، فعلي عليه السلام قبل أن يبادئ خصومه بالقتال، كان يخطب فيهم، ويحاورهم، ويذكّرهم بآيات الله، وبوصايا رسول الله ﷺ هكذا فعل مع أصحاب الجمل، ومع أصحاب صفّين من أهل

الشام، ومع الخوارج قبل أن يلقاهم في النهروان، بل كان يرسل الرسل، ويبعث بالرسائل تعبيراً عن رغبته بالسلام، وحقن الدماء، فإن الحوار هو وسيلة ذلك.

وهذا الحسين عليه السلام ـ وهو في ساحة القتال ـ يحاور الذين عزموا على قتاله، وقتله، ولكنّه لم يبدأهم القتال، وإنما بدأهم بحوار وخطاب وموعظة وتذكير.

ولو درسنا سيرة الأئمة الآخرين من أهل البيت عليهم السلام لرأينا الأئمة يربّون أصحابهم على الجدل والحوار وحثّهم على الالتقاء مع فرقائهم في المذهب العقيدي أو الفقهي، ويوجّهونهم نحو السبيل التي هي أحسن، كما كان يفعل الإمام الصادق عليه السلام في تربية أصحابه كهشام ابن الحكم، ومؤمن الطاق وغيرهم. والدارس لسلوك الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام كما أوردته كتب العقيدة والتاريخ، فإنه صاحب الفكر العميق، والمنهج الدقيق، والخطاب الدقيق في محاورته مع أهل التوراة من علماء اليهود وأحبارهم، ومع الرهبان والنصارى، ومع رؤساء المجوس والصابئة. كلٌّ ذلك تمّ بروح ودّية، وبلغة ندّية، ومشاعر لا تستفزّ، أو تسيء إلى الآخر. وما زال أصحاب العقائد الأخرى، والمذاهب يستذكرون بكل ود وتقدير أهل البيت عليهم السلام وأساليبهم المتسامية في إدارة الحوار حتى مع العاصين، ومع الذين نصبوا لهم العداوة، وشنّ عليهم الحرب، وسعى في قتلهم، وقتل شيعتهم.

وعلى مستويات الفكر الأخرى، فقد استوعب المسلمون المناهج الفكرية الجديدة، والمذاهب العقلية، من فارسية، وهندية ويونانية، وهضموها وتمثلوها لخدمة الدين الجديد، فقامت المناظرات بينهم، فاختلفوا في أمور، واتفقوا في أمور، لكنهم لم يتقاطعوا، فكان اخوان الصفا في البصرة الذين أصدروا رسائلهم الفلسفية التي تنطق بالعقلانية، والعرفانية، والتسامي. وظهر فلاسفة دانوا لأرسطو في مناهجهم كالكندي، والفارابي، وابن سينا. وظهر نصير الدين الطوسي، وقبله أبو حامد الغزالي، وابن رشد وغيرهم ممّن اصطنع مناهج فكرية مختلفة لكنهم لم يتقاطعوا وإن اختلفوا.

وكانت المناظرات تجري في عهود الحضارة الإسلامية المستنيرة في موضوعات متعددة: في العقيدة والدين، واللغة والنحو، والشعر والأدب، وفي

الفلسفة والاجتماع وفي التاريخ والسيرة، وكانت هذه المناظرات والمحاولات تجري بانسيابية رائقة وسهولة فائقة لأن هدف الجميع الوصول إلى الحقيقة باسلوب علمي موضوعي. وإنْ حدثت حدّة في الجدل، فإنما هي حدّة في الكلام، لا يستتبعها عنفٌ، ولا قتال كما هي بين المعتزلة والأشاعرة، وكما هي بين الغزالي في كتابه (تهافت الفلاسفة) وابن رشد في كتابه (تهافت التهافت) فهو صراع بين منهجين: منهج يصطنع الحدس والكشف في الوصول إلى الحقيقة المطلقة، ومنهج يتخذ المنهج العقلي المتأثّر بأرسطو منهجاً للوصول إليها.

وإذا حدث شيء من الصراع العنيف بين فكرين، أو مذهبين، أو منهجين، إنما بسبب السياسة، ومصالحها كما حدث أحياناً بين المتصوّفة، وأهل الحديث، أو بين أهل السنّة والشيعة، وكما حدث عندما دخل السلاجقة بغداد فأحدثوها فتنة طالت شيخ الطائفة الشيعية أبا جعفر الطوسي (رحمه الله) فقد أحرقوا كرسيّه ومكتبته، فاضطر إلى الهجرة من بغداد إلى النجف الأشرف.

ثم تسلّطت العتمة على العالم الإسلامي، والأفكار المتطرفة طيلة عهود الظلام وقرون الانقسام، فانعدم الرأي، والرأي الآخر. ولكن بقيت بؤر فكرية إسلامية تشعّ بالعلم، وتدعو إلى الحقيقة، كما ظهرت الحلة وعلماؤها في العراق في القرن الخامس الهجري وما بعده، وظهر الأزهر في مصر في القرن الرابع وما بعده، والقيروان، وفاس في شمال أفريقيا، وحلب ودمشق وجبل عامل في بلاد الشام، فكانت منارات هدىً وبحور علم، وملاذ ورع وتقوى إلى أن جاء العصر الحديث.

وفي العصر الحديث وتحديداً بداية القرن التاسع عشر الميلادي ـ الثالث عشر الهجري بدأت طلائع النهضة الأوربية تصل إلى العالم الإسلامي وقلبه النابض العالم العربي، فكانت الطلائع مرة على شكل غزوات عسكرية، وأخرى على شكل بعثات استكشافية، أو علمية، أو تبشيرية، وثالثة على شكل موجات فكرية، تتخذ الانجازات العلمية النظرية أو التطبيقية غطاءً لها، وكان موقف العالم الإسلامي بين حالات الرفض المطلق، والقبول المطلق، والتردد بين الرفض والقبول.

فرفض ما كان يتعارض مع الشريعة الإسلامية، وقبل ما كان ينسجم مع

مفاهيم وروح وتعاليم الشريعة الإسلامية، وكان موقف التردد يقع فيما هو غامض الملامح، غير واضح الأهداف.

وبقي الصراع فكرياً نظرياً، لم يدخل باب العنف، ويجترح القتال، وإنما هو صراع الحجّة بالحجّة، والدليل بالدليل، والموقف مع الموقف، ثم بدأ القرن العشرون، وتلاحمت العلاقات بين العرب المسلمين وبين الغرب المسيحي، وبدأ العرب المسلمون يقبلون على الحضارة الغربية فالبعض يطالبون بالأخذ بها مطلقاً في عملية تغريب، وبدأ بعضهم يدعو إلى الانتقاء، والأخذ بما هو مفيد، وبما هو منسجم مع ديننا وتقاليدنا وقيمنا، وبقي البعض الثالث يراوح مكانه من دون حسم لموقفه. كل ذلك كان يجري على شكل حوارات فكريّة، وسجالات عقليّة على منابر الجامعات والجوامع وعلى صفحات الكتب والمجلات والصحف. لا يتعدى ذلك إلى الاحتراب. فقد كانت النخبة المثقّفة والمتعلّمة هي التي تقود آليات الصراع. أما عامة الناس، فهي تتابع ما يجري، فتنحاز لهذا الطرف أو ذاك، وتتحمس لهذه الفكرة أو تلك، فيكون حراكاً فكرياً رائعاً، وخلقاً حضارياً مبدعاً يثمر الجنى الطيّب، ويعبّر عن روح التسامح عند المسلمين إلى أن استقرت المواقف والآراء على قبول الجدية ما دام مفيداً، وأصيلاً، ومنسجماً مع قناعاتنا الدينية، وأعرافنا الاجتماعية.

وما يقال عن العالم العربي الإسلامي، يقال عن سائر انحاء العالم الإسلامي فقد طغت الدعوة إلى العلمانية في تركيا، فأُلغيت الخلافة الإسلامية على يد أتاتورك، وغيّرت كثير من المبادئ والممارسات ما يصطدم مع القيم الإسلامية ويشوه السلوك الإسلامي، ويعارض المظاهر الإسلامية. وعلى الرغم من أنه انقلاب كامل على الإسلام ومفاهيمه لكنّه جرى بصورة سلميّة لا عنف فيها، وما حدث في تركيا كاد يحدث في افغانستان على عهد (أمان الله) وفي إيران على عهد (رضا شاه) ولكن عمق القناعات الإسلامية عند الشعبين المسلمين حالتا دون حدوث ما حدث في تركيا.

والمتأمّل في تجارب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها لا يخطئ تمسك المسلمين بدينهم الكريم، ولجوءهم إلى الحوار، والتفكر والتدبر فيما يعرض لهم من أفكار ونظريات جديدة تقنّعت بقناع العلم وهي ليست منه وإن

حدثت ثورات مسلحة دمويّة هنا وهناك، فإنما هي ردّ فعل لغرض الاستعمار نفسه على الشعوب الإسلامية، فقد جاء الاستعمار الغربي بأساطيله، وسرّاقه، ومزيفي الحقائق، ودعاة الحرب على الإسلام، وفرضهم بقوة السلاح، فكان ردّ الفعل مماثلاً للفعل في القوّة والاتجاه.

هذا ما حدث في شمال افريقيا: المغرب، الجزائر، تونس، ليبيا... مثلاً لكن بقي الحوار على مستوى التنظير والتفكير قائماً. فأخذ المفكرون المسلمون العرب وغير العرب كثيراً من مناهج الغرب المسيحي في مجالات الفكر، والعلم، والتطبيق، ولم ينكفئوا على أنفسهم، أو ينغلقوا على ذواتهم، بل استفادوا من منجزات الحضارة الحديثة كل ما هو مفيد، وجديد، ومنسجم مع مفاهيمهم مما يطوّر حياتهم، ويسهّل تلبية احتياجاتهم، ويجعلهم في مصافّ الدول المتحضّرة، والمتطلّعة إلى وضع إنساني أفضل.

الأسس المنهجية للتعامل مع الآخر

لقد أقرّ الإسلام أسساً منهجيّة للتعامل مع الآخر، أهمّها:

أ - إنّ الحوار الذي يدور بين المسلم، والطرف الآخر، لابد من أن يتّصف بالخلق الإسلامي، فالإسلام بني على الأخلاق (إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق)[1]، فكل نظمه السياسية والاجتماعية والاقتصادية بُنيت على الأخلاق الإسلامية التي هي منبع التشريع، حتّى العلاقات الماديّة فإنها في البناء الإسلامي مصطبغة بالصبغة الإنسانية، وقائمة على الأخلاق الإسلامية.

ب - إنّ الحوار ـ في المنهج الإسلامي ـ يقوم على احترام الآخر: احترام فكره، وعقيدته ورأيه، وموقفه، فلا يستهزأ به، ولا يستخفّ به، ولا ينتقص منه ولا يزدرى. بل يحترم احتراماً كاملاً كوجهة نظر قابلة للخطأ، والصواب.

ج - إنّ الحوار ـ في المنهج الإسلامي ـ يبتني على المسلمات العقلية،

---

(1) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ 16، 210، باب 9 مكارم أخلاقه وسيره...

والبديهيات. وينطلق من الفطرة السليمة لإقامة الحجة، وتقديم البرهان، وتحكيم العقل في سوق الدليل بعيداً عن المماراة، والمماحكة، والمغالطة. ونبذ التعصب الذميم الذي لا يوصل إلى الهدف الذي أقيم من أجله الحوار.

د - إنّ الحوار ـ في المنهج الإسلامي ـ ينبغي أن يكون هادفاً. أي يسعى لتحقيق هدف ما. ولمّا كان هدف المسلم هو الوصول إلى الحقيقة بمختلف ألوانها، فلابد من سلوك شتى السبل للوصول إلى هذه الحقيقة، والاقناع بها سبيلاً للإيمان، والإيمان يعني: الإيمان بالحقيقة المطلقة ـ الله سبحانه ـ وأنبيائه، وكتبه، وشرائعه وأحكامه. فإن المسلم مطلوب منه أن يكون داعية للإسلام يوضح مقاصده، ومراميه، وحكمة أوامره ونواهيه، وسمو أهدافه ووسائله. فإن واجب المسلم في الحياة أن يواصل أداء وظيفة الأنبياء في الدعوة إلى الله، ويسلك سلوك الأنبياء، قولاً وعملاً في هذا السبيل، (ـ يا علي ـ فوالله لئن يهدي اللهُ بك رجلاً خيرٌ لك من حُمر النّعم) [1].

هـ - إنّ الحوار ـ في المنهج الإسلامي ـ يعمد إلى استخدام لغة سلسة، بعيدة عن التقعّر، والتعقيد، خالية من الاسهاب والأطناب، بريئة من البذاءة والابتذال لا تجرح، ولا تستفزّ، ولا تحبط، تعبّر عن الفكرة بدقة وعمق وحيادية. فاللغة أداة توصيل للأفكار، ووعاء لإبلاغ المقاصد والمعاني، فلابد من أن تكون مترفّعة عن الأفكار السطحية، والمعاني المبتذلة.

وحين نقول: المنهجية، فإنها أصبحت مطلوبة وضرورية في كل مناحي الحياة: النظرية، والعملية، العقلية، والتجريبية. فالحياة الحديثة التي يعيشها الإنسان تستلزم المنهجية في بحث أي أمرٍ من أمور الحياة، فكيف بعملية التواصل الإنساني، وصيانة النسيج الاجتماعي، وبلورة وتكوين القناعات الفكرية التي على أساسها تبنى الحياة، وترسى العلاقات الاجتماعية، وتتداخل المصالح إلى درجة الاندماج والذوبان ببعضها.

---

(1) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ 39، 12، فيما رواه العامة في غزوة خيبر. . .

إن الحوار إذا أريد له أن يكون ناجحاً مثمراً موصلاً إلى نتائجه الايجابية، فلابد له من أن يقف على أسس منهجية متينة رصينة. مع توافر النوايا الطيّبة. وإطراح الأحكام المسبّقة، ونبذ الأساليب المبتذلة في التعامل مع الآخر.

إنّ تهيئة المناخات النفسية والفكرية لأيّ عملية حوار يمكن عدّها من أسس ومقوّمات نجاحه، وخاصة إشعار الطرف الآخر بكيانه، وشخصيته. واستقلال رأيه، وموقفه مما يهيء الوضع النفسي له للولوج بأي حوار دون الشعور بالإحباط. والدونية، والقهر، والاضطهاد.

كما أنّ الكسب العاطفي يعدّ ضرورياً لكسب ثقة الآخر. واطمئنانه. لاختراق قناعاته، وجرّه إلى الإيمان بقناعات جديدة تكوّن أرضاً صالحة صلبة للوقوف عليها انطلاقاً إلى موقف جديد وبلورة رأي جديد. وإذا درسنا حياة الأئمة من أهل بيت النبوة عليهم السلام، فكثيراً ما نراهم يغيّرون الآخر رأياً، وموقفاً، وينقلونه إلى قناعات جديدة كما في حوارية الإمام الحسين عليه السلام مع الحر الرياحي، فقد نقله من موقف المحاربين له إلى موقف المناصرين له والمستشهدين بين يديه، حتى قال الحر: جعلني الله فداك، يا ابن رسول الله! أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع وسايرتك في الطريق، وجعجعت بك في هذا المكان، والله الذي لا إله إلّا هو ! ما ظننت أنّ القوم يردّون عليك ما ... وإنّي قد جئتك تائباً ممّا كان منّي إلى ربّي، ومواسياً لك بنفسي حتّى أموت بين يديك، أفترى ذلك لي توبة؟! قال الإمام عليه السلام : نَعَمْ، يَتُوبُ اللهُ عَلَيْكَ، وَيَغْفِرُ لَكَ...[1]. وكموقف الإمام موسى بن جعفر عليه السلام إزاء بشر الحافي، حيث سأل جاريته.. يا جارية! صاحب هذه الدار حرٌّ أم عبدٌ؟ فقالت: بل حر فقال: صدقت، لو كان عبداً خاف من مولاه! فلما دخلت قال مولاها وهو على مائدة السكر: ما أبطأك علينا؟ فقالت: حدثني رجل بكذا وكذا، فخرج حافياً حتى لقي مولانا الكاظم عليه السلام فتاب على يده[2]. فبدّلت هذه الكلمات من حياة بشر وجعلته ينتقل من موقف الضلالة إلى موقف الهدى والرشاد.. وهكذا تفعل المواعظ البليغة بأهلها.

(1) لجنة الحديث في معهد باقر العلوم: موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام/ 528.

(2) العلامة الحلي: منهاج الكرامة/ 59.

ضوابط الحوار مع الآخر

للحوار طرفان: شخصيّة المحاور الذي يقود عملية الحوار، ويتبنّاها.. وشخصية الطرف الثاني للحوار.. ومن الطبيعي لأي حوار يدور بين طرفين أن يحقّق شرطاً أساسياً هو أن يملك كلّ من الطرفين حريّة الحركة الفكرية التي يملك معها الثقة بشخصيته الفكرية المستقلة، فلا يكون واقعاً تحت وطأة الارهاب الفكري والنفسي الذي يشعر ـ معه ـ بالانسحاق أمام شخصية الآخر نتيجة إحساسه في أعماقه بالعظمة الكبيرة والمطلقة التي يملكها الآخر.

ثم لابد للحوار من مناخ يعيش فيه كي يتحوّل إلى عملية منتجة بدلاً من أن يكون عملاً ضيّقاً في الشكل والمضمون.

ثم المحاولة الجادة لخلق الأجواء الهادئة للتفكير الذاتي المستقل الذي يبتعد عن التأثيرات الانفعالية. كما أنه لابد لكلا طرفي الحوار من معرفة الفكرة التي يريد الحوار فيها بجميع مستلزماتها العامّة والخاصّة.

ثم بعد ذلك لابد للمحاور من ممارسة الاسلوب الذي به يحاور والذي يستطيع أن يقود الآخرين إلى الإيمان بما هو مؤمن به، ويتمثّل ذلك باسلوب قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النّحل: 125].

ولابد لمن يدخل في عملية الحوار من إعداد جوّه الداخلي للاقتناع بالنتائج الحاسمة التي يقوده إليها، وإلّا انقلب الموقف إلى جدل عقيم، لا يراد منه إلّا عرض العضلات الكلامية والمزايدات الجدلية، التي لا تقدّم أو تؤخر في الموضوع.

وفي ضوء ذلك لابد للمحاور المسلم من العمل الجاد للابتعاد بالحوار عن هذه الأجواء الانفعالية المشدودة إلى الجوّ العدائي العام لينقلهم إلى الجوّ الهادئ الذي يعيدهم إلى جذور الفكرة، وأُسسها الأصيلة من جديد، لتبدأ رحلة الحوار من بدايات الفكر، لا من نهاياته.

وقد يحتاج الإنسان ـ في عملية خلق الأجواء الهادئة للحوار ـ إلى الالتفات إلى بعض الحالات التي يخضع فيها أطراف الحوار إلى إحساس عميق بقداسة

الفكرة التي يؤمنون بها، ويدافعون عنها إنطلاقاً من جوانب عاطفية ترتبط بالذات وبعلاقاتها بعيداً عن أي منطق فكري أو عقلي مما يجعل الإنسان مشدوداً إلى الفكرة بالمستوى الذي يكون فيه مشدوداً إلى الأشياء التي تتصل بعاطفته ومشاعره الحميمة، فيصعب عليه الانفصال عنها.

إن عالمنا أصبح عالماً ضيِّقاً، فكأنّه ـ كما يقال ـ قرية صغيرة لتطور وسائل الاتصالات، وآليات التواصل الاجتماعي، والفردي، ودخول وسائل الإعلام في كل زاوية وفي كل بيت، ومعنى ذلك انتقال الأفكار، والآراء والفلسفات والتصورات والرؤى بسرعة فائقة، مما يؤدّي إلى احتكاك وحراك، وتبادل المواقع، والاتجاهات، لهذا أصبح الحوار ضرورياً مع الآخر لتفادي حدوث الصراع العقيم الذي لا يؤدي إلّا إلى خراب ودمار، وتقاطع إنساني، يفعل فعله السيء في النفوس، وفي الهيئات الاجتماعية، والمنظومات الفكرية. ولهذا أصبح الحوار بديلاً ضرورياً وحيوياً عن ذلك.

وكان الالتزام بضوابط الحوار التي ذكرناها آنفاً ضرورياً لنجاح أي عملية حوار، وتحقيق أهدافها المتوخاة منها. وربما كان التخطيط لعملية الحوار هدفاً ووسيلة مع توفّر النيّة الصادقة للوصول إلى الحقيقة، والتواصل معها. وكذلك توفير المناخات المناسبة لانجاح الحوار من دون فرض رأي، أو قسر موقف على أي طرف من أطرافه.

ونحن نؤكّد ـ هنا ـ أن ليس من الضروري أن يخرج الحوار بنتائج الاقناع والتطابق. وإنما المهم أن يقع الحوار، ويتواصل الطرفان، ويخرجا متفائلين بإمكان تبادل الأفكار، ورفع الاشكالات، وخلق أجواء ايجابية، تحفّز على مواصلة الحوار، والإيمان به بديلاً عن الصراع العقيم.

إنّ الحوار فعل إنساني حضاري لا يمارسه إلّا مَن يؤمن بالإنسان وسيلة وغاية، وبالحقيقة هدفاً، وباحترام الرأي الآخر سبيلاً للتعايش بين الآراء، والتوافق في المواقف، وبناء العلاقات الإنسانية على أسس المحبّة والتسامح، والتكافل، والتعاون، والتفاهم، والتعارف، وبذلك يحقّق الحوار فعله.

الحوار مع الآخر في القرآن الكريم

القرآن هو كتاب الحوار، والحوار منهج مبدئي في القرآن الكريم، والحوار أسلوب الأنبياء، ورسالتهم الإلهية إلى الإنسان. وقد جعل ـ القرآن الكريم ـ من الحوار منهج تربية في تكوين القناعات، وبهذا يمكن لنا تكوين مجتمع عقلاني في مواجهة كل القضايا، التي تتحرّك على الصعيد العقيدي والسياسي، والاجتماعي. وهذا ما أراده القرآن الكريم في تخطيطه لايجاد المجتمع الإسلامي المنفتح المتوازن الذي يقود الآخرين إلى التفكير في قناعاته، كما يعمل على إثارة الحوار الفكري معهم في قناعاتهم من أجل أن يكون للحق قاعدة فكرية يرتكز عليها في حركة الحياة.

وإذا كان القرآن يتحدّث باسلوب العنف عن بعض هؤلاء الذين ينطقون من موقع الفكرة المضادة، فلم يكن ذلك نتيجةً للروحيّة التي تفرض الخلاف بالقوة، بل كان نتيجةً لامتناعهم عن الدخول في أجواء الحوار وابتعادهم عن استعمال الأدوات التي أتاحها الله لهم للمعرفة وللتفكير.

وقد تكون مسألة الحوار في مضمونها الإنساني مسألة تتصل بتكوين الشخصيّة الإنسانية في النطاق الاجتماعي الذي يتحسّس الإنسان فيه وجوده مع الآخر.

والحوار يمثّل مظهر الحياة في معناها الحركي. أما اللا حوار فإنه يمثل معنى الموت في جموده وسكونه، وبذلك يكون المجتمع حياً، وميّتاً، ساكناً ومتحركاً بمقدار ما يكون محاوراً أو منغلقاً.

إنّ قيمة الحوار في القرآن الكريم أنه لم يحدّد للإنسان موضوعات الحوار، فلا مقدّسات في مفرداته، ولم يحدّد له الإنسان المحاور، فلا مشكلة من الحوار مع أي إنسان كان، لأن القضيّة ليست قضيّة الموضوع هنا أو الإنسان هناك، بل

القضيّة كل القضية هي أن هناك حقيقة لابد من أن نتعاون على اكتشافها، والوصول إليها، ليكون الحوار وسيلة تعاون لاكتشاف هذا المجهول، لا لتسجيل كل واحد منا نقطة سلبيّة على الآخر بطريقة جدلية منغلقة.

وقد كان القرآن الكريم يمثّل المدرسة التي انطلق منها النبي محمد ﷺ وأصحابه في اعتماد الأساليب المتنوّعة للحوار، والاطار العام للخط الإسلامي في ذلك والدروس العملية التي تجسّد وصول الحوار إلى هدفه الطبيعي في حركة الحياة والإيمان.

وحين ينفتح الحوار مع الآخر، يتحدّد موضوع الحوار. وعلى أساسه يتحدّد أسلوبه، ومنهجه، ذلك إنّ الاسلوب العملي هو مناقشة اطراف الحوار في المنهج الذي يجعلهم يتحرّرون من الخضوع للشعور بالقداسة التقليدية. لينطلقوا ـ بحريّة وقوّة ـ مع أفكارهم كشرط أساسي لوصول الحوار إلى هدفه.

ومعرفة موضوع الحوار ـ أيضاً ـ أمر ضروري، فلابد لكل من طرفي الحوار من التعرّف على الفكرة التي ينطلقان في طريق إثباتها، ونفيها، لأن الجهل بها، وبتفاصيلها يحوّل الحوار إلى اسلوب من أساليب الشتائم، والمهاترات، التي يغطّي بها كلّ منهما ضعفه وعجزه عن الوقوف موقف المدافع القوي عن فكرته، بينما تجعل المعرفة كلاً منهما واعياً لما يطرح، وما يستقبل من فكر مما يجعله يعرف كيف يبدأ الحوار. وكيف يخوض فيه وكيف ينتهي منه، في وضوح فكرة، وهدوء فكر، وقوّة حجة، ووداعة كلمة، وطبيعة الموقف، يتطلب اسلوباً خاصاً في الحوار، ولهجة محدّدة له، فهناك طريقة العنف التي تعتمد مواجهة الخصم بأشدّ الكلمات، وأقساها، وهذه الطريقة لا تنتج إلّا مزيداً من الحقد والعداوة.

وهناك طريقة اللاعنف التي تعتمد اللين والمحبة أساساً للحوار انطلاقاً من القاعدة الإسلامية التي تعتبر الحوار وسيلة من وسائل الحركة المنفتحة للوصول إلى الهدف، وقد ركّز القرآن الكريم على هذه الطريقة في كل أساليب الحوار والجدال. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فُصّلت: 33-34]، وقال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ

رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: 125]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 46].

وقد يتّبع القرآن الكريم اسلوباً آخر يتمثل ذلك في اعتبار الشك طريقاً إلى اليقين. ذلك أن اعتبار الشك موقفاً مشتركاً بين الطرفين للذي يريد أن يصل إلى الحقيقة كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: 24].

وقد ينطلق الحوار من الافكار الباطلة التي لا نؤمن بها أساساً أو نؤمن بخلافها باعتبار أن ذلك احدى الوسائل التي قد تقضي على مقاومة الخصم، وتخرجه من عناده.

إن القرآن الكريم يتناول القضية في حالة جدال الكفار بالباطل ليدحضوا به الحق، فيشجب ذلك، ويستنكره أشدّ الاستنكار كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ [الكهف: 56]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 78]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 76].

فالحوار مع الآخر في القرآن الكريم يخضع لطبيعة الموضوع. والاسلوب الذي يناسبه، ويخضع لموقف الآخر. لكنه في كل حال يقوم على احترام الآخر، رأياً وموقفاً. فيتعامل معه على أساس ذلك بغض النظر على أفكاره، وعقائده، ودرجة تشدّده، إنما هو الحوار الهادف البنّاء الموصول إلى الحقيقة.

وخلاصة القول: إنّ الهدف من الحوار إذا كان الوصول إلى الحق فمِنَ الطبيعي أن يكون الحق هو الفكر الذي يجسده الحوار جملة وتفصيلاً في الاسلوب والغاية. ولهذا فإنّنا نرفض الأساليب الجدليّة التي تبتعد عن الحق. وتعتمد على التلاعب بالحقائق في محاولة لاخفاء ضعف المجادل عن ممارسة

الموقف القويّ ضد الباطل. ومع هذا يكون الطرف الآخر وسيلة لدحض الباطل وإظهار الحقيقة، وآليات توصيلها، والإقناع بها، مع الحفاظ على أحقّيته في عرض عقيدته والدعوة إليها.

الحوار مع الاخر ضرورة لتجاوز الخلاف

إن التقدم المطرد الذي نشهده في عصرنا هذا في وسائل الاتصالات خاصة عبر شاشات الفضائيات والانترنيت والهاتف المحمول قد جعل التعارف والتبادل فيما بين معظم شعوب العالم ودوله أكثر يسراً وأصبحنا نعرف الكثير عن بعضنا البعض ونطلع على أهم ما يدور في معظم أنحاء العالم. ومن ثم ازدادت العلاقات كثافةً وتشابكاً وتداخلت القضايا المحورية التي تهم البشرية والانسانية جمعاء فيما بينها وأصبح الحوار مع الآخر غير كافٍ للتقارب بين الثقافات الانسانية وأصبحنا نواجه تحديات عديدة تعيق الحوار وتعرقله وتجعلنا في حاجة الى مزيد من التقارب والتفاهم للتوصل الى تحالف فكري وإنساني يجمع بين جميع الثقافات والحضارات ويرتكز على الثوابت الأساسية في كل حضارة[1].

إن الجهل، علّة سوء الفهم، وسبب لنشوء كثير من المشاكل وعلى مختلف الأصعدة والمستويات، مما تترتب عليه أحكام جائرة. وممارسات خاطئة، ومواقف معادية، وهذا ما ينطبق على موقف كثير من الناس من الإسلام. فالإسلام ذلك الدين القيّم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، أنزله الله رحمة للعالمين، لكي يحقّق لهم سعادة الدارين ولكي يجعل الإنسان منشدّاً إلى خالقه سبحانه، ولكي يحقّق مفهوم الخلافة عنه على هذه الأرض.

هذا الدين نجد من يعارضه ويحاربه ويكيل له التهم الباطلة، انطلاقاً من جهله بحقيقة هذا الدين، وبحقيقة مراميه، وكما قال الإمام علي ﷺ: (الناس

---

(1) لاحظ لذلك مفصلاً الدكتورة فوزية العشماوي: الحضارات والثقافات الإنسانية: من الحوار إلى التحالف/ وقائع الندوة الدولية التي عقدتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ـ إيسيسكو ـ بالتعاون مع وزارة الثقافة والمحافظة على التراث في الجمهورية التونسية، ، تونس 30/ 1 ـ 1/ 2/ 2006م.

أعداء ما جهلوا)[1]. ومما زاد في الأمر سوءاً إن هذه الدعوات الهدّامة، والاعتراضات الباطلة، والاتهامات السوداء ـ التي تنطلق من حالة الجهل أساساً ـ اصطبغت بصبغة العلمية، أو تلوّنت بلون الحقيقة ـ وما هي من العلمية والحقيقة بشيء ـ وإنما هي جزء من حرب ضروس، تشنّ على الإسلام وأهله. غايتها طمس الحقيقة، وتحقيق مآرب دنيوية خسيسة قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: 32].

إن هؤلاء الذين يناصبون الإسلام العداء، ويكيدون له كيداً ـ في أغلبهم ـ ينطلقون من حالة الجهل، لا الكراهية، لكن هذا الجهل سرعان ما يقودهم إلى الأحكام الخاطئة، والمواقف العدائية، مما يجعل الكراهية تتسرّب إلى روحه، فتفسدها.

إذن.. علينا نحن ـ المسلمين ـ أن نعرّف بالإسلام، وحقائقه، ونعرض لهم صورة الإسلام كما هي، وكما وردت في كتابه الكريم، وسنة نبيه العظيم ومن تابعه ووالاه، نعرضه بمبادئه الحقة، وقيمه العظيمة، وأهدافه الكريمة، ودعوته إلى الحق والحرية والعدالة، والمساواة، والسلم، والتآخي مع الآخر، والتعايش معه في عقيدته وسلوكه، وأول ما يكون ذلك هو أن يفهم المسلم دينه، ويتمثل قيمه، ويسلك سبيله المستقيم لكي يكون صورة ناطقة صادقة للإسلام، فعند ذلك ينجذب إليه غير المسلم، وينفتح عليه وعلى اسلامه، فيتعرف على الإسلام من خلال سلوكي الواقعي، فتتعدل عنده الصورة، وتنكشف لديه الحقيقة، فيرى في الإسلام الخير كله كما قال الإمام الصادق عليه السلام: (كونوا دعاة للناس بالخير بغير ألسنتكم)[2]، وزاد الإسلام على ذلك إذ حبّب للناس التواصل بالحوار، وحدّد أساليب الحوار، ورسم أهدافه، ووضع موازينه فقال تعالى: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: 46]. فالإسلام خير كله، وهو لا يريد للناس إلّا الخير،

---

(1) نهج البلاغة: 4، 42، شرح الأستاذ الإمام محمد عبدة، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان.

(2) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ 12، 162، ح1، باب: وجوب الصدق.

وعلينا اتّباع أساليب الحق والخير للوصول إلى عقول الآخرين، وضمائرهم وهذا لا يكن إلّا بالحكمة والموعظة الحسنة، والتي هي أحسن.

إن الحوار مع الآخر ـ من المنظور الإسلامي ـ يخضع لثوابت وأصول حدّدها القرآن الكريم، وأولها احترام عقيدة الآخر، ودعوته إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، وسلوك السبيل الأحسن في الجدال والحوار، لتوصيل المفاهيم الإسلامية إليه وعرضها على فهمه، لكي نصل معه ـ الآخر ـ إلى أرضية مشتركة ـ هي ارضية الأديان السماوية ـ لكي نقف عليه بثبات، وتوحّد موقفنا تجاه مسائل الحياة، وصولاً إلى التعايش السلمي بين الدول والشعوب والأفراد. وتجارب التاريخ ـ بالتعايش مع الديانات أخرى ـ تصرّح بذلك، فقد عاش المسلمون وغيرهم من اتباع الديانات الأخرى في إلفة وتواد وسلام واحترام، وذلك أن المسلمين سلكوا مسلك الإسلام السمح في حوارهم وتعاملهم مع غيرهم، إنسانياً واجتماعياً واندمجوا معهم لتحقيق هدف واحد هو إنسانية الإسلام، وإعلاء قيمة الإيمان.

إن الهدف من إشاعة الحوار بين المسلمين وغيرهم، ليس هو تغيير دينهم، وإدخالهم إلى الإسلام، والتشكيك بعقائدهم قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البَقَرَة: 256]، وإنما الهدف هو إيجاد قاعدة مشتركة للعيش السلمي يحققون من خلالها الحياة القائمة على المحبة والسلام والمصالح المشتركة وصولاً إلى رضا الله ونيل رضوانه في الدنيا والآخرة. فرسالات السماء متكاملة، ودين الله واحد، وهذا التتابع في انزال الرسالات السماوية ما هو إلّا لحكمة بالغة والهدف الأساس لها هو إعلاء كلمة الله في الأرض، وإشاعة قيم التوحيد، وفضائل الإيمان، وإذا رأينا اختلافاً بين الأديان، فهو اختلاف في التفاصيل التي يقتضيه طبيعة المرحلة التي انزل فيها هذا الدين، أو ذاك، وإذا رأينا صراعات قامت هنا أو هناك بين هذا الدين أو ذاك فما هي إلّا صراعات مفتعلة دافعها تحقيق مصلحة دنيوية لشخص أو فئة. أو أحجبتها دواعي السياسة، ومطامح حب التوسع وليس للدين الخالص فيها من نصيب أو نفع، أو هدف، فالأديان كلها منبعها واحد، وسبيلها واحد، وهدفها واحد. وما الاختلاف والخلاف بينها إلّا لتحقيق مآرب دنيوية، يتأتى عنها الدين ويربأ بنفسه عنها.

إذن: ما العمل في مواجهات التحديات التي تواجه الإنسانية نتيجة تعدد الأديان؟

إن تعدد الأديان، ليس مشكلة ولا كابوساً، ولا مدعاة للصراع، والاقتتال، وإنما هو حالة طبيعية، وواقعية في حياة الناس على مر العصور، وتعاقب الأجيال، بل الاختلاف سنة الحياة التي برّأها الله فالابن يختلف مع أبيه، والاخ يختلف مع أخيه، والصديق مع صديقه والحبيب مع حبيبه، والفرد مع مجتمعه... ولكن هذا الاختلاف في الرأي يجب أن لا يفسد للود قضية. فتوافر النوايا الحسنة، والفهم المشترك، والرغبة الصحيحة في العيش المشترك كل ذلك يجعل الاختلاف أمراً طبيعياً، والحوار أمراً مشروعاً، والوصول إلى هدف مشترك أمراً مطلوب، وبذلك نستطيع أن نتجاوز الاختلاف إلى الالتقاء والاتفاق، وخاصة أن هناك قواسم مشتركة بين الأديان، وأن هناك أهدافاً موحدة، توحّد الطريق بينها فعليها أن تجعل رضا الله ـ سبحانه ـ في أوليات حساباتها الدنيوية والأخروية، وأن تجعل موقفها واحداً في مواجهة حملات الكفر والالحاد والتضليل، ومحاولة استبعاد الإنسان لأخيه الإنسان.

الحوار بين مثالية العنوان وواقع المتحاورين

أصبح العالم قرية صغيرة، لتطور وسائل الاتصال الحديثة، وأصبح الواحد منّا قريباً من الآخر في الزمان والمكان، ويحتك بالآخر ـ وإن لم يره ـ فكراً ومفاهيم، وسلوكاً، وأصبح بعض من في هذا العالم متحضّراً، تطوّرت عنده وسائل العيش، وغدا يسلك مسلكاً متحضراً، يتجنّب فيه العنف، توفيراً للجهد والمال والوقت، وإيثاراً للسلامة، وحرصاً على الإبداع، وعلى الراحة والسعادة التي بات يستشعرها في حياته الجديدة، بينما ظل الآخر في دائرة الانشداد إلى الماضي بكل ما فيه من قيم الصراع، وأساليب العنف والقتال وروح تجاهل الآخر، وإلغائه.

ومن هنا نشأت الحاجة إلى الحوار، وفتح قنوات إنسانية: ـ فكرية، ونفسية ـ بيننا وبين الآخر، نتلقّى منه، ونعطيه، ونأخذ منه، ونمنحه، في عملية دائبة هدفها الوصول إلى الآخر والتأثير فيه، وإقناعه بصواب موقفنا، والتأثر منه بكسب كل الوسائل المتقدّمة التي يمتلكها والتي نحن بحاجة إليها.

والكل.. اليوم بأمس الحاجة إلى الحوار بين بعضهم وبينهم وبين الآخر.

أما الحوار فيما بينهم، فهو منهج اختطّه الإسلام للوصول إلى السلام الحقيقي في المجتمع المسلم المتكافل، فالقرآن الكريم يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجرَات: 10]. وهذا رسول الإسلام والسلام ﷺ يقول: (مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[1]. ويقول ﷺ أيضاً: (المؤمن للمؤمن بمنزلة البنيان يشدّ بعضه بعضاً)[2]، وقال ﷺ: (المؤمنون يد واحدة على من

---

(1) محمد الريشهري: ميزان الحكمة/ 4، 2837، دار الحديث، قم المقدسة.

(2) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ 58، 150، مؤسسة الوفاء، بيروت ـ لبنان.

سواهم)[1]، وهذا لا يتحقق إلّا بالتكافل والتفاهم والتعاون، ويكون الأساس في كل ذلك هو الحوار، والتواصل.

وإذا نظرنا إلى مجتمعاتنا الإسلامية اليوم في مشرق الأرض، ومغربها، لرأينا ما يهول، وما يرعب، فهي مجتمعات متمزّقة متفرقة، يأكل بعضها بعضاً، انعدمت فيها القيم الإسلامية، وانقطعت بينها العلاقات الإنسانية الحميمة، وذلك بسبب انقطاع الحوار الايجابي بينها، فانغلقت على نفسها، وتقوقعت على ذاتها، لا ترى غيرها، وإذا رأته، فإنها تراه على شرّ، وعلى باطل، وعلى خطأ، ورؤيتها هذه غير قابلة للمراجعة لهذا عاشت هذه المجتمعات أسيرة أوهامها، وأحكامها القاصرة التي بنيت على حيثيات قاصرة، وعلى مسلّمات باطلة.

الحوار ليس لحلّ الخلافات والنزاعات فقط، وإنما هو للاستفادة من آراء الآخرين، والاطلاع على ما لديهم من خبرات وقدرات (ومن شاور الرجال، شاركهم في عقولهم) [2]. ومن الأخطاء الشائعة: أن حاجتنا إلى الحوار، تقتصر إلى مواطن الخلاف فقط.

يعتقد البعض خطأً أن الحوار عادةً ما يكون مجدياً بين المتنافرين والمتضادين. غير أن هذه النظرة جعلت من الحوار أسلوباً محصوراً في دائرة ضيقة، ومفرزة من كثرة المتضادات والمتباينات في واقعنا الإنساني.

إن الحوار أسلوب ووسيلة للتقارب بين المتقاربين ومن امتدت بينهم أواصر علاقة، وجسور محبة كما بين الزوجة وزوجها، والأبن وأبيه، والصديق وصديقه، والمسلم والمسلم. لما له من أثر في تعميق وتجذير وتأصيل تلك الروابط، وبه تندحر المتباينات والمتناقضات.

ومن هنا يبرز التساؤل أمامنا: هل يكفي مجرد الحوار لنتجاوز كل الخلافات العالقة بيننا، وإزالتها، أم لابد من إيجاد أمر آخر لا يكون للحوار قيمة إلّا به؟ فكم من المتحاورين انقلب حوارهم إلى جدل غير مفيد، لا ينجب إلّا الأحقاد والضغائن. إذن: لابد من الحوار الايجابي والقائم على الأساليب

(1) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ 58، 150.
(2) قطب الدين الراوندي: منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة/ 3، 238.

الصحيحة، والمعتمدة على أصول الحوار، وأسسه الثابتة المتينة.

إذن.. ولكي يكون الحوار مثمراً، وايجابياً، وبنّاءً، ويوصل إلى نتائج مفيدة، وحاسمة، لابد له من أن يبتني على قواعد ثابتة، وأصول راسخة، أهمها:

1 - إن تهيئة الأجواء المناسبة من أهم العناصر لضمان نجاح عملية الحوار، والانتهاء بنتيجة مقبولة، فلابد من: الابتعاد عن الأجواء الضاغطة والصاخبة، واستئصال لغة الاستعلائية والحتمية التي تجعل كلاً من الطرفين لا يؤمن بلغة الحوار التي يؤديها. ولذا نجد أن القرآن الكريم يطلب من نبي الرحمة أن ينزل إلى أدنى مستويات التفاهم الحواري مع الخصم في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سَبَإ: 24]. ومن دون مراعاة ذلك فإنه يفضي إلى فشل الحوار، ونهايته بالخيبة، وعدم تحقيقه النتائج المرجوّة منه.

2 - الحوار من المسائل الحسّاسة، فهو تدّخل في عمق التركيب النفسي والاجتماعي للمحاور، وكثيراً ما يخلط المتحاوران بين موضوع الحوار، وبين الخصائص الفردية والاجتماعية للطرف المحاور، وخاصّة حين يقع أحد الطرفين المتحاورين في مأزق فكري جدلي، ففي سبيل الخلاص منه يلجأ إلى إدخال العناصر الشخصية للطرف الآخر، وينسب إليه السيّئات، ويبحث فيه عن النقائص، ويتتبع عثراته، وهو على استعداد أن يكذب عليه ويفتري، فينسب إليه ما لا يوجد فيه، طمعاً لاسقاطه، ليخرج منتصراً في حواره وفي موقفه، فكأن الانتصار، وإسقاط الطرف الآخر هو الهدف، وليس فتح قنوات جديدة للفهم، والتواصل والتقارب.

ومن أجل أن تكون الحياة صالحة لمسيرة الإنسان، وخالية من التعقيد لابد من الوضوح في الرؤوية وعدم خلط الأوراق التي لا ينتج عنها إلا سوء الظن وفساد الأخلاق. فالأمور يجب أن تكون واضحة، وأن تعزل المصالح الشخصية والنظرات الخاصة، والتصورات الذاتية عن موضوعة الحوار وأساليبه وأهدافه ونتائجه.

3 - لابد للمحاور أن يتمتع بحسن الاستماع. وقد قيل: (إنّ كل متحدّث

بارع، هو مستمع بارع)، فالمحاور لابد وأن يتمتع قبل كل شيء بحسن الاستماع حيث به يتمّ استيعاب الحديث أكثر فيتيح الفرصة لنفسه بالتفكر ولمحاوره بإكمال الفكرة.

كما أن الحوار لا يعني أنه حق لطرف واحد، يستأثر فيه بالكلام دون محاوره. فهناك فرق بين تبادل الآراء، وبين الاستبداد الذي هو إجهاض للحوار، وقتل للحقيقة، وطمس لآثارها.

4 - احترام الإنسان ورأيه واجب مقدّس. وعلى الإنسان أن يُشعر الآخر المحاور بذلك، فلابد من توقيره، وتقدّيره، وأن يجعل منه إنساناً ذا عقل وكرامة وحرية، بعيداً عن عبارات التجريح والاستهزاء والازدراء، لتتحقق ثمرة الوثوق بالنفس. لأن ذلك يتنافى مع أسلوب الحوار، ويجهض الهدف منه، فضلاً عن أن ذلك من أخلاق الجاهلين، وصفات الحمقى، والمغفّلين، وسمات المتعالين على الناس بغير حق.

ومن أجل أن يكون الحوار ناجعاً لابد أن يتّسم بالرقة والهدوء، وإفضاء العبارات التي تمهد للحوار، وتجعل ساحة النقاش وردية، بعيداً عن الغضاضة التي قد تنشأ من لغة التخاطب لا من واقعية الحوار.

وقد رأينا بعض المناظرات التي تعرض على شاشات التلفزيون، وصفحات الجرائد تتوسّل بوسائل غير مؤدّبة لاسقاط رأي الطرف المحاور بإسقاط شخصه، وهذا ما لا يجوز في الحوار الهادف الذي يبغي الوصول إلى الحقيقة التي هي هدف البشرية.

5 - إنّ بين البشر من المشتركات الخلقية والفكرية والنفسية أكثر مما بينهم من التباينات، والافتراقات، وإذا ما حصل اختلاف بين بعض، وبعض فهذا أمر طبيعي، شرط ألا يقود هذا الاختلاف إلى الافتراق والصراع. وأكثر ما يقع الاختلاف بين البشر في المسائل العقائدية التي تنعكس اختلافاً في السلوك الاجتماعي، والممارسات الحياتية، والطقوس العبادية. ولو تنبّه الإنسان إلى حقيقة أن الاختلاف هو سنّة الله في خلقه، وأن التعبير عن هذا الاختلاف بصورة تلقائية عفوية لا يحمل على الاصطراع. والحوار وسيلة من وسائل الافهام، وتقريب وجهات النظر، وردم الشقّة بين المختلفين. وأكثر ما يكون

الحوار مجدياً إذا كان قائماً على المشتركات الإنسانية التي يذوب الخلاف إزاءها وفي القرآن نماذج عظيمة صادعة بالحق، فهو يقيم حواراً بين الإسلام والشرك قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: 64]، فهذه (الكلمة السواء) هو الأرض المشتركة التي يقف عليه الجميع، وينطلق منها الحوار، فالأديان السماوية من مشتركاتها الإيمان بالله وبالأنبياء وباليوم الآخر، والفضائل الخلقية، وللمذاهب الإسلامية مشتركات كثيرة واساسية، واختلافاتها يسيرة وفرعية. فما أولانا أن ننحاز إلى هذه المشتركات لكي نكون أمة واحدة تعبد رباً واحداً.

أهمية الإنسان وعلاقته مع الآخر من وجهة النظرية الدينية

يحظى الإنسان في التعاليم الإلهية بمكانةٍ عظيمةٍ لا يرقى إليها في أي نظام آخر، وهذه المكانة ناشئة من الدور الذي أناَطه الله تعالى به، والمتمثل بكونهِ خليفته في أرضه، حيث لا شرف أعظم من هذا الأمر إطلاقاً.

ويأتي دور الإنسان، كخليفةٍ لله ينوب عنه في إدارة الأرض وإعمارها وتطويرها، وتفعيل أطر العيش بها على شتى الأصعدة، ويكمّل دوره الايجابي الهادف، ولم يقف الأمر عند إناطة مهمةِ الخلافة بالإنسان فقط، وتكليفه بحكم الأرض نيابة عن الذات المطلقة فحسب، بل أمر سبحانه وتعالى الملائكة بالسجود له أيضا ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَرَة: 34]، تعبيراً عن إكرام هذا المخلوق الإلهي وإيذاناً منه سبحانه بْبدءِ مرحلةٍ جديدة[1].

وفي مدرسة أهل البيت ﷺ يُذكر الإنسان دوماً في تعابيرَ شتى تصب كلها في إطار واحدٍ العبرة والامتثال، والتذكر، ومحاسبة النفس، وطريقةُ معاملةِ الآخرين، والعودةُ إلى أسُس الخيرِ والاحترام التي سنها الخالق وهذا ما نراه منطبقا انطباقاً تاماً في كافة مسمياتِ الإنسان، الممتثل لأحاديث أهل البيت ﷺ من (حب الخير، والعطاء، والتزود، والإيثار، والفداء، والتضحية، ومساعدة الغير.. الخ). بعد ذلك يبرز العاملُ الكبير الذي نتطلع إليه برغبة واندفاع لما يشكل من عامل التقاء بيننا: ألا وهو مصطلح (الإنسانية) [2]، كأكثر الدلالات

---

(1) لاحظ لذلك بالتفصيل: عبد الرحمن العلوي: الحرية في الإسلام.. مرتكزاتها ومعالمها/ بحث منشور على الموقع الألكتروني، بتصرف.

(2) الإنسانية: هي نسق من التصورات المتغيرة تاريخيا، مشتقة من تعريف الأنسان كجماعة لها الحق في الحرية والسعادة وتطوير كافة قدراتها بعضها مع بعض، ويعتبر الأنسان القويم مثالا بها لما يرى فيها من مبادئ المساواة العادلة ومحبة البشر التي تلعب دور

الجامعة بين البشر لما فيه من مشتركات طيبة فما من أحد منّا إلا ويُشد سمعه وتُستثار عاطفته إذا ذكر هذا المصطلح أمامه في نائبة ما (كارثة إنسانية، مجاعة بشرية، ...) لما للإنسانية من وقع في القلوب وأثر روحي عميق يعود إلى عامل الفطرة الطيبة ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الرُّوم: 30]، التواقةُ لفعل الخير وتركِ الأثر الجميل، فالبشر عموماً يصطفون خلف هذا الفعل اللاإرادي لأنهم مفطورون عليه وعلى أمثاله من الصفات الحميدة المقترنة دوماً وأبداً بصفات لا تنفك عن مسمى الإنسان.

(إن السنن الإلهية الثابتة في قوانينها السامية، والمتوازنة في حركتها الفاعلة، هي التي توفر للإنسان كل ما يتطلع إليه في أوضاعه كافة، لتمنَحه القوة في مواطن الضعف، ولترعاهُ عند شعوره بالضياع، ولكي لا يشعر بالقلق أمام عظمةِ الكون، وأنه وحيدٌ في وجوده به، وذلك لأنه مرتبطٌ في وحدة النظام العام، وفي صفة الخضوع لتدابيره، فمن هذا الأمر يمتد الإحساس بهذه المشاعر إلى داخل المجتمع الإنساني، الذي يعيش كل أفراده في نطاق الرابطة الإنسانية التي تجمع تنوعاتهم في وحدة داخلية تسمى (إنسانيتهم) التي يلتقون عليها، وفي دورهم الذي يتكاملون فيه، حينها لا يمثلُ التنوعُ تبايناً وصراعاً بل يتجسد تكاملا وَاحتراماً وينضمُ بعضهم إلى بعضهم الآخر من أجل إنتاج القضايا الكلية في مسار الإنسان، وهذا هو الذي يعبر القرآن الكريم عنهُ ويؤكدهُ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحُجرَات: 13][1].

هنا نكتشف أن التعارفَ الإنساني تولد من خلال التنوع الفاضل، الذي قام على انجذاب الإنسان، إلى أخيه الإنسان وهذا ما يسمى في الإطار الخاص (بالاحترام المتبادل) لما يحتاجه الإنسان من طاقات ايجابية فاعلة في حياة الإنسان الآخر مما يدفعه إلى احترامه ومراعاته وحفظ حقوقه وصيانته[2].

المفعل للعلاقات بين الناس. (معجم مصطلحات العلوم/ 340، مكتبة النجمة، بيروت ـ لبنان).

(1) السيد محمد حسين فضل الله: دور الدين في المجتمع الإنساني/ بحث منشور على الموقع الألكتروني (بينات)، بتصرف.

(2) مثال ذلك وارد في وصية الإمام علي ﷺ لأبنه الحسن ﷺ: (يا بُنَيَّ، اجْعَلْ =

من هذا المنطلق بالذات جاء اعتراف الإسلام بغيره من الأديان كي يؤكد على التجربة الإنسانية في تأسيس المجتمع المتنوع والمختلف الذي يعيش فيه أتباعهم جنباً إلى جنب مع اخوتهم من المسلمين، من دون أي خطوة سلبية ضدهم، ومما يؤكد حديثنا هو ما ورد في تراث الإمام علي بن أبن طالب ﷺ حينما مرّ شيخ مكفوف كبير يسأل، فقال أمير المؤمنين ﷺ: ما هذا؟ قالوا: يا أمير المؤمنين نصراني!،فقال أمير المؤمنين ﷺ: استعملتموه حتى إذا كبر وعجز منعتموه؟ أنفقوا عليه من بيت المال[1].

وهناك الكثير مما نلاحظه في الوجود المسيحي واليهودي والصابئي وغيرهم من أتباع الأديان، في مدى السنين وإلى يومنا الحاضر، مع أخوتهم المسلمين في البلدان السمحة، ذات التجمعات الدينية المتنوعة، ورغم الاعتراف بحدوث المشاكل في هذه الدوائر، لكننا نراها لا تختلفُ عن المشاكل التي حصلت حتى في الدائرة الإسلامية الخاصة، وهو بالتأكيد حاصل في المسيحية واليهودية، لكن ما أحبينا أن نؤكد عليه في الطابع الإيجابي لهذه العلاقات الإنسانية أننا لو تعمقنا في الأسباب التي غيبت هذا البعد الجميل لرأينا في غالبيتها أسباب ترجع إلى عوامل سياسية، عرقية، لا علاقة لها بالدين إطلاقاً[2].

ولا يختلف اثنان في تقييم ذلك، لأن الأخلاق الدينية القائمة على أساس العنصر الإنساني في أجواء القيم، تخففُ الكثير من العصبية والنزاعات والمشاكل، وتحوّل الإنسان المتدين إلى إنسان متفهم عاقل محترم لنفسه ولغيره. وهذا ما أكد عليه الإمام علي ﷺ في رسالته لمالك الأشتر: (-الخلق- صنفان إما أخ لك في الدين، وإما نظير لك في الخلق)[3]، التي هي الإنسانية. وهي

= نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا، وَلَا تَظْلِمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُ مِنْ غَيْرِكَ، وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ)، نهج البلاغة: رسالة 31.

(1) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ 15، 66، ح1، باب 19 أن نفقة النصراني إذا كبر وعجز عن الكسب من بيت المال.

(2) السيد محمد حسين فضل الله: دور الدين في المجتمع الإنساني/ بحث منشور على الموقع الألكتروني (بينات)، بتصرف.

(3) نهج البلاغة: 3، 84، شرح الأستاذ الإمام محمد عبدة، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان.

الحقيقة التي يؤكدها القرآن الكريم والتي عبّر عنها بالكلمة السواء المفعّلة للقيم البشرية، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عِمرَان: 64]. إن هذا الاحترام للآخر الذي ورد هنا، والذي ينسجم مع كل نفس طاهرة وبريئة، هو الذي يؤكد على مسألة الاعتراف والتعايش مع الآخر على الأسس المشتركة الكريمة.

ليست الحرية في الإسلام متأرجحة هشة، أو عشوائية غائمة، تعتمد للوصول إلى التعبير عن رأيها بالإساءة إلى مفاهيم الآخرين، وإنما تنطلقُ من أسس وقواعد ثابتة لا ترتكز عليها الحرية فحسب بل النظام الإسلامي بأسره، لاسيما عملية التعاطي مع الآخرين، ومن خلال هذا الأمر يمكن أن نقول: إن المرتكزات التي تقوم عليها حرية الرأي في الإسلام، وعملية التواصل مع الآخرين هي من أقوى الأسس والقواعد، التي تقوم عليها فكرة أو مفهوم ما في أي نظام آخر، فالإسلام لا ينظر إلى حرية تعبيره كهدف ما دونه حرية أو احترام الآخرين، أو ينظر إليها كشيء كمالي، ولا يعتبرها أمراً مزاجياً خاضعاً للذوق والرغبة، بل أقامها على أصوله واعتبرها جزءاً لا يتجزأ من مبادئه.

لذلك ينطلق الإسلام في عملية تواصله مع المجتمعات البشرية، من خلال التكريم والحفاوة التي خصها الله سبحانه وتعالى للإنسان دون غيره من المخلوقات ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسرَاء: 70]، بحيث سخّر جميع ما في الكون لخدمته، وزرع به حب الخير، والعمل الصالح والتفريق بين الخير والشر، وهذا ما نراه فيما أشار إليه الإمام علي عليه السلام في نهجه الخالد، حين ذكر الروح الإرادية التي فطر عليها الإنسان في أصل خلقته بقوله: (ثُمَّ نَفَخَ فِيها مِنْ رُوحِهِ فَمَثُلَتْ إِنْساناً ذَا أَذْهَان يُجيلُهَا، وَفِكَر يَتَصَرَّفُ بِهَا، وَجَوَارِحَ يَخْتَدِمُهَا، وَأَدَوَات يُقَلِّبُهَا، وَمَعْرِفَة يَفْرُقُ بِهَا بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ)[1]. والأساسُ في ذلك يأتي من منطلق الحرص والتوجيه والإرشاد، مع بقاء هامش الحرية الفردية له لأنه يعتبر أن دورهُ الإرشادي يكتفي بإلقاء الحجة عليه دون إجباره، فهو حر في اختياره هذا بعدما يكون قد ألقى حجة المصلحة والمفسدة عليه، ويتركه أيضاً حراً في

(1) نهج البلاغة: 1، 21، شرح الأستاذ الإمام محمد عبدة، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان.

الاستعداد لنتائج ذلك، فلا جبر ولا إصرار ولا ترهيب ولا قمع، بل مساحة التعددية لديه قائمة بمجالها الشاسع. وهذا واضح من خلال القواعد الفقهية العامة التي توجه الناس وترشدهم، إلى ما فيه خير مصالحهم التي لا تنفك أبداً عن هامش الحرية في حياتهم، لأنهم دون جبرٍ ينقادون إليها. لمعرفتهم المسبّقة أن النظم الإلهية للحياة هي الأولى لهم فترى مساحة الجواز والمباح بمعناه العام في كافة تفاصيلهم، فالناس أحرار بأوضاعهم الخاصة والعامة دون تتبع أو جهاز رقابة بل وفي اختيار ما يشاءون من ذلك حسب ميولهم وأذواقهم، وهو أمر متروك لهم فينظمون أوضاعهم وشؤونهم حسبما يشاءون ويريدون، وبذلك يمكن أن تتعدد آراؤهم بشاكلة الهمة والاندفاع مثلاً. . . لأجل تطوير حياتهم، وتتعدد أيضاً أشكال حريتهم اليومية كما نشاهده في مأكلهم ومسكنهم وملبسهم ومعاملتهم، وكل ما يصب في إرضاء تطلعاتهم النيرة، والإسلام مليءٌ بمفاهيمهِ الخيّرة التي تعتبرُ مصدرَ إلهامٍ للمشرعين حتى العلمانيين، لما فيه من صيغ لطيفة وأبعاد عميقة، خص الله بها الإنسان وحريته. . . لكننا في المقابل ننبه: حذار أن نُسقط على الإسلام تجارب الأنظمةِ السياسة القائمة أم السابقة، لأنها قائمة على التنظير لبقائها ووجودها لا على سعة الإسلام وسماحته.

إن من أهم مقوماتِ حريةِ الرأي في عصرنا الحاضر، الانتباه إلى مسألة الانفلات في التعبير وعدم الإساءة للمعتقدات الدينية تحت حجج واهية، لأن هذا الأمر يعتبر عاملاً مساعداً في ازدياد عامل الغلو والتطرف لاسيما الديني منه، وغيرهِ مما ينعكس بأثر سلبي خطير غير قابل للمعالجة، لأنه يخرجُ من إطار البحث إلى عامل التعبير في الشوارع، حينها تخرج الأمورُ عن أطار السيطرة ويجري ما لا يحمد عقباه، وتكون هذه الأحداث عاملاً مخزيا للفوضى الفكرية التي تحصل للرد وإعادة الاعتبار، وهذا ما ينذر بعواقب وخيمة تهدد الأمن والسلام الاجتماعي.

إن عدم الإساءة بطرح المفاهيم لأي أحد، يكسب تلك المفاهيم عناصر قوة في ذاتها تكون عاملَ كسبٍ جديد لتلك المفاهيم، وتكون أيضاً عامل جلب واستقطاب، سواءٌ للراغبين أو للباحثين والسائلين، وهذا ما يميز دوماً الطرح الهادئ العاقل، والمتفهم لما حوله من خصوصيات المجتمع، لا أن يكون طرح المفاهيم متسلحاً بحرية الرأي الهوجاء التي لا تتمتع بأي احترام للقيم، ولا

مراعاة للخصوصيات بل أن مجرد إرضاء وإشباع النزوات والشهوات هو المحرك والعامل والباعث، في التذرع للاختباء خلف مفاهيم حرية الرأي وحقوق الإنسان وما شابهها من مصطلحات أخرى... لذلك لا بد لنا جميعا أن نتبنى حرية الرأي العاقلة، القائمة على محاورة الآخر واستئذان القيم قبل إلقاء الموضوعات، ومن ثم جعلها تحت حماية ما يسمى بالتجربة البشرية للأمور، لأننا إن تمادينا في هذا الأمر الذي نراه ماثلاً أمام أعيننا في وقتنا الحاضر، لهو مسرع خطير لتهاوي الحضارات وفناء القيم...

إن حرية الرأي العاقلة، وشرعية الاختلاف السمحة، هي من يولّد احترام الآخر مهما كان ولمن انتمى، لأن الحق في الانتماء والتعبير والاختلاف ضمن الأطر المحترمة لخصوصيات الآخرين، هو حق ممنوح لكافة المجتمعات البشرية ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هُود: 118]، من غير منةٍ من أحد على أحد، لأن الناس سواسية كأسنان المشط في الحقوق والواجبات ولهم الخيار في الرأي والتصرفات، وهذه ميزة كبرى ونعمة لا تحصى حيث أن العدل الإلهي ضامن ومساوي لحق الجميع قبل أن يكون مشرّع من المنظمات أو حقل تفكير بشري، لذلك ما نتطلع إليه جميعاً هو بذاته هدف سامٍ وتطلعات جليلة، نسأل الله القدير المزيد من التوفيق لنا جميعاً كي نتعاون في تحقيق ذلك.

الحوار جوهر الرسالة الإسلامية

إنّ مسألة الحوار هي من المسائل المهمّة في المنطق الإسلامي كأسلوب متحرّك عملي في الوصول إلى الحقيقة وفي تكوين القناعات، وفي حركة الصراع في القضايا الفكرية والسياسية والاجتماعية، ونحوها، لأنه الوسيلة الفضلى التي يعبر فيها الإنسان عن فكره بطريقته الخاصة في رفضه أو قبوله لأفكار الآخرين في موقع الحرية الذي يمنح الإنسان من الاضطهاد في حركة الصراع، وهو الذي يبلور الافكار، ويصفيها من كل الشوائب، ويرفع عنها الكثير من الغموض، ويوضح الكثير من مفرداتها من خلال عملية الأخذ والرد.

والقرآن الكريم - كتاب الإسلام والإنسان - جعل الحوار جوهر رسالته، والكلمة - التي هي أداة الحوار - هي أفضل أساليب الاقناع. وعلى هذا فإن تلك ستكون نقطة البداية والإنطلاق نحو تفاهم بين الناس، ومن ثَمّ تقبُّلُهم لبعضهم بعضاً بشكل أفضل. وهذا يعني القبول بالناس كما هم بدلاً من الحكم عليهم، ونتيجة ذلك أن يوجد حواراً حقيقياً يؤدّي بدوره إلى تبلور مفهوم التسامح مع الآخر.

وقد تكون مسألة الحوار - في مضمونها الإنساني - مسألة تتصل بتكوين الشخصية الإنسانية في النطاق الاجتماعي الذي يتحسّس الإنسان فيه وجوده مع الآخر بالمعنى الذي يتكامل فيه في إنتاج الفكر والمنهج والحركة على أساس الخطوط الفكرية المشتركة والأساليب المتنوعة في عاطفيتها وعقلانيتها، والحركة السائرة في اتجاه بناء الحياة وتطويرها، وتغييرها بما يكفل لها التوازن والتصحيح في المسار والهدف. وذلك هو الفرق بين أن يعيش الإنسان الانكماش في داخل ذاته، والانغلاق عن الإنسان الآخر في تفكيره وشعوره وحركته، وبين أن يعيش الانفتاح في آفاق الحياة، ورحاب المعرفة. واللقاء بالآخرين كإنسان يجتذب إنساناً آخر، ويلتقي به، ويتبادل معه أفكاره وحركته ومنهجه، ويناقش معه قضاياه

ومشاكله ليعطيه من نفسه بعض خصوصياته ويأخذ منه بعضاً من خصوصياته في عملية تفاعل فكري وروحي وعملي.

إن عملية الحوار لا تقتصر جدواها على مستوى الفكر. أو الانفتاح على الآخر، وإنما هي أداة لتعميق أفكارنا الخاصة، وإرهاف مشاعرنا، وتوسيع آفاقنا، وتحريك البعد الإنساني في شخصيتنا، لنكون أكثر فاعلية وفعالية في النشاط السياسي العام الذي يتوخى وجود الإنسان، وسعادته وتطوير قابليته، كما إننا نفتقد ـ اليوم كثيراً ـ ذلك الحس الإنساني وسط هذا الركام من القيم المادية والممارسات المصلحية، هذا الحسّ اللازم لكل لمسة انسانية، أو عطفة اخلاقية، أو فعالية اجتماعية.

وقد يذهب البعض بالاعتقاد أن الحوار، يمثل تنازلاً عن عقائدنا، أو اخلالاً لقناعاتنا. وهذا وهم كبير. ففي الحوار إطلاع على وجهة نظر الاخر، واستيضاح الصواب والخلل فيها، وتعميق عقيدتنا بمعاودة النظر فيها بمرآة الآخر ما يعزز قناعاتنا، وصواب موقفنا، وكسب موقف انساني حكيم وجديد في الدعوة إلى أنفسنا بمشاركة الآخر، الذي يسعى ـ مثلنا ـ إلى كسب موقف لنفسه، ولعقيدته. وهذا ـ في حد ذاته ـ نشاط إنساني اجتماعي يساهم في بناء علاقات إنسانية متطورة ويبلور مواقف إنسانية نبيلة تعتمد على الفكر الحر، والمشاعر الدافئة، والمصالح المشتركة، وصولاً إلى خير الإنسان في دينه ودنياه.

إنّ موضوع الحوار يرتبط بالتكوين الداخلي لشخصية الإنسان المسلم الذي يريد له الإسلام أن يفكّر كيف يفتح قلوب الناس وعقولهم على دين الله وشريعته، وكيف يربطهم في حياتهم بخط الالتزام بالرسالة في كل مواقفهم العملية. وعلى ذلك يمكن أن نجعل من الحوار منهج التربية في تكوين القناعات بشكل تدريجي يتبع في حركته النمو الطبيعي للإنسان، ليكون الحوار اسلوب الحركة الفكرية لديه، فيتابع كل قضاياه من خلاله مما يساهم في تهيئة الأجواء النفسية للروح الموضوعية البعيدة عن الانفعال في مواجهتها لمسائل الخلاف، وفي تقبّل الفكرة المضادة بطريقة عقلانية واقعية.

نكرر القول: بأن الحوار ليس عملاً عقيماً، وإنما هو فعل ولود منتج فقد خرجت من رحمه كثير من القضايا الإنسانية والدعوات الأخلاقية، والمفاهيم

الفكرية التي أدت وظائف سياسية واجتماعية مثل الدعوة إلى الاحترام والالتزام بحقوق الإنسان، وتقديس الحريات العامة، وإقرار المواطنة حقاً إنسانياً واجباً، وإشاعة مفاهيم العدالة الاجتماعية.

وهذا ما لم يغفله الإسلام، أو يهمل التقنين له، فاعترف بحقوق الإنسان رجلاً كان أو امرأة في الحياة، والتملك، وحرية السكن، كما أقرّ حرية العقيدة والرأي، وجعل المواطنة عنواناً عاماً يمارس الإنسان من خلالها حقوقه كاملة غير منقوصة. أما مفاهيم العدالة الاجتماعية، فقد بلغت في الإسلام ذروتها مقارنة مع مفاهيم الأديان والفلسفات الأخرى.

كل ذلك جاء على شكل أحكام وتشريعات محكمة تأخذ سبيلها إلى التطبيق وإلى عالم الواقع في كل يوم، فهي ليست أفكاراً مثالية غير قابلة للتطبيق، وليست مفاهيم تجريدية لا علاقة لها بالسلوك الإنساني اليومي. وإنما هي سلوك تفصيلي يومي يمارسه الحاكم المسلم والفرد المسلم والمشرّع المسلم في كل يوم. وإن أغفله يوماً، أو انحرف عنه يوماً، فسيواجه تحدياً صارخاً، ورفضاً قاطعاً من كل اطراف الحياة الفكرية، والاجتماعية، فهي ـ في تشريعها والعمل بها ـ كإقامة الصلاة ـ مثلاً ـ أمر واجب يؤديه الانسان في كل وقت من أوقاتها. وبهذا تحفظ كرامة الانسان، وتحرص على سعادته.

"وربما يقول بعضهم: إنّ الفكر الإسلامي لم يعالج هذه المسائل بصورة مباشرة. ومستقلة وإنما عالجها ضمن أبواب فقهية تحقّق في مجملها ـ إذا وجدت الطريق للحمل بها ـ كلّ الغايات العظيمة لوجود الإنسان على هذه الأرض. شرط وعيها، وربطها بحركة الوجود وخالقه، واستشعار المسؤولية الشرعية بما يفعله الإنسان. نعم أغرق علماء المسلمين في طرح القضايا من زاوية ما يجب أن يكون لا من زاوية ما هو قائم بالفعل، ذلك أن علماء الإسلام ومفكّريه يطرحون هذه المسائل بما ينسجم مع مثالية الإسلام، ويرسمون السبيل إلى تحقيق هذه المثالية، وتجسيدها على أرض الواقع من خلال دأب الإنسان لممارسة دور الخلافة عن الله في الأرض".

لم يواجه المسلمون في عصر النبوّة أية مشكلة في تلقي الوحي كما هو ولم يعانوا من ازدواجية الفهم والسلوك، لأنهم وجدوا المثل الأعلى لهم في شخص

رسول الله ﷺ ولكنهم عانوا ما عانوا حينما افتقدوا المثل الأعلى في حياتهم، فتناقضت رؤاهم وتوجهاتهم، وتقاطعت سُبلهم، فضاعت رسالتهم في فوضى التنظير والتطبيق، وإذ افتقدوا الحوار الجاد، والمخلص، والهادف، والمقيّد برضا الله، افتقدوا السبيل إلى حياة كريمة، وإلى فهم سليم للإسلام، وإلى الارتباط بمصدر الخير النور ـ الله سبحانه ـ ارتباطاً حقيقياً وعميقاً، وواعياً بما يفيض على فكر الإنسان وسلوكه كل معاني الخير والهداية.

ليس الاختلاف في وجهات النظر الخاصة. أو التجاذبات القائمة على (الأنا) و (نحن) و (أنت) و (هو) شرطاً أساسياً لقيام الحوار بل يمكن أن يقوم الحوار على موقف جماعي موحّد يمثّل واحدة من القضايا التي تهم البشر جميعاً كالحرية مثلاً أو العدالة الاجتماعية، أو احترام العقيدة عند الآخر، فقيام حوار في مثل هذه المسائل التي تهمّ البشر جميعاً يكون بالبحث عن الوسائل الكفيلة تحقيقها، واجتراح السبل الموصلة لها، فيكون الموقف واحداً موحّداً، وينحصر الاختلاف في البحث عن الوسائل والسبل للوصول إلى تحقيقها. وهو بحث علمي موضوعي مجرّد من العواطف والانفعالات والانجازات. فبالحوار نعالج كل القضايا المعلقة والمؤجلة، التي تحمل جانبين متناقضين في الظاهر، متصارعين في الواقع، وبه نكون قادرين على الإحاطة في الواقع بكل تناقضاته ومعالجتها بصورة سليمة، واجتراح الوسائل الناجحة الكفيلة بذلك.

إن الحوار عملية شفافة لاكتشاف الآخر، والاطلاع على أعماقه، وسبر أسراره، وخفاياه من خلال ما يظهره على لسانه من مكنونات ونوايا، وبذلك يسهل علينا الوصول إلى حقيقة دوافعه، وسلامة مراميه، فيكون منّا الموقف الايجابي الذي يسهم في تفعيل الموقف الإنساني عندنا وعندهم وهذا هو المطلوب.

كما إن الحوار يسهم ـ إلى حد كبير ـ في الحفاظ على الموروث الإنساني، وإثراءه، وتطويره، والإكثار من العناصر الايجابيه فيه وطرح العناصر السلبية التي تسيء إلى الكرامة الإنسانية والفعل الإنساني.

ان لكل دين من الأديان مثلاً طقوساً رمزية يمارسها معتنقوه على مرّ العصور وتعاقب الأجيال وقد توارثوها وهم يحبونها من دون وعي أو تعقّل إنما

هي مقدسات لا يجوز المساس بها اطلاقاً. إن هذه الطقوس فيها ما يسئ إلى العقيدة نفسها أو الإنسان الذي يمارسها. فبالحوار وحده ممكن أن ننزع كل ماهو مرفوض منها واقناع الاخر بعدم جدواه، وصلاحيته لعصرنا عصر العلم والعقل والتنوير، وبهذا استطعنا أن نهيئ وسائل جديده، لتهيئة العقل للاستجابة لهذا الواقع الجديد.

إن في عملية الحوار طرح أسئلة جديدة تحتاج إلى إجابة واضحة مقنعة، وهذا يعني إبقاء الموروث الإنساني: الفكري والاجتماعي حياً فاعلاً منقحاً، نقياً، مقنعاً، مرتبطاً بحياة الناس، مؤثراً فيها، وموجهاً له. وهذا يعني أيضاً استمراره وامتداده إلى مستقبل بعيد غير منظور مع معايشة الواقع والإحاطه بكل مظاهره.

كما أنه سيجسد مفهوم نسبية المعرفة، وعدم مطلقيتها في أي عصر من العصور، وبطلان القول بجاهزية الحلول المطلقة التي تصح لكل الأزمان لما يطرأ علينا من مشاكل مستجدة وتحديات قائمة.

فبالحوار نكتشف مسائل جديدة ونواجه أوضاعاً طارئة، ومن خلاله نقف على ظواهر فكرية واجتماعية قد نكون غفلنا عنها، أو زوينا النظر فيها لحساسيتها خوف الاقتراب منها.

وبالحوار ننزع الفتيل عن هذه القنابل الموقوتة، لكي تصبح الأرض التي تطأها أقدامنا آمنة سالكة. فما أقدس الحوار من عمل كريم إنساني مجدٍ يعيد صياغة الإنسان وصناعة تاريخه الزاخر بكل ما هو عظيم وخسيس

إن الحوار ـ بشكل عام ـ تعبير حضاري عن الحالة الفكرية في أي مجتمع من المجتمعات، فمع الحوار يتعمّق الفكر، وتتأصّل الثقافة، وتختفي مظاهر التخلف والتقاطع في الآراء، والقناعات، لأن عملية الحوار ـ في بعدها العملي الحقيقي ـ تحمل على تقريب وجهات النظر وصولاً إلى القناعة المشتركة، أو أنها ـ على أقل تقدير ـ تختزل المسافات، وتحدّد الطرفين المتحاورين المواقف التي يجب الالتزام بها استناداً إلى نهاية عملية الحوار.

إن العالم ـ في عصرنا هذا ـ أصبح قريةً صغيرة، أو قل أصبح بيتاً كبيراً

بفضل التقدّم التكنولوجي، وثورة الاتصالات، فما يحدث في الشرق، يعلمه من في الغرب في الوقت نفسه، وما أن تنبثق فكرة هنا حتى تجد صداها هناك. وما أن تتكون ظاهرة اجتماعية حتى تقوم لها استجابة هناك فتلاقح الأفكار، أو تكاملها، أو تصارعها يفرض على الجميع أن يلتقوا حول مائدة واحدة لكي يتحاوروا، ويتبادلوا الأفكار، ويجمعوا المشتركات ونتائجها، ويطرحوا الاختلافات وما تقود إليه. وبهذا تصبح المعرفة نشاطاً جماعياً، أو قاسماً مشتركاً بين الجميع. ومن شأنه أن يسهّل مهمة الساعين للحوار. وفي الوقت نفسه يجعل من المستحيل على من لا يرغبون في الحوار تجاهل هذا التدفق المعرفي الهائل ونحن نعيش القرن الحادي والعشرين ـ قرن العولمة ـ بكل ما يحمله من سمات النضج والانتماء، واندماج مختلف الأعراق في المجتمعات التي تعيش فيها.

إننا هنا لا نناقش سلبيات أو ايجابيات العولمة ـ فلكل ظاهرة حضارية ايجابياتها وسلبياتها، لكننا ننظر إليها بوصفها واقعاً جديداً، وينطوي على مظاهر شتى تعكس تعدد الثقافات والأديان والألوان وأنماط الحياة، إنما الذي نأخذه على الدعوة إلى العولمة هي سيادة ثقافة على أخرى، وتحكم اقتصاد باقتصاد آخر، وفرض شخصية حضارية لتمحو شخصية حضارية أخرى. إننا لا نرفض التعددية في الثقافة، والعقيدة، وأوجه النشاط الإنساني الأخرى، وإنما نرفض أن تكرّس الدعوة إلى العولمة إلى إلغاء الآخر وهيمنة قوى غامضة وغريبة على مقدّرات البشرية لتحقيق أهداف غامضة مشبوهة.

إنّ الحوار الفاعل الهادف والذي يمكن أن يقوم على أساس فردي أو مؤسساتي سوف يمتصّ كل عناصر الصراع بامتصاصه دواعي الاختلاف، والوسائل السلبية التي تعبِّر عن هذا الاختلاف. إن الله سبحانه خلق الناس ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ والتعارف لا يكون إلّا بالتعرّف على الآخر: عقيدته، عاداته، قيمه، أخلاقياته، ولا يكون ذلك إلّا بالحوار الهادئ الذي يقود إلى وحدة الموقف على الرغم من اختلاف القناعات ووجهات النظر. ويؤكد هذا أهمية الحوار والنقاش وتبادل وجهات النظر من أجل القضاء على حالة الرتابة والتشابه المطلق التي تهيمن على مجتمعاتنا.

إذن.. لنبدأ حواراً يوسّع مداركنا، ويبني شخصياتنا، ويعدد خياراتنا،

وينضج عقولنا، ويعمّق أفكارنا، وينقي ضمائرنا، ويوحّد طريقنا، ويدفعنا للتفاعل مع العالم الخارجي، وفهمه والإحاطة بما يجري حولنا.

فما أحوجنا ـ نحن المسلمين ـ إلى إقامة حوارات جادّة ومخلصة وهادفة لكي نعرّف الآخر، بعقائدنا السليمة، وقيمنا الكريمة، وأهدافنا العظيمة، خاصة بعد أن غلبت النظرة السلبية على واقعنا الذي اتسم بالصراع والعنف، واصطبغ بالدماء. ونحن أمة محمد ﷺ الذي بُعِث رحمةً للعالمين.

الإسلام يجعل الحوار منهجاً مبدئياً

كثيراً ما يرمي الجاهلون بالإسلام وأحكامه ومفاهيمه، وقيمه الإسلام بتهم شتى باطلة، مصدرها الجهل بالإسلام حتى من يدعي أنه مسلم. ذلك أن كثيراً ممن يدعون الإنتماء إلى الإسلام يجهلونه، أو يفهمونه فهماً خاطئاً، أو يحاولون أن يعبروا عن تصورات مزاجية أو مغرضة، أو منحرفة عن الحقيقية.

ومن جملة هذه التهم والإدعاءات قولهم أن الإسلام لايؤمن بالحوار، ويلغي الآخر، ويحرض على العنف وما إلى ذلك. . .

والحقيقة أن الإسلام يجعل الحوار منهجاً مبدئياً، لايحيد عنه، فالدعوة إلى الله تكون عن طريق الحوار، وعرض الأفكار، وحتى الحرب التي يخوضها المسلمون تكون عروض الإسلام هي المقدمة، وهي الفاعلة. وبما أن الإسلام دين أفكار ومبادئ فلابد من أن يتخذ الحوار الفكري منهجاً في الدعوة والتبليغ، وعلى هذا فإنه يرفض العنف والإكراه والقسر، والقهر منهجاً له في نشر مبادئه وأفكاره. وقد بينت التجارب التاريخية أن الناس دخلوا في الإسلام من دون إكراه أو قسر، بل عن قناعة وإيمان، بل أن الإسلام فتح بلاداً قصية، ولم يطأها جيشه كبلاد شرق آسيا، وبعض أجزاء من أفريقيا. وما ذلك إلا للقيم الإنسانية التي ينطوي عليها الإسلام، فهو يقرر كل حقوق الإنسان، ويعترف بها، ويحميها، ويدافع عنها، بدافع الإيمان بها ولأنها جزء من منظومته الفكرية، وقيمه الإنسانية.

الإسلام هو السلام بعينه، فهو يدعو إليه، ويتخذه وسيلة لنشر أفكاره، ويصطفيه منهجاً عملياً في حل مشاكل الإنسان.

والسلام إسم من أسماء الله الحسنى. ارتبط بعقيدة المسلمين، وبحياتهم فشعارهم في التحية: (السلام عليكم). والمسلم من سلم المسلمون من يده

ولسانه(1). ومن خير الأعمال في الإسلام: (إطعام الطعام، وإفشاء السلام، والصلاة بالليل والناس نيام)(2). ومبادئه في الحرب ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: 61]. وموقفه من الأديان الأخرى نابض بالحب والتلاقي والسلام، فهو يؤمن بها وبرسالتها، وأنبيائها، والكتب التي جاءوا بها. وهو يدعو أهل الكتاب إلى كلمة سواء وهي: الإيمان بالله، وعدم الإشراك به، وعدم إتخاذ بعض الناس بعضاً أرباباً، من دون الله. قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: 64].

لقد حقق المسلمون تفاهماً وتعايشاً مثاليين مع اليهود والنصارى فقد عاشوا معهم في إخاءٍ إنساني، فإحترموا عقائدهم، وتراثهم، وشعائرهم. وضمنوا لهم الأمن والسلام والحياة الطبيعية. بل إن كثيراً من اليهود ـ مثلاً ـ حينما أُضطهدوا في بعض المجتمعات آثروا الهجرة إلى بلاد المسلمين ليجدوا الأمن والإستقرار والسلام. وإذا رأينا بعض الصراعات الناشبة بين المسلمين وغيرهم هنا وهناك فما ذلك إلا من ألاعيب السياسة التي اتخذت الأديان وسيلة للسيطرة وإمتصاص ثروات الشعوب، لتحقيق منافع خسيسة على حساب إنسانية الإنسان، وقدسية عقيدته، وسلامة نفسه وحياته والإسلام يرفض ذلك كله، ويرى في الإنسان والسلام والعقيدة رموزاً مقدسة ينبغي ألا تمس أو تهان أو تدنس.

إن إحترام الرموز الدينية عند كل الأديان، يقرب بين معتنقي هذه الأديان، ويوحد وجهات نظرهم. فالمسلمون مأمورون باحترام أنبياء الرسالات السماوية التي أنزلت قبل بعثة النبي محمد ﷺ واحترام كتبهم، بل جعل ذلك شرطاً أساسيًا من شروط إيمانهم، وجزءاً من سلامة عقيدتهم، وإكتمالها، فهم لايفرقون بين نبي ونبي، وكتاب وكتاب قال تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ

(1) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ 12، 278، ح2، باب: تحريم اغتياب المؤمن ولو كان صدقاً..

(2) الكليني: الكافي/ 4، 51، ح5، باب فضل إطعام الطعام، تصحيح ةتعليق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية.

عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عِمران: 84]. وحين يذكرون أنبياء الله ﷺ يذكرونهم بالتجلة والإكرام كما يذكرون نبيهم ﷺ وحين يتعاملون مع معتنقي الديانات الأخرى يتعاملون معهم بلطف وود واحترام لذواتهم وعقائدهم وشعائرهم. وهذا كله يدعو إلى الألفة، والمودة، وإزالة التنافر والبغضاء مما يجعل المجتمع يعيش حالة من السلام والوئام والتفاهم.

هذه الروح السمحة التي أودعها الإسلام في أعماق معتنقيه، ويفصحون عنها كل يوم في صلواتهم، وشعائرهم، وأحاديثهم، وقد حملوها إلى العالم أجمع: أفراداً، وجماعات، وأمماً، وأصحاب ثقافات وديانات. هذه الروح التي يتعاملون بها، ويعبرون عن أنفسهم، وعقائدهم ومواقفهم من خلالها، إنها روح الحوار، والعمل على إعلاء قيم الإنسان، ورفع مستوى حياة الناس، وتغيير طبيعة توجهاتهم إستعلاء على دوافع الغريزة، ووصولاً إلى القيم الروحية التي توحد بين الناس وتسامياً على حكم الضرورات الجسدية، إلى جدية الإرادة والقدرة على الاختيار الحر المترفع على عوالم المادة.

إن الصراع الذي يقوم بين آونةٍ وأخرى ذو دوافع مادية، يعد تعبيراً عن التصاق الإنسان بالأرض، والرضا بقيود الجسد المادية. وقد جاءت الأديان جميعا لتحرر الإنسان من هذه القيود، التي تقتل روحه وتجعلها أسيرة لمتطلبات الجسد.

إن بعض المفكرين المتشائمين حين يتعرض لقضية تعدد الأديان يستعيض عن مبدأ الحوار، والتفاهم، والتلاقي والائتلاف بينها بمبدأ الصراع، والاختلاف، والصدام. فـ (صموئيل هانتنغتون) يرى حتمية (الصدام بين الحضارات) وهو يرى: "أن الخطوط التي تفصل بين الحضارات ستكون خطوط معارك في المستقبل المنظور وأن الصراع الأساس سيكون على وجه التحديد هو الصدام بين الحضارتين الإسلامية والغربية. وذلك قبل أن تبلغا مرحلة التعايش في عالم يضم حضارات متعددة".

والحق أن الصدام بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية ليس حتمياً، وإنما هو إختلاف في الرؤية، وإختلاف في الوسيلة مع وحدة الهدف الذي هو

الإنسان. فالحضارة الإسلامية ـ المبتناة على المفاهيم الإسلامية ـ تعلي من شأن الإنسان، والحضارة الغربية ـ المبتناة على تحقيق الطموحات المادية للإنسان ـ تسعى لسعادة الإنسان والتكامل بينهما على أرض الواقع. فالحضارة الإسلامية بإمكانها أن تقدم القيم الروحية ـ التي هي قيم الإنسان ـ والحضارة الغربية قادرة على تقديم الإمكانات المادية التي تسهل حياة الإنسان، وبذلك تتكامل شخصية الإنسان وتستعيد توازنها، وتدخل مرحلة التحضر المطلق الذي يكون بديلاً عن الصدام والصراع والإفناء. فالإنسان بوعيه لنفسه ومن خلال تقدمه العلمي يستطيع أن يجد نفسه في زحمة هذا الركام الهائل من التجارب والخبرات، والنكبات والصدمات. عند ذلك يجد طريقة إلى الله وإلى الإيمان به وبأحكامه بوسائل علمية حديثة، فيصطبغ العلم بالإيمان، ويتدرع الإيمان بالعلم، فيحصل التوازن في شخصية الإنسان متجاوزاً كل العقبات والفجوات والمطبات في حياة تسعى إلى التكامل.

إن روح العداء للإسلام مازالت مترسخة في نفوس بعض كتاب الغرب جهلاً بالإسلام، أو رغبة في التعمية على الناس وطمس صورة الإسلام الحقيقية تعصباً عليه. كل ذلك جعل بعض الكتاب يقفون موقف العداء للإسلام، فيقدمونه على غير حقيقته، فينكرون عليه سماحه، ونقاءه، واحترامه للرأي الآخر، واتخاذه الحوار وسيله للتلاقي والتقارب بين الإنسان.

ولكن كل ما يثار عن الإسلام لايدخل اليأس والإحباط في نفوس المسلمين، ولن يقعدهم عن القيام بواجبهم الشرعي تجاه دينهم الذي جاء رحمة للعالمين، وتجاه البشرية المتعطشة إلى كل ما يروي ظمأها للحرية والإسلام والتعايش الخلاق. خاصة أن الإسلام لايُكره أحداً على اعتناقه ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البَقَرَة: 256]، كما أنه لايُثني المسلمين عن تحقيق الهدف الذي من أجله أنزل الإسلام وهو تحقيق العيش الكريم في جو تسوده الحرية والعدالة والمساواة. ومما يسّهل تحقيق هذا الهدف أن مفاهيم الإسلام تذكّر الإنسان بأنه خلق من أصل واحد، فلا فرق بين إنسان وإنسان إلا بالتقوى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النِّسَاء: 1]. وهذا مما يساعد على حل كثير من العقد التاريخية والإشكالات النفسية والاجتماعية، ويدحض كثيراً من

الأحكام الباطلة التي لاتستند على البرهان والدليل والتي تستهدف الإسلام وأهله.

إننا نرى في العقود الأخيرة من تاريخ الإنسان دعوة إلى حقوق الإنسان، وقيام كثير من الأنظمة السياسية بالدعوة إليها والمطالبة بها صدقاً أو كذباً، حقاً أو باطلاً، لغاية نبيلة أو خسيسة، فتفتخر هذه الأنظمة بذلك، وتدّعي السبق في التشريع والتطبيق، بينما نرى الإسلام منذ أربعة عشر قرناً قد شرّع حقوقاً للإنسان لا يطاولها تشريع، واجترح مفاهيم وتقاليد هي جزء من عقيدة معتنقيه، وسلوك يومي لهم، فقرر حقوق الإنسان بكل تفاصيلها عن نية حسنة، وهدف سام، وقناعة فكرية ونفسية. وإذا قيست حقوق الإنسان التي أقرّها الإسلام بلائحة حقوق الإنسان التي أقرتها الأمم المتحدة من عدة عقود، لرأيت البون شاسعاً بين تشريع هو من صميم الإنسان وقناعتهِ وسلوكهِ وشعائرهِ وبين تشريع يفرض من الخارج بقوة السلاح، وإرهاب العقاب.

فقد قرر القرآن الكريم أصل الإنسان الواحد الذي خلقه خالق واحد: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحُجرَات: 13].

وهذا نبي الإسلام ﷺ يقرر الأخوة بين الناس والأصل الواحد للناس فيقول: (أيها الناس: إن ربكم واحد. وان أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب. إن أكرمكم عند الله اتقاكم. ليس لعربي فضل على أعجمي. ولا لأعجمي على عربي إلا بالتقوى)[1]. وما هدف هذه الدعوة الصريحة، الموجهة إلى الناس كافة إلا إقامة مجتمع عالمي متحرر قائم على أساس من التآخي.

إن هذا الدين المنكر لمبادئ التفاضل والتفرقة بكل أصنافها: العنصرية، والطبقية، والحمية، والعصبية، والجنسية، والعرقية، ويلغي كل ألوان التباعد والتنازع والاقتتال، ويدعو إلى الحوار طريقاً إلى التفاهم والتعايش وحسن الجوار من أجل توحيد أركان حياة إنسانية سعيدة، حياة لا تعلي جنساً على آخر، ولا تجعل للإنسان والأحساب ميزة ولا معياراً. إن هذا هو الدين القيم الذي تسعى إليه الإنسانية ليحقق إنسانيتها موصولة بقيم السماء.

---

(1) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ 73، 35، ح13، مؤسسة الوفاء، بيروت ـ لبنان.

لقد كان للحضارة الإسلامية دور في الحضارة الإنسانية عموماً، وهو دور متميز لاينكر اصطبغت فيه حياة الإنسان بصبغة الله. فقد حملت الأمة الإسلامية "مشعل الحضارة الإنسانية على مدى قرون، وأنارت به عصر الظلام الأوربي". ومهدت الطريق للحضارة الأوربية الحديثة في كل مجالات العلم. وكان لعلماء المسلمين الفضل في ابتداع مناهج جديدة طورت المناهج العلمية وجعلتها مناهج علمية خالصة مجردة من الخزعبلات والخرافات والأباطيل. وكثير من مؤرخي أوربا المنصفين يذكرون فضل الحضارة الإسلامية وقوتها الفكرية في تفجير طاقات علماء أوربا ومدهم بكل ماهو مفيد.

إن الحضارة الإسلامية التي ساهمت في بناء الحضارة الإنسانية لجديرة اليوم وفي كل يوم بتحقيق حلم البشرية الخالد في قيام نظام إنساني على الأرض لا مكان للظلم فيه، ولا للعبودية فيه، ولا للفرقه فيه، بل الناس أمة واحدة، تدين بالفضل إلى رب غفور كريم حليم.

وعلى هذا : فنحن بانتظار ذلك اليوم الذي تسود فيه روح المحبة والتفاهم والتعاون المجتمع البشري فيتعاون المسلم مع غير المسلم في خلق مجتمع إنساني تحكمه العلاقات الحميمة، وتتكامل فيه الحضارات بكل انجازاتها، وتسوده روح التلاقي والتفاهم والحوار وليكن الإسلام هو المبادر، ولتكن الحضارات الأخرى هي المتلقية بغير عقد تاريخية أو عنصرية، فسيكون عند ذلك مايريده الله، وما يتمناه الإنسان، وما تطمح إليه البشرية.

الحوار مبدأ قرآني

الحوار مبدأ قرآني، لا حياد عنه، فهو الأسلوب الأمثل للتبليغ والهداية، وإيصال الفكرة، ومحاولة إقناع الطرف الآخر بصوابية العقيدة الإلهية، وأحقيّتها.

وقد أكّد القرآن الكريم على الحوار الموضوعي الذي يعتمد الحجّة والبرهان، والدليل العقلي، وتجنّب الهوى والعاطفة في عرض مسائل موضوع الحوار، ومجانبة القدح والتجريح لعقيدة المحاور، واحترام قناعاته قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125]. وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ * وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: 33-34]، وقال عزّ وجل: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 46].

ولو استعرضنا سور القرآن وآياته لوجدنا الكثير من الآيات المباركة تذكر الحوارات التي جرت بين أنبياء الله ﷺ مع الأقوام التي بعثوا إليها. فهي تصدع بالدعوة إلى الحقّ بالتي هي أحسن بضرب المثل وإقامة الحجّة، وإيراد الدليل الحسي أو العقلي، وتقديم البرهان، كل ذلك يكون بأسلوب الحوار الهادئ المبرّء من التجريح والاساءة والاستفزاز، وإهانة الآخر بإهانة عقيدته. وخذ مثلاً لذلك حوار أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام مع قومه[1]، قال تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ

---

(1) لاحظ سورة الأنبياء: الآيات 51 ـ 70. وسورة الشعراء: الآيات 69 ـ 90. وسورة الممتحنة: الآيات 4 و 5.

صِرَٰطًا سَوِيًّا يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مَريَم: 41-49].

وحوار نوح عليه السلام مع قومه، ومع ابنه[1]، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: 105-121].

وقد كان الحوار (الجدل بالتي هي أحسن) هو اسلوب الرسول ﷺ في دعوته إلى الإسلام، فعلى الرغم من الموقف المعادي لكفّار قريش من رسول الله ﷺ ودعوته الكريمة، وتوسّلهم بكل الوسائل لاطفاء نور رسالته، فإنه لم يقف موقفاً سلبياً متشنجاً منهم وإنما صبر وصابر، واتسع صدره، ولم يخلّ عن الحوار الهادئ، والجدل الموضوعي في مواجهتهم، ومحاولة اقناعهم.

لقد تعرّض رسول الله ﷺ للأذى ـ حتى قال ﷺ: (ما أوذي نبيٌ مثل ما أوذيت)[2] ـ، من قبل قريش من استهزاء وسخرية واتهام بالسحر والكذب والجنون، ورمي الأوساخ، ورميه بالحجارة، ومحاصرته في الشعب وتجويعه وعزله مع أهل بيته وعشيرته الأقربين، ومحاولة قتله اغتيالاً أكثر من مرّة. فهو على الرغم من كل ذلك، لم يسلك مسلكاً عدائياً لهم، ولم يتخلّ عن منهج الحوار الموضوعي الهادف، لأنه صاحب رسالة عليه أن يؤدّيها بشكل سليم وكريم، فقد بعث هادياً، لا عادياً أو منتقماً.

---

(1) لاحظ لذلك سورة يونس: الآيات 71 ـ 73. وسورة هود: الآيات 24 ـ 37. وسورة نوح: الآيات 1 ـ 28.

(2) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ 39، 56، في مساواته عليه السلام يعقوب ويوسف. . .

لقد وقفت قريش موقفاً عنيفاً من رسول الله ﷺ ورسالته وافتعلت العقبات، والأقاويل والأزمات لعزل النبي ﷺ عن الناس، وخلق جوّ معادٍ له، يقوم على التشكيك بشخصه وبرسالته بعد أن أدركت أنها ستهزم بالحوار، وأنها عاجزة عن الوقوف أمام منطق الرسالة والرسول. لكنّ رسول الله ﷺ أدرك ذلك، فأبطل كيدهم بالتزام مبدأ الحوار. فحين بُعِث خاطبهم أول ما خاطبهم قائلاً: ماذا تقولون لو أني قلت لكم إنّ خيلاً جاءت تغزوكم من وراء هذا الوادي؟ قالوا ما جرّبنا عليك الكذب قطّ. فقال: إني رسول ربّ العالمين لكي ابلّغ لكم رسالته[1]. إنّه منطق الحوار، والزام الخصم بالحجّة وعلى لسانه. وهكذا بدأ الرسول ﷺ دعوته الكريمة، فكسب بعض أهل بيته، وبعض صحابته، وبعض من شرح الله صدره للإيمان. بل كان يوصي من آمن به بعدم العنف.

ومن الأساليب الخبيثة التي اصطنعتها قريش في محاربة رسول الله ﷺ ورسالته، اسلوب التشكيك في شخصه الكريم ورميه بمختلف التهم، وإلصاق شتّى النعوت به لاسقاطه من أعين الناس، وإفقاده الثقة به وبنفسه، من أجل قتل الحوار وقطع الطرق أمام حركة الفكر، فقد شوّشوا عليه وعلى أصحابه حين قراءتهم للقرآن لكي تمنع الناس من الاستماع إلى الهدى الذي جاء به، والتواصل معه.

وحين اشتدّ الأذى بالمسلمين، أمر رسول الله ﷺ بعضهم بالهجرة إلى الحبشة، فلاحقتهم قريش وأرسلت وفداً إلى النجاشي لاقناعه بتسليمهم إلى قريش. لكن الوفد فشل في هذه المهمّة. فقد استطاع المسلمون المهاجرون أن يكسبوا النجاشي إلى جانبهم وكانت وسيلتهم الحوار الذي انعقد في مجلس حكم النجاشي، وكان المسلمون يحتجون على خصومهم بالحوار القرآني، حتى سلّم النجاشي بأن ما يصدر عن القرآن وما جاء به عيسى عليه السلام يصدران من نبع واحد[2]. وهكذا فعل الحوار فعله فأبطل دعوى كفار قريش، ونصر بالحجة القاطعة موقف المهاجرين المستضعفين.

(نعم فشلت كل محاولات التشويش والتشويه من قبل قريش، لأنها

---

(1) المقريزي: امتاع الاسماع/ 4، 109.

(2) الطبري: تاريخ الطبري/ 2، 73. وابن لأثير: الكامل في التاريخ/ 2، 80.

محاولات عاجزة عن إسكات صوت الحق، وإنما لجأت ـ قريش ـ إلى تلك الأساليب البشعة وغيرها لأنها لا تريد لغة الحوار، وكما يقال: من يعجز عن الحوار يلجأ إلى الأساليب الملتوية).

وقد سار على نهج رسول الله ﷺ ـ وهو نهج القرآن الكريم ـ أهل بيته الطاهرين عليهم السلام، فاعتمدوا الحوار مع فرقائهم وغاصبي حقّهم. فالامام علي عليه السلام اعتمد الحوار مع خصومه ممّن غصب حقّه في الخلافة (احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة)[1]، على من قال: إن رسول الله من قريش ونحن من قريش فنحن أولى به وبخلافته.

وكذلك ما فعلته فاطمة الزهراء عليها السلام في مطالبتها بحقها في فدك وبميراثها من أبيها وخطبتها الشهيرة واحتجاجها (يا ابن أبي قحافة ترث أباك ولا أرث أبي)[2]. وكان لاحتجاجها على أبي بكر وأحاديثها مع الأنصار وخطبتها البليغة الرائعة في مسجد النبي ﷺ ووصيّتها أكبر الأثر في تعريف الأمة بحقّها الضائع، وحق زوجها المغصوب. ولم يكن هناك أفضل مما فعلته عليها السلام لمصلحة الإسلام في ظل تلك الظروف.

فالحوا ر ـ هنا ـ أفضل الخيارات في ذلك الموقف الدقيق من عمر الإسلام. فالسكوت فيه سكوت عن الحق، وحمل السلاح ذبح للإسلام، وقتل للجهود التي بذلها النبي ﷺ وأهل بيته الكرام عليهم السلام في بناء الإسلام ونصر دين الله.

وحين تسنّم أمير المؤمنين عليه السلام منصب الخلافة بمبايعة الأمة له، نقض البيعة بعض من بايع، فلم يبدأهم علي عليه السلام بقتال، بل حاورهم، ووعظهم، وأقام الحجة عليهم وذكّرهم بما قال رسول الله ﷺ. ولم يحاربهم إلّا بعد أن بدؤوا هم بالقتال، فكانت معركة الجمل التي أوصى بها جيشه بوصايا إنسانية خالدة: (لا تجهزوا على جريح، ولا تتعقّبوا مدبراً، ولا تروّعوا امرأة ولا

(1) نهج البلاغة: شرح الأستاذ الإمام محمد عبده/ 1، 116.
(2) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: دلائل الإمامة/ 117. الطبرسي: الاحتجاج/ 1، 138.

شيخاً، ولا طفلاً، ولا تقطعوا شجرة ...)[1]، إنها الإنسانية بكل شروطها، والحوار منطق الإنسانية الذي يوصلها إلى طريق النور، وحالة التعايش.

وعلى نهج علي عليه السلام سار ابناؤه الأئمة عليهم السلام فلو استعرضنا مواقفهم مع خصومهم: حاكمين، ومخالفين، ومعاندين. لرأينا ما يبهر من مواقف، أساسها الحوار، وهل ننسى مخاطبة الإمام الحسين عليه السلام لأهل الكوفة وهم يتأهبون ليقاتلون، ويستعدون لقتله.

وهل ننسى موقف الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام في مجلس يزيد حين قال له يزيد: من أنت؟ فقال عليه السلام: أنا علي بن الحسين. فقال يزيد: ألم يقتل الله علي بن الحسين. فقال عليه السلام: كان لي أخ اسمه علي، فقتله الناس ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزُمَر: 42][2].

ولا ننسى مواقف الأئمة الميامين عليهم السلام في مجالس الخلفاء ومقارعتهم الحجة بالحجة، وتبيان طريق الحق لهم. ووعظهم، وتذكيرهم بأيام الله. كل ذلك كان يقوم بالحوار، وكانوا يصلون إلى أهدافهم ـ بإيصال الحقيقة ـ بالحوار. وكان الإمام جعفر الصادق عليه السلام يعدّ بعض تلامذته ـ ممن يرى فيه المقدرة والكفاءة ـ لإجراء الحوار مع المخالفين كما فعل مع هشام بن الحكم ومؤمن الطاق. وبهذا يحقّق هدفهم من ايصال الحق إلى من يجهله، وإقامة الحجة على المعاندين منهم، ونشر نور الله الذي أمروا بنشره وتبليغه.

كان أئمة الهدى من أهل البيت عليهم السلام يتحاورون مع الزنادقة، والملحدين، وأهل الفرق والمذاهب والأديان المخالفة للإسلام بالاسلوب الهادئ والحجة القاطعة التي ينتصرون فيها لعقيدتهم ومن يراجع كتاب (التوحيد) وكتاب (أخبار الإمام الرضا عليه السلام ـ وهما من تأليف الشيخ الصدوق ـ يهوله ما فيه من مناظرات ومحاورات بين الأئمة عليهم السلام وبين أصحاب العقائد والمذاهب الأخرى. وقد أثّرت منهجيتهم في الحوار في نفوس الملحدين، والأعداء، فكانت مواقفهم عليهم السلام

(1) الكليني: الكافي/ 5، 33، ح25. وابن شعبة الحراني: تحف العقول/ 477.
(2) القاضي النعمان: شرح الأخبار/ 3، 157. والشيخ المفيد: الإرشاد/ 315.

هادئة، رصينة، لأنها تدور في أجور المناقشة الفكرية، ولا مكان في هذه الأجواء للانفعالات والقدح والتشهير.

إن رفض الحوار، واللجوء إلى أساليب التشويه والتشويش والتشكيك، والاتهام بالتهم الباطلة كالشرك والكفر وغيرها هي من الأساليب المتخلّفة.

إنّ الحوار الذي ينبغي أن ينعقد بين المتحاورين ينبغي أن يكون حواراً موضوعياً، يلتزم بكل شروط الحوار الحر الذي هدفه الوصول إلى الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة، مع احترام وجهة النظر الأخرى. خاصة الحوار بين المسلمين: أفراداً ومذاهب ينبغي فيه أن يصل إلى رضا الله سبحانه، ولا يكون ذلك إلّا باتّباع الحق الذي قرّره الله سبحانه.

إننا نرى ـ وبمزيد من الأسف ـ أنّ الحوار الذي ينعقد بين المسلمين ـ ومن مذاهب مختلفة ـ لا يهدف إلى الوصول إلى الحقيقة وصولاً لرضا الله تعالى، وإنما يبتغون من ورائه نصرة مذهب على مذهب، وفكرة على فكرة. لهذا نراهم يستخدمون كل وسائل التضليل والمغالطة، والرمي بالشرك والكفر لكل من يخالفهم في عقيدتهم، فكأنّما الإيمان وقف عليهم وحدهم، والتمسك بالحق امتياز لهم على غيرهم، ولو رجعوا إلى أنفسهم ـ مجردة من التعصب والأحكام المسبقة، وتراكمات الحوادث التاريخية ـ لوجدوا ـ على الأقل ـ أن محاورهم مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر، له مقاييسه الواقعية للحكم على الأحداث والأشخاص. وله موازينه المتسامية في النظر إلى الحق وما يترتب عليه من تبعات في: الفكر، والسلوك، والنهج الإيمان.

المنهج القرآني في الحوار

لابد للحوار من مناخ يعيش فيه، كي يتحوّل إلى عملية منتجة، بدلاً من أن يكون عملاً ضيّقاً عقيماً في الشكل والمضمون. وقد أسس القرآن الكريم ـ كتاب الإسلام المقدس ـ للحوار، وأراده حواراً موضوعياً قائماً على الحجة، والبرهان، والدليل، وبما يحكم به العقل السليم فضلاً عن قرائن أخرى تعزّز حكم العقل، وتصوّبه، ولعل السر في ذلك.. هو أن هدف الإسلام الأساسي، هو وصول الناس إلى الحق بالطريقة التي تعمّق الإيمان في نفوسهم، وتشرح به صدورهم. ولذا فإن وسائله العملية تتجه إلى هذا الهدف فحسب.

وإذا أراد المحاور أن يصل إلى الاقناع والتأثير العقلي، فليكن القلب هو طريقه إلى العقل، فلابد للمحاور، أن يلج إلى قلب الآخر قبل التفكّير في الدخول إلى عقله، أي: لابد من استمالة الآخر نفسياً، وكسبه عاطفياً، وهنا لابد من توفر أمرين:

1. انفتاح القلب على الآخرين، ومحاورتهم بروح المودة والحبّ وليس بروح الحقد، وبقلوب مفتوحة، وسرائر نظيفة، ونوايا صادقة. قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159]، وقال سبحانه: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: 43-44].

فاستعمل القرآن الكريم ـ هنا ـ لفظ (رحمة) للتعبير عن حالة الفيض النفسي، ولفظ (ليّناً) للتعبير عن اسلوب التوصيل المهذّب الدقيق، وبذلك ضمن التأثير النفسي العاطفي في طرف الحوار الآخر، واشعاره بالاطمئنان، والثقة، والتعاطف، والمودّة.

2. حُسن الظنّ بالآخر الذي يختلف في الرأي، أو في الموقف، فلا يجوز اتهامه بدوافعه، والظنّ به ظنّ السوء، بل لابد من التعامل مع ظاهره بحسن نيّة، فإنّ الدوافع مسألة قلبيّة لا يمكن اكتشافها بسهولة. والصحّة والخطأ مسألة تخضع لشروط موضوعية يمكن إدراكها. أما الدوافع فأمر لا يمكن التعرف عليها بسهولة. وهذا يذكّرنا بقول رسول الله ﷺ لأسامة بن زيد حين قتل رجلاً نطق بشهادة الإسلام، ولم يقتنع بها زيد (أفلا شققت قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟ ...)[1].

إنّ القاعدة الإسلامية واضحة في حمل فعل المؤمن على الصحة قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحُجرَات: 12]، وورد في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: (ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يغلبك منه، لا تظنّ بكلمة خرجت من أخيكَ سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً)[2]، وهو القائل عليه السلام (مَن عرف من أخيه وثيقة دين وسداد طريق فلا يسمعنّ فيه أقاويل الرجال)[3].

ولكن الواقعية تدعونا إلى توخّي الحذر وخاصة ممن يلبس مسوح الدين ويتزيّا بزيّه، فقد يقتحم الأوساط المؤمنة أُناس يتمظهرون بمظهر الدين والصلاح والالتزام بأحكامه، وهم يحاولون الاساءة، والكيد للمؤمنين والدين. عند ذلك: يجب أن يملك المؤمنون الوعي والبصيرة في رصد العناصر المشبوهة وتشخيصها خاصة إذا قامت القرائن الكبيرة تعمق الشك لتجعله يقيناً. فأعداء الإسلام لا ينفكّون عن الكيد للإسلام والمسلمين، والسعي لهدمه، وطمس حقائقه. ومع ذلك يجب التأكيد والتأكّد مدة بعد أخرى لكي لا يتسرعوا في الاتهام وألا يتعجلوا التقويم والمحاسبة. فقد هيمن على الكثير من الناس حبّ الطعن والاتهام، والمسارعة في فرض الأحكام الجائرة.

---

(1) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ 21، 65.

(2) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ 72، 196، باب: التهمة والبهتام وسوء الظن بالأخوان...

(3) نهج البلاغة: شرح الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، 2، 24.

علينا ألا نلغي الآخر الذي نختلف معه في الرأي وفي الموقف، فإنّنا نعيش في عصر تعدّدت فيه وسائل الوصول إلى الحقيقة. ومناهج البحث والتحري عنها. مما يجعل موقفنا صواباً يحتمل الخطأ أو موقف الآخر خطأ يحتمل الصواب. فليست هناك صوابيّة مطلقة، أو خطأيّة مطلقة. مما يخفّف من حدّة الموقف، وشدّة التطرّق، وينتج الانفتاح على الآخر نفسياً ومن ثم عقلياً، فتكون وسائل التواصل معه مجدية، ونافعة، وفاعلة.

إن للقرآن الكريم ـ كما أكّدنا مراراً ـ منهجاً متكاملاً في الحوار، وإنّ غياب المنهج القرآني في الحوار، عقّد حالة التواصل مع الآخر الذي نختلف معه.

إنّ قيمة الحوار في القرآن أنه لم يحدّد للإنسان موضوعات الحوار، فلا مقدّسات في مفرداته، ولم يحدّد له الإنسان المحاور، فلا مشكلة من الحوار مع أي إنسان كان، لأن القضيّة ليست قضية الموضوع هنا، أو الإنسان هناك ـ بل القضية ـ كل القضية ـ هي أن هناك حقيقة لابد من أن نتعاون على اكتشافها، والوصول إليها، ليكون الحوار وسيلة تعاون لاكتشاف هذا المجهول، لا لتسجيل كل واحد منا نقطةً سلبيّة على الآخر بطريقة جدليّة منغلقة.

إذن: المشكلة هي عدم الحوار مع الآخر، فإذا تمّ الحوار، فلا نتنكّر لاسلوب الحوار، ونواجه الآخرين بالرفض المطلق، ونضيق حينما يناقش الآخرون أفكارنا.

(ولعلّ مسألة الحوار هي من المسائل المهمّة في المنطق الإسلامي كاسلوب متحرّك عملي في الوصول إلى الحقيقة) وفي تكوين القناعات، وهي حركة الصراع في القضايا الفكرية والسياسية والاجتماعية ونحوها لأنه الوسيلة الفضلى التي يعبّر فيها الإنسان عن فكره بطريقته الخاصة في رفضه أو قبوله لأفكار الآخرين. والقرآن هو كتاب الحوار، فلابد لنا من أن نعمل على إيجاد مجتمع الحوار الذي ينفتح فيه الإسلام على كل الافكار المضادة، وينفتح فيه المجتمع المسلم على المجتمعات الأخرى.

إن الهدف من إجراء الحوار هو البحث عن الحقيقة. فلا يمكن أن نفرض الحقيقة على الآخرين فرضاً فلا بحث ولا حوار. والحوار الباحث عن الحقيقة

يجب أن يكون حواراً موضوعياً ذلك أنّ من الأسس الهامةِ في الحوار، هو التحاور بموضوعية.

كما أن الأجواء المحيطة بالإنسان تشكل القوة الضاغطة في وعي الإنسان وفي نفسيته، وفي مواقفه. ولعلّ من أشدّ الأمور ضرورة لوصول الحوار إلى هدفه، وجود الأجواء الهادئة للتفكير الذاتي الذي يمثّل فيه الإنسان نفسه وفكره، والابتعاد عن الأجواء الانفعالية التي تعيق الإنسان عن الوقوف مع نفسه وقفة تأمّل وتفكير.

إن ما يعطي الحوار جدواه، ويحقّق هدفه، ويوصله إلى النتائج الايجابية التي يتوخّاها هو التأكيد على نقاط الاتفاق أولاً للوقوف على أرض مشتركة. وهذا هو المنهج القرآني في الحوار، يقول تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عِمـرَان: 64]، فـفـي هذه الآيات الكريمة تأكيد على النقاط المشتركة بين الإسلام وأهل الكتاب وأهمها الإيمان بوجود الله. أما إذا بحثت نقاط الخلاف والافتراق، فإن ذلك لا يوصل الحوار إلى نتيجة ايجابية، فتتشعّب المسائل، وتتعمّق الاختلافات، وتتباين وجهات النظر، وتتعقّد حالة الحوار فلا يؤدي إلى نتائجه المتوخاة، وهي تحقيق التواصل بين الآراء، والتطابق في وجهات النظر. وعلى هذا فيجب أن يتوفّر الحوار على الأجواء الملائمة.

(إن الحوارات المتحركة في واقعنا تحاول دائماً أن تحرق الأرض المشتركة، وأن تنسف القواسم الموحّدة) وهذا خلاف للمنهج القرآني السليم الذي يرفض التطرّف والتشدّد في الآراء والمواقف، ويستأصل العقد النفسية للطرف المحاور، وينطلق من متطلبات العقل وشروطه، ومن توفر حسن النية، والدوافع السليمة لإجراء الحوار على أسس موضوعية بعيداً عن الدوافع الشخصية والرغبة في (الغلبة) على حساب الحقيقة، فتبرز حالات الالغاء والتسقيط والتشهير. وقد أكّد المنهج القرآني للحوار على أخلاقية خاصة للحوار تتركّز في مسألتين:

الأولى: لا يجوز أن يعتمد الحوار لغة السبّ والتشهير والتسقيط، فالقرآن

يشجب لغة السبّ، حتى مع الكفّار. قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 108]، لأنّ لغة السبّ والتجريح والشتم تعبّر عن عجز فكري وإفلاس أخلاقي، ونكوص عن الهادفية، كما أنها تساهم في تأجيج الخلافات وتوسيع الصراعات، وتشنّج العلاقات فلا يعود ـ عندئذٍ ـ للحوار جدوى، ولا تكون له فائدة أو عائدة، بل يكون وسيلة للاحتكاك وسبباً لانحراف الارادات، فلا نستطيع أن نتعرّف على الحقيقة. والقرآن يشجب لغة السبّ، ويدعو إلى اعتماد اللغة المهذّبة قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النّحل: 125]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [العَنكبوت: 46].

وحين يرفض القرآن الكريم لغة السبّ والتنقيص والاستهزاء فهذا لا يعني أنه لا يذكر الحقائق كما هي، ولا يسمّي الاشياء بأسمائها، فهو يذكر البراءة من المشركين، ويرفض مبدأ الكفر والضلال، ويدين الانحراف عن الصراط المستقيم، كما أنه يحث على مواجهة قوى الشر والفساد في الأرض، ومقاومتها، والقضاء عليها.

الثانية: لابد أن تكون لغة الحوار لغة ليّنة، تتركّز فيها كل معاني الرحمة والإنسانية، والحبّ والمودّة والاخلاص للهدف الذي أُقيم الحوار لأجله، يقول تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عِمرَان: 159]، ويقول سبحانه: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: 43-44].

فبالكلمة اللينة يستطيع الإنسان أن يفتح القلوب، ويستميل النفوس وصولاً إلى العقول وقناعاتها، والضمائر ومكنوناتها. وبالكلمة الليّنة تخفّف التشنجات، وتعالج التناقضات في جوٍّ هادئ.

إن الجوّ المنفعل، والمتشنّج يعقّد الكثير من الأمور، ويمنع التفاهم ويحول دون الوصول إلى الحقيقة، والإيمان بها، والاصطفاف معها.

إن الاختلاف أمرٌ طبيعي في الحياة، فالناس مختلفون في أشكالهم وفي طبائعهم، وأخلاقهم، ومناهج تفكيرهم، وسبل عيشهم، وطبيعة أهدافهم. وهذا لا يعني الاختلاف الذي يقود إلى الاصطراع، والافتراق، وإنما هو الاختلاف الذي يقود إلى التكامل، والتعاون، والتكافل، والتفاهم لتحقيق الوحدة الإنسانية، وإذا ما اختلفنا، فعلينا أن نملك أدب الاختلاف وحينما نعجز عن الاتفاق فعلينا أن نتعلم كيف نختلف بما لا يقود إلى التقاطع والتناقض.

ومن أدب الاختلاف الابتعاد عن لغة التشهير والتسقيط. وهذا لا يعني عدم تعرية الافكار المنحرفة، والمبادئ الضالّة، وكشف قوى الظلام، وما تبيّته من مخططات لقوى الخير والهداية، ولكن بأساليب علمية، ولغة موضوعيّة كما لو تصدّينا لكشف الماسونية وأهدافها الخبيثة، والصهيونية وأساليبها المجرمة. ولا يتوهم بعض الناس أن احترام الرأي الآخر يعني المجاملة على حساب الحقيقة، ويعني المهادنة للباطل، وإنما هو التزام الحق، وايصال الحقيقة ناصعة واضحة بالغة مهذّبة، وتفكير سليم، ومنهج قويم، يقوم على المقارنة، والموازنة، والكشف والتوضيح والتبيين.

إن احترام الرأي الآخر لا يعني الاقرار بالأفكار التي تتنافى مع المبادئ والقيم التي نؤمن بها، والتي تهيء للبشرية الحياة الكريمة، كما أنّه لا يعني السكوت عن مواجهتها، والتصدّي لها لتحصين المجتمع من أخطارها، ولكن باسلوب يحفظ للحقيقة نصاعتها، وللإنسانية كرامتها، وللأفكار سلامتها. ولنا في هذا مثلاً قريباً فحينما غزت الافكار الشيوعية بلاد العرب والمسلمين تصدّى لمواجهتها بعض المفكرين بأقلامهم، فكتب المفكّر عباس محمود العقاد كتاباً عنونه بـ (مذهب ذوي العاهات) ملأه سباً وشتيمة وتسفيهاً، وتجريحاً للشيوعية والشيوعيين، ولفلسفتهم الماركسية، فلم يكن هذا الكتاب إلّا بوقاً زاعقاً لم يفعل فعله ولم يحقق هدفه رغم صدوره عن واحد من أكبر المفكرين العرب المسلمين في عصره.

وحين انبرى المفكر الشهيد السعيد السيد محمد باقر الصدر (رحمه الله)

لمواجهة المد الشيوعي الذي اجتاح العراق والمنطقة بأكملها فألّف كتابيه الخالدين: (فلسفتنا، واقتصادنا) قياماً بواجبه الشرعي، فعل هذان الكتابان فعلهما، وأحدثا تأثيراً بالغاً في حياة الناس وتفكيرهم، فقد أعادا ثقة المسلمين بإسلامهم، وتيقّنوا أن دينهم قادر على حل كثير من مشاكل الحياة والفكر بصورة أفضل من بقية المذاهب والفلسفات والنظم الطارئة عليهم.

وقد استطاع السيد الشهيد الصدر (رضوان الله تعالى عليه) أن يعرض ـ بما أوتي من قوّة الفكر، ووضوح الرؤية، وسلامة الهدف، والالتزام بأخلاقية الإسلام، وموضوعية الحوار ـ الأفكار الماركسية ويفنّدها فلسفياً، ويثبت بطلانها، وأن يعرض مسائل الاقتصاد وفق الرؤية الماركسية، مقترنة بالرؤية الرأسمالية مقارنة وموازنة بمبادئ الاقتصاد الإسلامي وأخلاقياته. فأثبت قدرة الاقتصاد الإسلامي أن يقف في مواجهة هذين وقدرته على حل كثير من إشكاليات العصر. وبهذا كشف عن عمق الإسلام وعن عمق الخلفية الإيمانية له، التي تستند إليها أخلاقياته، وتشريعاته، وتطبيقاته وهذا ليس إلغاءً للآخر، وهذا لا يتنافى مع أدب الاختلاف وإنما هو طلب للحقيقة، وتكريسها فاعلة في حياة الإنسان.

الحوار الأسلوب القرآني للوصول إلى الحقيقة

يمثل القرآن الكريم في حياة الإسلام والمسلمين المدرسة التي انطلق منها النبي محمد ﷺ وأهل بيته الميامين ﷺ وأصحابه، في اعتماد الأساليب المتنوعة للحوار والإطار العام للخط الإسلامي في ذلك والدروس العملية التي تجسد وصول الحوار إلى هدفه في حركة الحياة والإيمان.

وقد وردت كلمة الحوار في القرآن الكريم في مواضيع ثلاثة قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: 37]، وقال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: 1]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: 34].

كما وردت كلمة (الجدال ـ الجدل) وهي مرادفه لها في القرآن الكريم في (27) موضعاً. ولكن كلمة (الحوار) أوسع مدلولاً من كلمة (الجدل) فكلمة الحوار تتسع له ولغيره مما يراد منه إيضاح الفكرة بطريقة السؤال والجواب.

إن الحوار هو الخط العملي لكل الرسل والأنبياء ﷺ وهو الخيار الأول الذي اعتمدته الرسالات في عملية الهداية والتبليغ. وقد تحدث القرآن الكريم في الكثير من المناسبات عن تجارب الأنبياء مع مجتمعاتهم حيث كان أسلوب الحوار يبدأ من أصحاب الرسالة بكل موضوعية وعلمية هادفة، لكنه يصطدم بالمحاولات المضادة التي تعمل بكل الأساليب على إلغاء الحوار وإيصاله بأسرع وقت إلى النهايات المغلقة.

ولابد للحوار من مناخ يعيش فيه كي يتحول إلى عملية منتجه بدلاً من أن يكون عملاً ضيقاً عقيماً، بالشكل والمضمون، ولابد له من توفير شخصية المحاور الذي يقود عملية الحوار ويتبناها، ثم شخصية الطرف الثاني للحوار،

والحالة النفسية التي تعيش مع الحوار في المعرفة والإيمان، لا في الجدل العقيم، ثم المحاولة الجادة لخلق الأجواء الهادئة للتفكير الذاتي المستقل الذي يبتعد عن التأثيرات الانفعالية. كما لابد من ممارسة الأسلوب الذي يستطيع أن يقود الآخرين إلى الفكرة ولا يبعدهم عنها في قليل أو كثير.

إن المحاور الرسالي الهادف لكي يصل إلى هدفه وهو إيصال الحقيقة إلى الطرف الآخر لابد له من أن يستمع إلى وجهه نظر الطرف الأخر في الحوار، ويصغي إلى كل إشكالاته، ويتفهمها، ويحترم آراءه مهما كانت بعيدة عن الصواب والحقيقة لكي لا يغلق باب الحوار، ويسدّ كل قنواته ومنافذه.

كما أن على المحاور اعتماد العقل في حواره واعتباره قوة صالحة للحكم على الأشياء وميزاناً لصحة القضايا وفسادها، وتقديم الحجة والبرهان وصولاً إلى الاقتناع، وخاصة في مسائل العقيدة، فلا إيمان من دون حجة.

وخلاصة القول:

إن الإسلام بكتابه المقدس ـ القرآن الكريم ـ يريد للإنسان على أن يحصل على القناعة الذاتية المرتكزة على الحجة والبرهان في إطار الحوار الهادئ العميق قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزُّمَر: 17-18]، فالآية المباركة صريحة في احترام العقل وبيان سمة من سمات المؤمن فلا تعصب ولا لجاجة ولا جمود ولا تحجر في الفكر بل الأساس الأولي والمهم هو البحث عن الحقيقة واستقبالها بصدر واسع رحب وقبول حسن وقناعة تامة تهيئ للعمل الصالح.

كما لابد لكل من طرفي الحوار من التعرف على الفكرة التي ينطلقان في طريق إثباتها، ونفيها، لأن الجهل بها، وبتفاصيلها يحول الحوار إلى أسلوب من أساليب الشتائم والمهاترات، التي يغطي بها كل منهما ضعفه وعجزه عن الوقوف موقف المدافع القوي عن فكرته، بينما تجعل المعرفة كلاً منهما واعياً لما يطرح وما يستقبل من فكر، مما يجعله يعرف كيف يبدأ الحوار وكيف يخوض فيه، وكيف ينتهي منه في وضوح الرؤية، وهدوء الفكر، وقوة الحجة، ووداعة الكلمة.

إن هناك أسلوبين للحوار: فهناك أسلوب العنف الذي يعتمد مواجهه الخصم بأشد الكلمات، والأساليب، وأقساها، وهناك أسلوب اللاعنف (السلمية) التي تعتمد اللين، والمحبة أساساً للحوار. وقد ركز الإسلام على هذه الطريقة ـ الثانية ـ في كل أساليب الحوار والجدال من أجل الوصول إلى المعرفة من جهة، أو إلى الموقف الحق من جهة أخرى، وأطلق على ذلك كلمة بـ ﴿ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [الإسرَاء: 53]، فهي الطابع الذي يطبع كل وسائل الحوار وأساليبه. قال تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فُصّلَت: 34]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [النّحل: 125]. وقال عز وجل: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العَنكبوت: 46]، ولن نحتاج إلى جهد كبير لنعرف إن الجدال بالتي هي أحسن يتمثل في إتباع أفضل الأساليب وأحسنها في إقناع الخصم بالفكرة التي يدور حولها الحوار، بحيث يظل الداعية في ملاحقة جادة واعية لكل الأساليب المطروحة المعروفة، وغير المعروفة ليختار منها الأسلوب الأحسن والطريق الأقدم سواء في ذلك الكلمات التي يستخدمها أو المعاني التي يعبر عنها.

ولعل من أفضل الأمثلة على ذلك هو النموذج الذي طرحه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العَنكبوت: 46] والتي تضمنت الجدال مع أهل الكتاب بالتي هي أحسن، فقد بدأت الآية الكريمة الحوار معهم بالطريقة التي تبحث عن مواطن اللقاء التي نؤمن بها من خلال رسالتنا وفكرنا، فنحن لا نتنكر لما يؤمنون به من كتاب، وما يعتقدونه من الرسالة. فإن القيمة الكبيرة للإسلام هو أنه ينطلق من الإيمان بكل الرسالات السماوية والتصديق بجميع الأنبياء والشعور المشترك ـ منا ومنهم ـ بالعبودية لله سبحانه الذي نسلم له ولرسالاته.

وعلى هذا الأساس يبدأ الحوار من قاعدة مشتركة يمكننا أن نقف عليها معاً حيث نشعر بإمكانية اللقاء في القضايا الأخرى بعد تحقق اللقاء في القضايا الأساسية.

ولابد من القول.. إذا لم يتصف المحاور بسعة الصدر، وطول النفس، وما لم يوطّن نفسه على قبول الحقيقة فإن الحوار سيكون عبثاً وعناداً لا يليق بالعقلاء، ومبعثاً للخلاف والاختلاف، والصراع الدامي مما يجلب الويل والثبور للجميع على اختلاف المواقف والنزعات.

الحوارات القرآنية

القرآن تلك المعجزة الإلهية البيانيّة، سلك سبلاً شتّى لايصال دعوة الحق إلى الناس، واصطنع أساليب متعدّدة متنوعة للوصول إلى قلوب الناس، وعقولهم متوخياً حالة الاقتناع بما يهدف إليه، ومن جملة تلك الأساليب، توسله بالأسلوب القصصي. والحوار ركن أساس من القصّ.

وإذا درسنا حوارات القرآن الكريم، لوجدنا الإبداع الفنّي المعجز في صياغتها، وتعبيرها، واتخاذها الايحاء، والرمز، اسلوباً، والتكثيف المعنوي طريقةً، وتعدد التراكيب للتعبير عن الفكرة الواحدة. وقد يورد القرآن الكريم قصّة أحد الأنبياء في أكثر من موضع، فلا نرى هناك اختلافاً في الأحداث والسياق، وإن اختلفت طبيعة الفكرة التي يريد الإفصاح عنها. وبهذا تتشكل الحوارات القرآنية بأساليب مختلفة، لتعبّر عن أفكار متنوعة متعدّدة متساوقة مَعَ ما يراد منها، ومن القصّة التي يوردها.

وما أكثر القصص التي يسوقها القرآن الكريم لتصوير حركة الدعوة إلى الحق، وللتعبير عن حالة الصراع الأزلي بين الحق والباطل، وبين الاستقامة والانحراف، وبين النوازع الخيّرة والنوازع الشريرة. وبين الأهداف المتسامية، والغايات الدنيئة المتسافلة، وكان الحوار في كل ذلك يشكل عنصراً فاعلاً ومؤثراً للتعبير والتوصل والاقناع. فمن قصّة آدم عليه السلام والأمر للملائكة بالسجود إليه إلى عصيان إبليس إلى حوار بني آدم. وهو من بدء الخليقة مروراً بالأنبياء عليهم السلام ومحاوراتهم مع أقوامهم من المشركين والجاحدين وصولاً إلى الحوار مع أهل الكتاب. كل ذلك جاء باسلوب حواري بديع متناغم مع ما يراد منه، وحسبك قصّة مريم عليها السلام، وابنها عيسى عليه السلام مع قومها، ومع قومه لتدرك تجلّيات الاسلوب القرآني في الحوار وكيف يحقّق الغاية النبيلة من استخدامه، مع فعل

السحر البياني الذي يفعله. ليأخذ بألباب المستمعين، ويخضعهم لمنطق الحقّ والهدى والجمال.

حوار القرآن مع أهل الكتاب

يقصد بأهل الكتاب الأقوام الذين أنزل إليهم كتاب من ربّ العالمين كاليهود، والنصارى، والمجوس، والصابئة. ويختلف موقف القرآن من كلّ هؤلاء باختلاف موقفهم من الإسلام: شدّةً، وسماحةً، حرباً وسلماً، كيداً، ومهادنةً. ولعلّ أكثر الأقوام ـ من أهل الكتاب ـ ذكراً في القرآن الكريم هم اليهود ـ أمة موسى عليه السلام ـ وذلك لدورهم الكيدي، والتخريبي العدائي للإسلام ولنبيّه ﷺ. حتى نزل فيهم قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المَائدة: 82].

كان اليهود يترقّبون ظهور نبيٍّ، وكان يرجون أن يكون هذا النبيُّ منهم. فلما صدع النبي ﷺ بدعوته، تلقوه بحذر وتشكيك، ولما هاجر ﷺ وأصحابه إلى يثرب ـ وهي مجتمع عظيم لليهود ـ واجهه اليهود الذين كانوا يستعدّون لقيام مملكة لهم، وقد هيّأوا منهم ملكاً لها. ولم يحاول رسول الله ﷺ أن يصطدم بهم، لأنه لم يُرِد إثارة مشاكل صراع جديدة في دعوته. فبدأ باتخاذ تدبير في غاية الحكمة. وهو عقد معاهدة صداقة معهم تفسح المجال للتعايش السلمي بين الديانتين. قرّر فيها النبي ﷺ طبيعة العلاقة بين المؤمنين والمسلمين وبين اليهود، وحدودها، وحق كل منهم في الدعوة إلى دينه والعمل بشعائره. ورسم تفاصيل العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بينهم، في زمن السلم والحرب.

وقد كانت هذه المعاهدة منصفة للطرفين وإن كانت تهيء للمسلمين مناخاً أفضل للعيش بسلام. والتحرُّك لنشر دعوتهم. وكان من الممكن لهذه المعاهدة أن تدوم وتخلق الجوّ الرائع للتعايش الديني السلمي. ولكنّ اليهود أبوا المساعدة في استقرار هذا الجو، فمضوا يعدّون العدّة للوقوف بوجه الدعوة الجديدة والنبي الجديد ﷺ. فنصبت أحبار اليهود لرسول الله ﷺ العداوة بغياً وحسداً وضغناً لما خصّ الله به العرب من اصطفائه رسوله منهم.

وهكذا نجد أن اليهود هم من بدأوا العداوة، وأثاروا الجدال من خلال سعيهم إثارة القضايا التي تخلق جوّاً قلقاً من التساؤلات المغرضة عن الرسالة والرسول. فكيف كان رد الفعل لدى النبي ﷺ إزاء ذلك؟

لقد كان الاسلوب الذي توسّل به النبي ﷺ هو الأفضل والأجمل، فلم يستخدم الكلمات الحادّة إذا كانت الدعوة تتحقّق بالكلمات الهادئة، ولم يخلق الأجواء المتوترة المنفعلة إذا استطاع أن يستبدلها بالحركات المدروسة المتّزنة والأجواء الوادعة المطمئنة. ولعلّ الغرض من ذلك كله، هو إثارة شعور الآخرين بأن الإسلام يحترم فكرهم، وشعورهم، فلا يحاول أن يسيء إليها. قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العَنكبوت: 46]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: 64].

إنها الدعوة إلى الموقف المشترك، لتحقيق اللقاء المشترك لامتصاص ردّة الفعل، وهدم كل كيد وتدبير سيّء.

أما النصارى، فلم يكن للإسلام والمسلمين ـ بادئ ذي بدء ـ أيُّ احتكاك بهم، فلم يكن لهم وجود قريب معهم، وإنما كان النصارى يتسقطون أخبار الدين الجديد ورسوله الكريم من بعيد، فلم يكن لهم موقف سلبي أو معادٍ منهما، وقد نزل القرآن الكريم في ذلك قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [المَائدة: 82].

وعلى أساس هذا الودّ، والسماحة، والتعاطف والتقارب بين الإسلام والمسلمين، وبين المسيحية والمسيحيين، أمر النبي ﷺ المسلمين المضطهدين في مكة بالهجرة إلى الحبشة فراراً بدينهم، أملاً أن يجدوا هناك بعض الحرية والطمأنينة في ممارسة عقيدتهم. فقد حدّثنا التاريخ أن المسلمين حصلوا إلى الحماية القويّة عند ملك الحبشة النجاشي الذي قال فيه النبي ﷺ: (لو خرجتم

إلى الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد...)[1]، فقد منعهم من قريش التي لحقت بهم لتوغر صدره عليهم، فلم يستجب لها، بل أصغى مع جماعته إلى أفكار المسلمين وأقواله، وانسجم مع الأجواء الروحيّة التي أفاضها القرآن الكريم عليهم في ما تلاه المسلمون من الآيات التي تتحدّث عن عيسى وأمّه ﷺ، وعن المعاني الروحيّة الكبيرة التي أوحى بها الله إلى نبيّه ﷺ مما يلتقي مع الخط الواحد للرسالات السماوية، لأنهم رأوا فيها روحانيّة المسيحية الحقّة وإخلاصها وواقعيّتها الخاشعة مما جعل أعينهم تفيض من الدمع خشوعاً لله قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: 83]. والإسلام دين الوحدانية والتوحيد، وكذلك سائر الديانات السماوية التي أُنزلت لتكريس فكرة التوحيد، يقف القرآن الكريم موقف الناقد لموقف بعض الأحبار والرهبان الذين خرجوا على فكرة التوحيد. قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: 31].

وقد ركّز القرآن الكريم على موضوع الأحبار والرهبان. وقد نتساءَل عن السبب الذي جعل القرآن يدفع الحوار إلى هذا الموضوع؟

وربّما يكون الجواب عن ذلك هو: تأثيرهم الكبير في حياة الناس وأفكارهم ووقوفهم بوجه الدعوة بقوّة وعنف، فقد كانوا يقيمون الحواجز بين الناس وبين الدعوة إلى الله لأنّهم يخافون على مراكزهم وامتيازاتهم من الزوال أمام الواقع الرسالي الجديد. وقد وصف القرآن الكريم بعضهم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۗ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: 34].

---

(1) الإمام محمد بن يوسف الصالح الشامي: سبل الرشاد/ 1، 22، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، دار الكتبرالعلمية، بيروت ـ لبنان.

ولم يستجب أهل الكتاب ـ لاسيما اليهود منهم ـ لهذه الدعوة المخلصة من النبي محمد ﷺ في القرآن الكريم بل بدأوا يشاغبون، ويشكّكون في الإسلام، ويشوّهون صورته، ولكنّ النبي ﷺ لم يترك الاسلوب الحواري السلمي في القول والعمل لأنه يسعى إلى الوصول إلى القناعات من اقرب طريق. فطرح القرآن الكريم نبوّة محمد ﷺ كبداية للحوار محتجاً بالتوراة والانجيل فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 157]. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصَّف: 6].

وفي مواجهة العناد اليهودي، تحدّى القرآن اليهود أن يأتوا بالتوراة لاثبات بعض القضايا التشريعية التي يرى الإسلام أنهم كاذبون فيها. قال تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عِمرَان: 93]. وقد طلب اليهود من رسول الله ﷺ مطالب تعجيزية ليحرجوه أمام الناس وليعجزوه كطلبهم منه أن يريهم الله جهرة ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النِّسَاء: 153]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ [آل عِمرَان: 183].

ولكن القرآن الكريم يتخذ اسلوباً آخر في مخاطبة اليهود ـ وهو الاسلوب الوعظي ـ يخاطب قلوبهم ليخترق عقولهم قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البَقَرَة: 47-48].

ويتابع القرآن الحوار من أجل كشف مواقف اليهود القلقة. ولإبعاد الناس عنهم بعد اليأس من إمكانية هدايتهم قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ

فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: 75]. وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المَائدة: 59].

وفي سياق حوار القرآن الكريم مع اليهود يتعرّض لفضح مواقفهم باستعراض تاريخهم مقارناً بواقعهم الحاضر مع النبي ﷺ ليتعرّف الناس إلى طبيعة القدرة التي تتحكم فيهم وتطلق مواقفهم قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجُمُعَة: 6]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البَقَرَة: 94-95].

ويرد القرآن الكريم بحواره مع اليهود دعاواهم، ويطالبهم بالبرهان والدليل، ويقارعهم الحجة قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البَقَرَة: 111] وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المَائدة: 18].

وفي سياق حواري استفهامي يقرّع القرآن الكريم أهل الكتاب قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المَائدة: 68]، وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عِمرَان: 71]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عِمرَان: 99].

ويحاورهم في دعاواهم المزيّفة حين يحاولون استغلال اسم إبراهيم وقداسته في نفوس الناس قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عِمرَان: 65].

وقد أثار القرآن مع أهل الكتاب مع النصارى قضيّة المسيح وموقعه من العقيدة الإلهية، ومضى يناقش الفكرة من خلال واقع التوحيد الحقّ الذي جاءت

به الرسالات ـ بما في ذلك رسالة السيد المسيح عليه السلام ـ وقد طرح أمامه الفكرة التي تقول: إنّ المسيح ابن الله كما طرح الفكرة التي قالها اليهود إن عزيز ابن الله وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: 30].

ويتعرّض القرآن الكريم لفكرة التثليث عند النصارى. ويدحضها معززاً فكرة التوحيد من خلال حقيقة المسيح عيسى بن مريم كونه رسول الله ومهمّته الكبرى في حياة الناس قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: 171]. وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: 73]. وقال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۞ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ۞ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۞ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: 30-32].

ولكن لعيسى عليه السلام سمة تميّزه عن سائر الناس والأنبياء، فهو لم يخضع في ولادته لنظام التناسل الطبيعي الذي أراده الله لولادة الإنسان كسائر الأنبياء والرسل والناس، بل كان كلمة الله ألقاها إلى مريم وروحاً منه قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 59].

ثم قرّر القرآن الكريم محاوراً النصارى من أهل الكتاب حقيقة عيسى عليه السلام، ووظيفته الرسالية قال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: 75].

وفي حواره مع من يقول إنّ الله هو المسيح ابن مريم يقرّر القرآن حقيقة الموت والهلاك التي تصيب البشر ومنهم السيد المسيح عليه السلام وأمّهُ وهذا دليل بشريته قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ

فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المَائدة: 17].

بل يذهب القرآن إلى أكثر من ذلك من خلال ايراده لإقرار المسيح ﵇ أن يكون عبداً لله. والعبودية لا تكون إلّا من المخلوق للخالق قال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النِّسَاء: 172].

أما في قصة المباهلة، فيكون الحوار ناطقاً بالحق الذي جاء به النبي ﷺ ففي الحوار الذي أداره النبي ﷺ مع بعض النصارى من أهل الكتاب قد سلك مسلكاً جديداً في معالجة الموقف معهم بعد وصول الحوار إلى الطريق المسدود، وهو اسلوب المباهلة الذي حدّثتنا عنه الآية الكريمة في قوله تعالى نبيّه محمد ﷺ: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عِمرَان: 61].

حوار القرآن مع المشركين

بُعِث النبي محمد ﷺ في قومه العرب في مكّة، وكانوا مشركين أي: يشركون في عبادة الله سبحانه آلهة أخرى. وكانوا وثنيين يعبدون الأوثان والأصنام. فلما دعاهم النبي محمد ﷺ إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له، كانت ردود فعلهم متباينة تبعاً لوعيهم، وطبيعة تفكيرهم، ومصالحهم.

وكان ردّهم ـ بادئ ذي بدء ـ يعبّر عن حالتهم النفسية كما صوره قوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [صٓ: 5].

فلم تكن القضيّة ـ في تصورهم ـ تستوجب الرد والمناقشة، بل هي أمر يبعث على العجب ليس إلّا.

وفي ضوء هذا الواقع، كان الشرك يمثّل التحدّي الكبير لحركة الرسالة في المجتمع، وكانت الرسالة تمثّل التحدّي الكبير لعقيدة الشرك.

وكانت الحالة الانفعالية المتشنّجة هي اسلوب المشركين في الصراع فالشرك لا يملك سلاحاً للمواجهة في مجال الفكر، فيحاول أن يغطي ذلك بالأساليب القلقة من السباب والشتائم وإثارة الاتهامات الظالمة. مما يحشد الأجواء الانفعالية حول دعاة التوحيد وتثير ضدّهم مشاعر العداء التي تؤدّي إلى ممارسة الاضطهاد والتعذيب ضدّهم.

ونلاحظ في أساليب الرسالة التوحيديّة ـ في مقابل ذلك ـ التحرّك الهادئ الذي يفتح قلوب المشركين على كلمة التوحيد. وهذا هو الطريق الذي سلكه الإسلام في ضوء أساليب القرآن الكريم التي أطلقها النبي محمد ﷺ في حركة الحوار.

وضمن هذا الاسلوب، فقد فقدَ الشرك دليل الاثبات، فالفكرة التي تحكمْ الموقف هي التي تملك الحجّة والبرهان على العقيدة. والشاهد من العلم.

وهذا ما تعبّر عنه الآيات الكريمة الآتية: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: 4]، وقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: 148]، فإنه يطرح القضيّة من خلال بديهياتها العادية فإذا كان هؤلاء الذين تدعون من دون الله آلهة، فلابد للإله من القيام بعمليات الخلق، وإلّا فما معنى أن يكون إلهاً؟؟!!

ثُمّ يتطوّر الموقف في الحوار إلى تأكيد فكرة الإسلام في التوحيد ورفض الشرك من قاعدة التفكير العقلي والمحاكمة المنطقية ليتكامل الحوار، قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: 21-22]. وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 42]. وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: 91].

وهذا اسلوب جديد يصوّره لنا القرآن الكريم في طريقة الحوار التي أراد

النبي محمد ﷺ أن يتّبعها مع المشركين يتميّز باعتماد الجانب العقلي فيه كما في قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: 191-192]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: 3]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: 73].

وتظل قصص نبي الله صالح عليه السلام ومجتمعه ثمود من القصص المتكررة كثيراً في القرآن الكريم وهي قصص ترد بين التفصيل والاختزال، وبين السرد والحوار.

تبدأ قصة صالح مع قومه في سورة (النمل) على هذا النحو قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النّمل: 45]، مع هذه البداية القصصية التي استلها النص القرآني بإرسال صالح عليه السلام إلى قومه تستوقفنا سمة فنية هي أن قوم صالح عليه السلام قد انشطروا فريقين يخاصم أحدهما الآخر. وهنا مبدأ الحوار بين صالح عليه السلام وبين المشركين من قومه قال تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النّمل: 46]. وهنا يحقق الحوار الذي جاء على شكل سؤال إلى قومه، هو ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾؟

إن السؤال الحواري الذي وجهه صالح عليه السلام إلى قومه يخصّ الفريق الذي لم يستجب للرسالة، وإلى أن هذا الفريق فيما يبدو قد حذّره صالح عليه السلام من إنزال العقاب عليه، وإلى أنهم قد استهزأوا بهذا التحذير.

وبدلاً من أن يذعن السفهاء لنصيحة صالح عليه السلام نجدهم يركبون رؤوسهم من جديد مصرّين على تمرّدهم في جواب على سؤال صالح عليه السلام قال تعالى: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ﴾ [النّمل: 47].

عندما تطيّر قوم صالح عليه السلام من رسالته الخيّرة ومن المؤمنين الذين واكبوا رسالته إنما كان تطيرهم ناتجاً عن سمة مرضية، وليس عن دراسة أو استنتاج منطقي، لذلك نجد صالحاً عليه السلام يخاطب الذين تطيّروا به وبجماعته المؤمنين،

يخاطبهم مجيباً على تطيّرهم بما يلي: ﴿قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النَّمل: 47]. وهذه الإجابة تحسم كل شيء فقد مسح صالح عليه السلام بهذه الإجابة كل دلالة للتطيّر في نطاقه الذي صدر القوم عنه وأكسبه دلالة أخرى هي: الاختبار، الفتنة، الامتحان. المؤشر، الانذار.

ومن خلال الحوار الذي دار بين صالح عليه السلام وقومه نرى أن القصّة قد اختزلت ـ حذفت ـ تفصيلات العمل الرسالي الذي اضطلع به صالح عليه السلام.

كما يمكن أن نستخلص من قوله ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ﴾ [النَّمل: 47] حقائق مهمة في حقل السمات الفنية والنفسية في القصة. فمن الناحية النفسية كشف القوم المتمردون عن أنهم مرضى لا يمتلكون سمات الشخصية السوية السليمة.

أما من الناحية الفنية فإننا نستكشفها بوضوح من خلال الإجابة: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ﴾ [النَّمل: 47] فهذه الإجابة تكشف عن وجود الفريق المؤمن الذي أشارت إليه القصة في بدايتها عندما قالت ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النَّمل: 45].

وهكذا يكشف الحوار القرآني عن مضامين عميقة، وتفصيلات غائبة غير مذكورة، وحركة نفسية دائبة عن طريق الاختزال. والإشارة الذكية، واللمحة البارعة. وهذه من مهمّات الحوار القرآني الذي يسعى لاقناع الآخر بعدالة قضية السماء. وعقلانية التوحيد وواقعية الأحداث وتسلسلها ضمن حبكة قصصية محكمة.

والحوار في قصة موسى عليه السلام التي وردت في سورة طه، يبدأ بين الله سبحانه وبين موسى عليه السلام قال تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: 43-46].

ثم يبدأ الفصل الجديد من قصة موسى عليه السلام ـ في سورة طه ـ بمواجهة فرعون على النحو الآتي قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: 49-52].

إن النصّ القصصي ـ الذي اتخذ الحوار اسلوباً للإيضاح ـ إنما يحقّق نمطاً من الاقتصاد في السرد تفرضه طبيعة المواجهة لما سبق أن أوضحه الحوار بين السماء وموسى عليه السلام. هذا من الناحية الفنية.

أما من الناحية المضمونية فإن الحوار كشف عن قدرة الله الذي أعطى كل شيء خلقه وعن عجز فرعون عن ذلك لهذا وجّه فرعون إلى موسى عليه السلام سؤالاً تعجيزياً عن القرون الأولى الغائبة عن عالم موسى عليه السلام الذي أجاب أن ذلك من علم الغيب.

وهكذا يكشف الحوار القرآني عن طاقة روحية وفكرية وفنية لا حدود لها.

تلك هي بعض النماذج القرآنية للاسلوب الذي اتّبعه النبي ﷺ مع المشركين في حواره معهم انسجاماً مع الواقع البشري في مواجهة ما يؤمن به، أو ما يؤمن به الآخرون، وقد دلّلت مسيرة الإسلام وحركته في مجتمع الشرك على نجاح هذه الأساليب من خلال التجربة الحيّة، كما أنها ليست بعيدة عن المجالات الأخرى للعقيدة والسلوك في صراع الأفكار كلها من أجل الحياة.

وهكذا نجحت دعوة التوحيد، وهزمت فكرة الشرك باعتماد الحوار الايجابي المبني على الاستدلال العقلي المنتزع من واقع الإنسان وما يحيط به. والملاحظ أن هذا الاستدلال، كان ينطلق مما يمكن أن يكون بديهة عقلية، يؤمن بها الناس جميعاً من دون تردد كونه بسيطاً، وواقعيّاً، ويلامس فطرة الإنسان السليمة، ويستجيب لها، مراعياً الحالة الشعوريّة للمخاطب. من دون استفزاز يلقي حُجُباً كثيفة عازلة بين الحقيقة ومتلقّيها.

حوار الأنبياء مع أقوامهم

من جوانب القرآن الكريم التي شغلت أذهان المفكرين، وحظيت باهتمام الباحثين، فجالت بها أقلامهم، وكتبوا حولها الشيء الكثير هي أساليب القرآن والهداية والتربية، وإيصال الأفكار والتعاليم إلى الأمة.

لقد استخدم القرآن الكريم، أنجع الأساليب وأكثرها تأثيراً في المخاطبين، ومن هذه الأساليب اسلوب الترغيب والترهيب، والذي يتناغم مع نزوع الإنسان

فطرياً لجلب ما ينفعه، ودرء ما يشكل خطراً عليه، ومنها إظهار المعقول بلباس المحسوس ليكون أقرب إلى فهم وإدراك الإنسان المادي.

ولعل من أنفع الأساليب، وأكثرها رسوخاً في نفس المتلقي هو الأسلوب القصصي في القرآن الكريم، والذي يستند في الدرجة الأساس إلى عناصره المتحركة، ومشاهده الواقعية، وصوره الفنية الرائعة التي أضحت وجهاً من وجوه الإعجاز القرآني. فتناولت الدراسات والأبحاث هذا الأسلوب التربوي للقرآن الكريم من الزاوية الدلالية الفكرية بما تحمله القصة من أهداف أراد القرآن توصيلها إلى المخاطب، فتوسل بالعنصر القصصي في تحقيق ذلك بحكم كون القصة أشدّ تأثيراً على من يتوفَّر عليها.

إن القصة القرآنية قصة واقعية، وليست صياغة تخيلية، ولذلك كان لها الأثر البالغ في النفوس. والحوار ركن من أركان القصة، علية يقوم بناؤها، ويتطور الحدث، ويتنامى، وصولاً إلى نهاية القصة.

ومن تلك القصص التي أوردها القرآن الكريم قصص الأنبياء من آدم عليه السلام إلى خاتمهم محمد ﷺ عرضها بأسلوب فني معجز، ومن خلال تنامي الحدث، وإدارة الحوار بينهم وبين أقوامهم، يتخلل كل ذلك انبثاق المفاهيم القرآنية، والدعوات الإلهية إلى التوحيد، والى الإيمان بالله وانبيائه، وكتبه والعمل بحلاله وحرامه، والتزام حدوده.

ولنأخذ قصة إبراهيم عليه السلام -مثلاً-:

تبدأ قصة إبراهيم عليه السلام في سورة الأنبياء على النحو الآتي قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: 51]. وحين تتقدم إلى تفصيلات المواقف والأحداث التي تبدأ بالحوار الآتي قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: 52] فأجابه قومه: ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: 53] فأجابهم إبراهيم عليه السلام مباشرة: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء: 54] فأجابه قومه: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء: 55] وعندها أجابهم مباشرة: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء: 56].

إذن هذه هي دعوه إلى التوحيد ونبذ عبادة الأصنام، والتقليد. ثم تبدأ ثورته على الواقع الفاسد متمثلة أولاً: في قسم لفظي: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: 57]، ثم في ممارسة عملية ثانية ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: 58]. لقد وجدوا تماثيلهم مهشمةً جميعاً، إلا التمثال الكبير الذي وضع الفأس في عنقه. وطبيعياً أن يتساءلوا ـ بادئ ذي بدء ـ عن هوية الفاعل، عن الشخص الذي تجرأ على القيام بمثل هذه العملية، فتساءلوا بمرارة ساذجة قائلين: ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: 59]، فأجاب بعضهم على سؤال بعضهم الآخر قائلاً: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: 60]. ولذلك اقترحوا: ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: 61]، وفعلاً جيء بالبطل إلى مشهد يغص بالناس ووجهوا إليه هذا السؤال: ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: 62]، فأجابهم إبراهيم عليه السلام ساخراً: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: 63].

تقول القصة ساردة ردّ الفعل الذي أحدثته إجابة إبراهيم عليه السلام لدى القوم بعد أن قال لهم ما قال: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: 64-65]. ولذلك تحدث إبراهيم عليه السلام بعد هذه الواقعة بلغة المنتصر وليس بلغة من يحاول إقناع القوم قائلاً لهم: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: 66-67].

وحينما عجز قوم إبراهيم من إدارة الحوار المقنع مع إبراهيم عليه السلام اقترحوا: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: 68].

وهكذا تتنامى أحداث القصة تدريجياً من خلال الحوار، وتكشف عن مضامين فكرية عقلية تنطق بحقيقة الإيمان بالله والدعوة إلى توحيده ونبذ عبادة الأصنام بطريقة مقنعة حاسمة.

ولنأخذ قصة نوح عليه السلام مع قومه ـ مثلاً آخر ـ:

تبدأ قصة نوح عليه السلام على النحو التالي: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ

قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح: 1]. ثم يبدأ حوار نوح عليه السلام مع قومه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: 2-3]. إنها دعوة إلى عبادة الله، وطاعته وإتباع الرسول. فتكون نتيجة الطاعة: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: 4].

ولكن قوم نوح عليه السلام لم يستجيبوا لندائه، بل واجهوه بصنوف الصدّ والإنكار. فاتجه إلى الله تعالى قائلاً: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: 5-6] هذا الحوار الانفرادي مع السماء، يكشف عن المرارة التي كابدها نوح عليه السلام في دعوته إلى رسالة السماء ..

لقد أجهد نفسه في نشر الرسالة ليل نهار، لا أنه اقتطع شريحة معينة من الزمن لأداء الرسالة بل وظف الزمن كله للهدف المذكور. لكن القوم كانوا من الانغلاق إلى الدرجة التي لم يزدهم دعاؤه إلى الله إلا فراراً من ذلك: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: 7-20].

ثم استمر نوح عليه السلام في شكواه إلى السماء من قومه المستكبرين: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ [نوح: 21-24].

وهكذا تنتهي قصة نوح عليه السلام مع قومه عبر شكواه الحوارية الانفرادية التي قدّمها إلى السماء. فالحوار في قصة نوح عليه السلام مع قومه أولاً ومع ربه ثانياً تتضح بمفاهيم الرحمة والمغفرة والتوبة لمن أطاع، وهي دعوة إلى عبادة الله، وطاعته وتوحيده، فالحوار هنا عنصر مهم في بناء القصة فنياً، وإيصال المفاهيم التوحيدية دلالياً. وبهذا كرّس الحوار قوة الفكرة، وعمّق مفاهيم التواصل، ورسم

طريقاً للدعاة إلى الله يقوم على اللين والرحمة، وحسن التوسل في إيصال الفكرة والإقناع.

ومثل ثالث لحوار الأنبياء مع أقوامهم:

يتمثل في قصة موسى عليه السلام مع قومه بني إسرائيل كما تصورها سورة المائدة التي كشفت عن ظاهرة الجبن الذي طبع قوم موسى عليه السلام وما ترتب على ذلك من حادثة التيه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المَائدة: 20].

انه بداية حوار نستشف منه تذكير موسى بنعمة الله على بني إسرائيل فجعل فيهم أنبياء، وجعلهم ملوكاً في الأرض .﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [المَائدة: 21].

ثم جاءهم موسى عليه السلام بأمر الله أن ادخلوا الأرض المقدسة لكنهم لم يفعلوا بما أمرهم الله: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ [المَائدة: 22]. وبهذا عصوا أمر الله، وخالفوا موسى عليه السلام فإن الاسرائيلين جبنوا من الدخول متذرعين بالخوف.

وهنا يتدخل رجلان ـ كما يصورهم الحوار أنعم الله عليهما ـ فيرسمان خطة الهجوم: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المَائدة: 23].

ولكن بني إسرائيل لم يلتزموا بهذه الوصية فيجادلوا موسى عليه السلام قائلين: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المَائدة: 24].

وفي حالة إحباط يتوجه موسى عليه السلام إلى ربه قائلاً: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المَائدة: 25]. فيستجيب الله لدعائه: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المَائدة: 26].

إنها دعوة موسى عليه السلام لقومه من بني إسرائيل إلى طاعة الله، وإنها لعصيان

لأمر الله، ثم عقاب التيه الذي حكم به رب العزة على بني إسرائيل أربعين عاماً. كل ذلك جرى بأسلوب حواري، سرد الحادثة، وساق المفاهيم، وأوضح النتائج، وقرر العواقب.

وهكذا الحوار في القرآن الكريم يهدف إلى أمرين:

الأول: سرد الحوادث من خلال عملية حوارية جدلية كأسلوب للعمل.

والثاني: إغناء الحوار بالمفاهيم الإلهية، يسوقها ضمناً، ويعرضها واضحة نقية، وما يقابلها من الضد.

الحوار منهاج الرسل والأنبياء

إنّ الحوار هو الخط العملي لكل الرسل والأنبياء وهو الخيار الأول الذي اعتمدته الرسالات في عملية الهداية والتبليغ، لكنه كان ـ على طول المسار التاريخي ـ يتعرّض لهجوم المعاندين، والمستكبرين، لأنهم يرون فيه التهديد المنطقي لكل مواقفهم المنحرفة، ولكل مواقعهم المتسلطة، فحاربوا الحوار، ورفضوه، وواجهوا أصحاب الحوار بأساليب مضادّة، تتّسم بالعناد، والتصلب المتطرف بعيداً عن المنطق، ولغة الفكر.

وقد تحدّث القرآن الكريم ـ في الكثير من المناسبات ـ عن تجارب الأنبياء مع مجتمعاتهم، حيث كان الحوار يبدأ من أصحاب الرسالة بكل موضوعية وعلمية هادفة، لكنه كان يصطدم بالمحاولات المضادّة، التي تعمل بكل الأساليب على إلغاء الحوار، وإيصاله بأسرع وقت إلى النهايات المغلقة.

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد أرسل الأنبياء برسالاته ليكونوا النموذج الأمثل للإنسان المسؤول، المنفتح على الحوار حول كل ما يطرحونه وما يفكّر به الناس، وقد كانت مشكلتهم أن مجتمعاتهم كانت لا تؤمن بالحوار، لأن ردود فعلها على الرسل، لم تنطلق من الجدال الفكري، بل انطلقت من ترديد المقولات التي تمثّل المسلمات عندهم كحقيقة تقليدية جامدة، لا يقبلون التنازل عنها، أو إدارة النقاش حولها، لأنهم لا يعيشون حالة الحوار من خلال الاعتراف بأن للآخر فكراً مختلفاً عن فكرهم، ومنهجاً مختلفاً عن منهجهم وأن من حقّه عليهم أن يدخلوا معه في حوار حول الفكر والمنهج، فقد يكون فيه شيء من الحقيقة، أو قد يكون الحقيقة نفسها.

وحينما نقرأ القرآن الكريم نجده كثيراً ما يورد لنا قصص الأنبياء عليهم السلام والتي ما وجدت عبثاً، بل خاطبنا الله ـ عزّ وجل ـ بها لنعتبر ونتّعظ، ونأخذ من سير الأنبياء عليهم السلام منهجاً، فهم يمثّلون قمّة النجاح في الدعوة إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ

وقمّة النجاح في استخدام الاسلوب المناسب مع أقوامهم، حينما نقرأ قصص القرآن نرى أنها تكاد لا تفتقد الحوار والجدل بين الأنبياء ﷺ وأقوامهم - في أي قصة من قصص الأنبياء ﷺ - فكانوا يخاطبون أقوامهم، ويجادلونهم أفراداً وجماعات. وعلى سبيل المثال: الحوارية الإبراهيمية على ما حكاه لنا القرآن الكريم قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مَريَم: 41-47].

إن استعراض نماذج الحوار والجدل بين الأنبياء ﷺ وأقوامهم يطول فكلهم دخلوا مع أقوامهم في حوار وجدال، وكل حياتهم كانت حواراً وجدلاً بينهم وبين أقوامهم. والأنبياء ﷺ قدوة الدعاة إلى الله، لا يفتقدون منهج الحوار. وقد استعمل نوح ﷺ - على سبيل المثال - كل السبل والأساليب مع قومه ودعاهم إلى الله - سبحانه وتعالى - قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نُوح: 5-7]، ثم قال ﷺ: ﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نُوح: 8-9]، فدعاهم ﷺ أفراداً وجماعات، ودعاهم ليلاً ونهاراً، حتى ضجّروا منه ومن دعوته، فقالوا له: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هُود: 32].

أما سيد الرسل وخاتم الأنبياء محمد ﷺ فكانت دعوته مبنيّة على الحوار بينه وبين مشركي قريش. فعلى الرغم من صنوف الأذى التي لقيها من طواغيت قريش، وأتباعهم، لم يكفّ لحظةً واحدةً عن دعوتهم إلى الإيمان بالله الواحد القهّار، وحينما كانت تسدُّ المنافذ في وجهه، يتوجّه إلى قوم آخرين كتوجّهه إلى الطائف داعياً، وتوجّهه إلى الحجاج الذين يفدون إلى مكة، وهكذا كانت بيعة العقبة الأولى، وبيعة العقبة الثانية، وكان جداله بـ (التي هي أحسن)، يعتمد ﷺ الحجة والدليل والبرهان حينما يخاطب عقولهم، ويتوسّل بالعاطفة حين يريد أن يخترق ضمائرهم، ويتوسّل بتلاوة القرآن واسماعهم إياه حين يريد مخاطبة ذوقهم

الفني، وحسهم الأدبي. وربما ذكّرهم بنعم الله عليهم، وذكّرهم ـ أيضاً ـ بصلات الودّ والقربى بينه وبينهم كل ذلك لاستمالة قلوبهم نحو الدين الجديد قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [قٓ: 45]، وقال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: 29]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يُوسُف: 103]، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: 3]، وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: 272].

وهكذا كان النبي ﷺ مبلّغاً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله وسراجاً منيراً. وكان الجدل والحوار نهجه في دعوة قومه وأثمر ذلك، فقد ذكر أهل السير: أنّ الذين دخلوا الإسلام ما بين صلح الحديبية وفتح مكة ـ وأمده عام وبعض عام ـ أكثر من الذين دخلوا في الإسلام منذ أن بُعِث النبي ﷺ. والسرّ في ذلك: أنه عندما تمّت الهدنة بين النبي ﷺ وقريش كان هناك مجال للقاء والحوار والتواصل النفسي والفكري وعرض مفاهيم الدين الجديد، فأسهم ذلك في نشر الدعوة، ومخاطبة فئات ربما كانت لم تسمع بها، أو محجوبة عن السماع قهراً.

وهكذا.. كان أصحابه الأبرار يفعلون فعله، فقد يبعث ﷺ ببعض صحابته إلى الأقوام الأخرى خارج مكة والمدينة لكي يقرأوا عليهم القرآن، ويعرضوا عليهم مبادئ الدعوة الإسلامية: حواراً وجدالاً، أخذاً ورفضاً، توضحاً وتبياناً. وقد سار على نهجه الكريم ابناؤه أئمة أهل بيت النبوّة عليهم السلام فعاشوا حياتهم يدعون إلى الحق الذي جاء به محمد ﷺ ويصحّحون الانحراف الذي حدث بعد وفاته ﷺ وهكذا وصل إلينا الإسلام ـ عن طريقهم ـ سليماً كريماً بمفاهيمه وأحكامه، وسبله ومراميه.

إنّ الدعوة إلى الله ـ ووسيلتها الجدال والحوار بـ (التي هي أحسن) ـ تتطلب جملة أمور ينبغي توافرها في الداعية وأهم تلك الأمور العلم بما يدعو إليه، والعلم بما يناقض ما يدعو إليه، وأساليب الدعوة، والقدرة على توصيل ما يدعو إليه، والقوّة النفسية التي يملكها الداعية، والخط السلوكي القويم الذي

التزم به الداعية طيلة حياته، والهادفة فيما يدعو إليه، والاخلاص لله في قوله وفعله فضلاً عن قدراته النفسية والعقلية بل والجسميّة لكي يستطيع إقناع المدعو إلى فكرته، وكسبه إلى صفّه لكي يقف موقفه، ويتبنّى أفكاره وعقائده.

إن الدعوة إلى أي فكرة أو عقيدة تتطلب اموراً وقدرات وامكانات هي آليات الدعوة. فهي ـ الدعوة ـ تتطلب إمكانات منها ما هو طبعي، ومنها ما هو مكتسب، فإذا توفّرت هذه الامكانات في شخص الداعية، فإنه سوف يكون محل ثقة وتقدير ونجاح وفلاح. ولكن البعض قد لا تتوفّر فيهم القدرات الطبعيّة التي تولد معه كقوّة الحجة، والقدرة على الاقناع، والتأثير النفسي والعاطفي في الآخر. لكنّه يجب ألا ييأس ويقنط وينكفئ على نفسه، فهو يستطيع أن يعوض ذلك ـ إلى حد ما ـ بالقدرات المكتسبة، وأول تلك القدرات: العلم بما يدعو إليه، والعلم بما عند الآخر من قناعات فكرية، وبالاخلاص لله، وبتطوير قدراته الجدلية المكتسبة. عند ذلك يمكن أن يصل إلى درجة من الوعي بما يعمل،

إنّ كل فرد من أفراد المجتمع أيّاً كان مستواه العقلي، ومدركه الفكري، وقدراته الشخصية يستطيع أن يفتح حواراً مثمراً مع الناس الذين حوله، وفي الوسط الذي يعيش فيه، أو يعمل فيه، سواء كان طالباً أو استاذاً، أو عاملاً، أو كاتباً مفكراً. فإنّ هؤلاء يستجيبون لمستواه الفكري، وقدراته العلمية، ولا يأبون الاستماع له، لأنهم بنفس المستوى والذي يتعامل معه هو في مستواه. بل إنّ المحاور يكون أعلى مستوى منه، لأنه قد هيأ آليات الحوار، واستعدّ له، كما أنّه يملك وضوحاً فكرياً للهدف الذي يسعى إلى تحقيقه. فليس هناك فئة من فئات المجتمع إلّا وهي تستطيع أن تخاطب من في مستواها من الناس.

وعلى هذا: فإن استخدام هذا الاسلوب يجعل ميدان الدعوة والحوار مفتوحاً للجميع، كما ويجعل الدعوة متاحة للجميع تستوعب كل راغب، أو راج، وتستوعب كل الطاقات في المجتمع. والدعوة ـ عندئذٍ ـ لا تكون لفئة دون فئة، ولا تختصّ بطبقة دون طبقة.

وهناك مبدأ نود التأكيد عليه وهو: أنه لابد للداعية أن يكون عالماً ومؤمناً بما يدعو إليه. كما أنّ هناك مستوى من الدعوة ومستوى من الاستجابة لا يختلفان، وخاصّة في تحمّل التكاليف الشرعية. فخطاب النبي ﷺ للأمة (من رأى

منكم منكراً فليغيّره، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)[1]، معناه: أن كل مسلم عليه أن يستجيب للخطاب ويعمل وفق قدراته الذاتية في تغييره المنكر.

هناك من يملك القدرة على مخاطبة ومحاورة الآخر مع اختلاف مستوى الآخر العقلي والعلمي والثقافي والاجتماعي والعمري. كما ويملك اللغة التي تلائم هذا وذاك وتلك، ويملك آليات لكي يحاور الجميع على اختلاف مستوياتهم ومداركهم، ويصل إلى قلوبهم، وعقولهم، وضمائرهم. وهذا النوع من الناس له قابليات استثنائية في التأثير والاقناع بما يملك من طاقات روحية وقوى نفسية وقدرات عقلية تهيء له من الأسباب ما يحقّق هدفه ويصل إلى مراميه.

إن هناك فرقاً كبيراً بين أن يكون الخطاب موجهاً من طرف واحد يواجه به المتلقين والمخاطبين، فيستمعون إليه، ويستجيبون له من دون اعتراض أو مناقشة، وقد لا يستجيبون. وبين الحوار الذي يدور بين طرفين أو أكثر، فإنه أكثر وعياً، وأشدّ حرارة، وأعمق حيويّة، لأن فيه فعلاً وردّ فعل، وفيه أخذاً وردّاً، قبولاً ورفضاً، استجابة وتحدّياً. فمع الحوار يكون التفاعل مع المستمع وردّ فعله، ويتيح للمستمع أن يطرح اعتراضه، ويبدو اقتناعه.

إنّ عمل الداعية في محيطه الاجتماعي: مكان عمله، معهد درسه، ساحة لعبه، لا يتطلب تفرّغاً، ولا وقتاً مخصّصاً، وإنما الحوار ـ هنا ـ نشاط اجتماعي ويعدّ جزءاً من حياة المرء، واسلوب أدائه الاجتماعي، وتفاعله مع الآخرين.

إن اقناع الناس، والتأثير فيهم، والوصول إلى قلوبهم وعقولهم، يتطلب ـ من المحاور ـ الدقة والتفكير في اسلوب الحوار، وطريقة الجدل، ولابد له من رسم هدف يصل إليه من عملية الحوار والجدل، ولابد ـ كما أسلفنا الإشارة إليه ـ أن يكون عالماً بموضوع الحوار ومؤمناً به، وعالماً بموقف وقناعات الطرف الآخر.

عليه.. ليكن ـ أيها المحاور ـ الاخلاص لفكرك وقناعاتك وللحقيقة رائدك، ولتكن متعاطفاً ومتفاعلاً مع من تريد محاورته. أما إذا كنت تشعر أن

(1) محمدي الريشهري: ميزان الحكمة/ 3، 195.

الحوار والجدل هو اسلوب للتعالي على (الغير) وإثبات الذات، وكسب (الغلبة) فإنّك ـ بذلك ـ قد دخلت في دائرة المجادلة والمغالطة والمماراة، وهو اسلوب ممقوت وغير شرعي، وهو اسلوب لا يليق بالمسلم، ولا يليق بالداعية إلى الخير، ولا يليق برجل يبتغي مرضاة الله في قوله، وفعله.

المحور الثاني

حـوار الأديـان

الأسس الفلسفية والقيم للأديان

توطئة:

ما أن دبّ الإنسان، ودرج على وجه البسيطة، وبدأ يتحسّسُ، ويدرك الأشياء والموجودات المحيطة به، حتى نَمت نوازعه، ورغباته الفطرية المودعة في قرارة نفسه. ولعلّ من أبرز تلك النزعات الفطرية التي انطوت عليها دخيلته هي إنشداده وارتباطه بقوّة غيبية مهيمنة على وجوده وكيانه، والتي تدعى بالتدين، فحاجة الإنسان للدين ـ إذن ـ حاجة شعورية حقيقية نابعة من أعماقه. ولم تكن صدىً لأصوات خارجة عن ذاته، أو وليدة انفعالات أملتها عليه تأثيرات خارجية. وهذا ما أثبته البرهان ولهج به الوجدان، ودلّت عليه التجربة البشرية عبر تاريخها الطويل، ونطقت به الكتب السماويّة الحقّة قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الرُّوم: 30]، وحتى أولئك الذين أنكروا الدين، وجحدوا كل قوة غيبية لا تقع تحت حسّ الإنسان، واصطنعوا مذاهب فكرية، أو فلسفية تناقض الدين، جعلوا هذه المذاهب بديلاً عن الدين وتعبيراً عن مشاعرهم المنحرفة، وعقولهم المريضة، فكادوا يتعبدون بها، ويؤمنون بها إيمان المتديّن بدينه حماساً ويقيناً ودفاعاً وعملاً بها. وما ذلك إلّا تعبير عن الغريزة الفطرية الكامنة في نفس الإنسان وأعماقه لكنّه تعبير منحرف عن الفطرة السليمة.

بيد أن الإنسانية وخلال مسيرتها تعرّضت لانتكاسات ومطبّات انحرفت بها عن خط سيرها الذي رسمه الله لها، فغرقت في مستنقع الأهواء، والشهوات المادية، وولغت في الرذيلة وتمرغّت بأوحالها، فضعفت لديها نداء الفطرة، وخبت شعلتها الوهّاجة، فبرزت إلى السطح تفسيرات ونظريات مشوّهة وخاطئة عن نشوء الأديان في حياة الناس، لكنها بدت هزيلة، مهلهلة، لا تصمد أمام

رياح النقد والمناقشة، لأنها كانت مضادّة لتركيبة الإنسان، وفطرته.

من هنا كان عمل الأنبياء، والمصلحين في كل عصر وزمان، هو ايقاظ الفطرة لدى الإنسان، ونفض ما علق بها من غبار الضلال، والانحراف، لتعود نقيّة صافية، تستجيب لصوت الحق والإنسانية قال أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: (فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم انبياءه، ليستأدوهم ميثاقَ فطرته، ويذكروهم منسيّ نعمته، ويحتجّوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول...)[1].

هذا ولم يقف الدين عند حدّ كونه إشباعاً لرغبة الفطرة، بل كان له الأثر البالغ على سلوك الإنسان وتصرفاته، فالإنسان المتديّن ترى سمات الدين واضحة عليه مما أعطى لحياته قيمتها الحقيقية، وهيّأ الأرضية الخصبة لنموّ قيم الخير والصلاح في حياة المجتمع.

الأسس الفلسفية للأديان التي ترقى بالإنسان

الدين ليس فلسفة، وإنما هو مجموعة من القيم والمفاهيم النظرية والأحكام والتشريعات العملية. وإنما يمكن لنا أن نفلسف الدين إذا أردنا البحث في مقاصده، ومراميه، ودواعيه، ومبرّراته. فإننا لا نعدم ـ عند ذلك ـ وجود فكر متكامل إنساني لا يخضع للأهواء والنزعات والتأثيرات الخارجية. فالدين في حياة الإنسان طرفان:

طرف منه: يتصل بعقيدة الإنسان ويقينه، وطرف آخر منه: يتصل بسلوكه، وحياته الاجتماعية.

وليس من شك أن ظاهرة التدين والإيمان بالغيب كان من أقدم ما عرفه الإنسان في حياته، ومن أكثر الظواهر ثباتاً وشيوعاً في حياة الإنسان.

وعلى الرغم من اختلاف مظاهر التدين في حياة الإنسان فقد كان الإنسان يؤمن ـ في هذه الحالات جميعاً ـ بوجود مبدع غيبي ما وراء الطبيعة، وما وراء المظاهر المادية.

---

(1) نهج البلاغة: شرح الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده/ 1، 23.

وعلى الرغم أنّ الحواس لا تباشر غير المادة والطاقة، فإن الإنسان يؤمن بحقيقة ثالثة، ليست هي بمادة ولا طاقة، وإنما هي مبدأ للمادة والطاقة معاً، وذلك هو الغيبُ الذي يؤمن به الإنسان دون أن يقع له عليه حسّ، ودون أن يباشره بشيء من حواسّه.

والسؤال الذي نود أن نطرحه هو:

هل الإيمان بالدين ـ كظاهرة غيبية ـ هو شيء أصيل في حياة الإنسان، نابع من أعماق شخصيته وفطرته، أم هو شيء طارئ على حياة الإنسان نتيجة بعض الظروف والأوضاع الاجتماعية؟

وهل يؤمن الإنسان ـ حقاً ـ بالدين، أم هو وهم يبدو للإنسان على شكل يقين؟

وهل الإيمان بالغيب أمر ثابت في حياة الإنسان، ثبات الغرائز والنوازع الأصيلة، أم هو مرحلة في حياة الإنسان؟

ومردّ هذه التساؤلات جميعاً إلى التساؤل عن أصالة التديّن في شخصية الإنسان.

ولا شك في أن اكتشاف هذه النقطة الجوهرية، ينفعنا كثيراً في فهم حقيقة الدين، وإثبات واقعية التدين، والإيمان بالغيب وإثبات واقعية الدين في حدّ ذاته أيضاً.

وبذلك فإن أصالة النزوع الديني في الشخصية يكشف عن حقيقتين جوهريتين في هذا المجال:

الحقيقة الأولى: أن التديّن حقيقة ثابتة في شخصية الإنسان، وأنّ النزوع، نزوع صادق، وليس وهماً أو سراباً في النفس. وصدق هذا النزوع وأصالته في الشخصية ـ وإن كان لا يثبت الواقعية الموضوعية للدين ـ إلّا أنه يكشف بلا شك عن واقعية التدين الذاتية في نفس الإنسان، كما يكشف أن التنكّر للدين شيء طارئ على الشخصيّة، وعرض من الأعراض النفسية والروحية التي تصيب الإنسان، وشذوذ في الشخصية، وليس حالة عامّة في الإنسان.

الحقيقة الثانية: أن هذا النزوع بهذا الشكل من القوة والأصالة بحيث لا

يمكن أن يكون خاطئاً، فلا يمكن أن تنزع الفطرة عبثاً وراء غيب، لا حقيقة له. فإننا لو أثبتنا أصالة هذا النزوع في الشخصية، فلا يمكن أن ينفك عن واقعية هذا الغيب الذي ينزع إليه الإنسان.

والواقعية ـ هنا ـ واقعية موضوعية، وإن كان الطريق إلى إثبات هذه الواقعية الموضوعية طريقاً ذاتياً وجدانياً. ولذلك فإنّ النظريات الدينية تقع في اتجاه معاكس للاتجاهات المادية في تفسير الدين دائماً. فإن النظريات الدينية، تفسّر هذه النزعة ـ دائماً ـ بالفطرة، وتؤكّد صلتها الوثيقة بالكينونة الإنسانية، وأصالتها في الشخصية، بينما تحاول النظريات المادية توجيه هذا النزوع بعوامل خارجة عن شخصية الإنسان، وطارئة عليه.

إذن: نظرية الدين في نشوء الدين هي (النظرية الفطرية). وظاهرة التدين ـ بناءً على هذه النظرية ـ تنبع من فطرة الإنسان وكينونته. وفي فطرة كل إنسان نزوع قويّ إلى الله ـ تعالى ـ المبدأ الأول للكون. ويتمثل هذا النزوع في التدين، والعبادة، والدعاء والصلاة. وحقيقة هذا الميل هو النزوع إلى الكمال، فإن في نفس كل إنسان نزوعاً إلى الكمال. وهذا النزوع ينبع من أعماق الفطرة، ويطفح على كل اتجاهات الإنسان وأعماله. وفي هذا النزوع النفسي يكمن سرّ تقدّم حياة الإنسان، وتطورها، ونمو الحضارات الإنسانية وتكاملها.

ولا يجوز أن يكون هذا النزوع الفطري الذي يلمسه في نفسه إلى الكمال بكل قوّة ووضوح نزوعاً كاذباً، أو نزوعاً إلى شيء غير موجود. فما من شك في أن هذا النزوع الذي يتجلّى في نفس الإنسان بكل براءة وصفاء وكل قوّة وعزم، نزوع صادق، وإلى كمال موجود، وإن كان يجهله الإنسان. فقد يكون هذا الكمال الذي تنزع إليه نفس الإنسان مجهولاً، ولكن لا يمكن أن يكون معدوماً، فإن الفطرة، أصدق شاهد على ذلك.

وإذا حاولنا استقصاء دور الدين في بناء الإنسان ورقيّه في عالم القيم والمفاهيم والسلوك والبناء الحضاري، فنرى أن الدين كان سبباً في استقامة الإنسان في الاتجاه، ووحدة السلوك. فإنّ طبيعة الحياة الرسالية تتطلب من الإنسان هذه الوحدة والاستقامة السلوكية التي لا يشوبها قلق، وارتباك وضياع،

والتي قد يضطر الإنسان أن يتجاوز ذاته ومصالحه الخاصة عندما تتعارض مصلحة الإنسان الشخصية مع إيمانه ورسالته.

والعقيدة ـ مهما كان نوعها ـ فهي تصلح في حياة الإنسان المنتمي إليها أن تستقطب جماعة من الناس في اتجاه واحد من التفكير والعمل، ولذلك فإن العقيدة ـ دائماً ـ تكون أساساً لأي عمل جذري كبير، ولأي تغيير اجتماعي. فالحياة العقائدية تمهد للحياة الاجتماعية الهادفة. والدين يدفع معتنقه إلى نكران الذات، فهو يشعر بالارتباط إلى جماعة من الناس يشتركون معه في الاتجاه والتفكير، ويشعر نحوهم بشيء كثير من التعاطف، ولا تكون الذات المحور الوحيد لاهتمامات الإنسان وتطلعاته وآماله، ولا ينساق الإنسان إلى هذا الجشع والحرص الذي يحجبه عن رؤية الآخرين. فإن العقيدة الدينية تهيء الإنسان لحياة اجتماعية عاملة هادفة، وتوجيهه اتجاهاً واحداً ثابتاً.

كما أن الدين يهيء للإنسان المناخ الملائم للجزء المتسامي من الشخصية. فالاهتمام بالقيم الإنسانية والخلقية ـ التي يقرّرها ويؤكدها الدين ـ يشكل جزءاً من شخصية الإنسان، يلمس الإنسان أبعاده في الاهتمامات العالية، والخيّرة في حياته، وفي التسامي عن الإسفاف في استعمال الغريزة كثير من الأحوال. وهذا الاهتمام قديم وأصيل في شخصية الإنسان، ويقوم بدور رئيسي في تعديل سلوك الإنسان الغريزي، وإعطاء طابع خلقي رفيع لسلوكه الاجتماعي. فالاهتمامات العالية والنزوع الخلقي جزء أصيل من شخصية الإنسان، قديم في حياة الإنسان، عريق في نفسه، يدفع الإنسان بصورة مستمدة إلى الاستجابة لكل القيم الأخلاقية، وإلى التسامي وإلى التضحية في هذا السبيل.

وإذا كانت الاهتمامات العالية، والطموح والتسامي تشكل الجزء المتسامي من الشخصية، فلابد من توفير البيئة والمناخ الاجتماعي والتربوي الملائم لتسامي الإنسان وترفعه من الانهماك في حاجات الجسد والغريزة. وهذه البيئة الصالحة والمناخ الاجتماعي يهيئه الدين، ضمن منظومة قيمه ومفاهيمه وفضائله الخلقية وتوازناته التشريعية فالاهتمامات الإنسانية، والقيم الخلقية ـ إذن ـ جزء لا ينفك من شخصية الإنسان، وأي محاولة لتفكيك الإنسان، وإغفال هذا الجزء من شخصية تؤدي بالإنسان إلى خطر الانشطار والفراغ النفسي.

إن الحياة الرسالية في الإنسان تبلغ ذروتها وكمالها عندما تتحول اهتمامات الإنسان جميعاً ـ أو غالباً ـ إلى الله. ولا يعارض بعد هذا اهتمام الإنسان بالقيم الإنسانية بل إن الإيمان بالله يعتبر في حياة الإنسان المؤمن منطلقاً دائماً للاهتمامات الخيّرة بالقيم الإنسانية الرفيعة.

كما أن الإيمان بالله ـ وهو أساس كل دين ـ يبعث الثقة بالنفس والاطمئنان إلى عون الله. فإن الإيمان بالله يلهم الإنسان هذا العزم والقوّة، وتتبع هذه العزيمة، والقوّة من نفس الإنسان، حيث يتحوّل هذا الإيمان والعقيدة إلى اتجاه وهدف وقوّة. فحينما يعتقد الإنسان المؤمن بالله أنه يعبد إلهاً حياً، قديراً، قوياً، رحيماً، لا حدّ لقدرته وقوّته، وسلطانه، ورحمته، وثيق بإمداده وتعزيزه للمؤمنين به. هذا الشعور يخلق لدى الإنسان المؤمن كثيراً من الثقة والاطمئنان، ويسنده، ويربط على قلبه في أحرج الاوقات وأشدها، ويوحي إليه أن وراءه دعماً وتأييداً إلهياً قوياً.

كما أنّ الإيمان بالله وبتعاليمه يوحي إلى الإنسان برقابة مستمرّة من جانب الله ـ سبحانه وتعالى ـ تحصي عليه دقائق أعماله وجزئيات تصرفاته، وتحاسبه على كل تصرف، وحركة من حركاته. والإيمان بهذه الرقابة الإلهية واليوم الآخر يضبط كثيراً من تصرفات الإنسان، ويضبط الغريزة من اندفاعها اللامشروع، ويردع الإنسان عن ارتكاب الجريمة حيث لا توجد أي رقابة اجتماعية على تصرفات الإنسان وأعماله، وهذه الرقابة لا توجد في غير العقيدة الدينية، إذن ليس هناك في حياة الإنسان وسيلة أفضل من العقيدة الدينية لحصانة الإنسان وحفظه من السقوط والانهيار.

كما لابد من أن نشير إلى عامل آخر من الدين لضمانة تنفيذ القانون، وإشاعة البر والخير والفضيلة في المجتمع، وذلك هو (الرجاء) في ثواب الله ـ تعالى ـ وجنّته في قبال عامل (الخوف) ولا تقل أهمية عامل (الرجاء) في حصانة المجتمع وصيانته وضمانة تنفيذ القانون وإشاعة الخير، والبر في المجتمع عن عامل (الخوف). فإن الإنسان المؤمن ينبعث إلى أعمال الخير والبر وإقامة العدل وإشاعة العفو عن رجاء ثواب الله.

إن الإيمان بالله يمثّل معيناً لا ينضب من الأمل، والرجاء، والعون،

والامداد، فعندما يكون الله ـ تعالى ـ هو الغاية والمحور في حياة الإنسان ورسالته، فلا ينبغي أن يخالج نفس المؤمن بالله شعور باليأس، فهو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، وليس شيء أقرب إلى الإنسان منه، يحيط بكل خلجات شعور الإنسان، ونبضات قلبه. ما يزيد الإنسان المؤمن بالله قوّة وثباتاً، وتبصّراً، وسعياً إلى كل مفيد وجديد وخيّر.

كما أن الدين يحفّز الإنسان، ويهيء له كل المستلزمات والظروف النفسية والعقلية، والاجتماعية للشعور، والعمل على تحقيق التسامي في حياته، وفي سلوكه الفردي، والاجتماعي. فالتدين انفتاح على الغيب، وهذا الانفتاح على الغيب يقوم على أساس من الإيمان. وهذا الانفتاح والإيمان بالمبدأ والمعاد، والغاية من الخلق يرضي طموح الإنسان الدائم إلى معرفة هذا الغيب، ويطمئن الإنسان ويزيل عنه هذا القلق الذهني الذي يستمر مع الإنسان حتى يركن الإنسان إلى إجابة مرضية. فالمبدأ ـ في نظر الإنسان المتديّن ـ هو الله، والمعاد هو الله، والغاية من خلقه هو استخلاف الله على وجه الأرض، والتدرّج في مدارج الكمال في الحياة الدنيا. والإنسان المتدين تطمئن نفسه إلى هذا المبدأ، وهذا المعاد، وهذه الغاية عن إيمان وانشراح. وهو أشرف مبدأ، ومعاد، وغاية يمكن أن يتصورها إنسان.

وهذا الإيمان يوحي إلى الإنسان بكثير من الاستعلاء والتسامي، فهو اشرف كائن يعيش على وجه الأرض، ابتدأ وجوده من أشرف مبدأ، ويعود إلى أشرف معاد، ويعمل لأشرف غاية.

وحين يؤمن الإنسان بوجود غاية في خلقه، فمن الطبيعي ألا يفكر في حياته في غاية، غير هذه اللذة المؤقّتة، ولا يعمل من أجل غاية سامية، تتطلب منه التضحية ببعض لذّته، فضلاً عمّا لو كانت تتطلّب منه تضحية بحياته، ووجوده، ولا يجد الإنسان استجابة لطموحه اللامتناهي في غير العقيدة الدينية، كما لا يستطيع الإنسان توحيد مطامحه المتسامية، واهتماماته العالية، وتنسيقها في خط منهجي متماسك مترابط، كما يتاح له ذلك في ظل العقيدة الدينية. فإن العقيدة الدينية ترضي طموح الإنسان، وتنسّقه في خط رسالي واحد، لا نهاية له، ولا حدّ. فالسلوك إلى الله هو المسلك المتساوي اللامتناهي الوحيد بين اهتمامات

الإنسان الكثيرة. ولكل واحد من اهتمامات الإنسان، وتطلعاته نهاية إلّا هذه الغاية التي لا نهاية لها، والتي يجد الإنسان في سلوك كل مرحلة منها إرضاءً لاهتماماته اللامتناهية، وطموحه إلى الكمال، وتطلعه إلى الأعلى.

وفي هذا الطريق تنتظم القيم، والاهتمامات السامية في حياة الإنسان جميعاً فكل فضيلة في الحياة مرحلة من هذا الطريق، وكل قيمة من قيم الحياة والإنسان جزء من هذا السبيل، وموصل إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأي عمل يقوم به الإنسان من أجل الله وطلباً لرضوانه يكون عبادة وسلوكاً إلى الله، وكدحاً إليه، فلا تتبعثر اهتمامات الإنسان، ومطامحه السامية في خطوط مضطربة، متشابكة، وإنما تنتظم تبعاً في هذا الخط الواحد، لو كان يقصد بها الإنسان هذه الغاية في الكون.

فالدين ـ إذن ـ هو المجال الطبيعي الملائم لاهتمامات الإنسان وتطلعاته، وطموحه اللامتناهي، والمتسامي، ولا شيء في هذا الكون يستطيع أن يحلّ محل الدين في حياة الإنسان في إرضاء طموحاته واهتماماته، وضميره، ولا شيء يستطيع أن يحقّق شخصية الإنسان وكماله الإنساني الخاص به، وقيمته الحقيقية كالدين والإيمان بالله سبحانه وتعالى.

وعلى هذا: فالدين هو الذي يوحّد شخصية الإنسان، ويجعلها تعيش حياة مستقرة ومطمئنة، ويدفعها لطلب الكمال في تحقيق الذات وفي البناء الاجتماعي، وهو الذي يحفّز الإنسان بالتسامي على نوازعه الحيوانية، وضروريات حياته بوعي، وقصد.

هذا الإنسان الذي يصنعه الدين هو الإنسان الذي يتمتّع بكل شروط الرقي الإنساني، فالهدف هو خلق الإنسان المتوازن المتكامل، المتسامي. وهذا ما فعله الدين، وما الحضارات التي ابتدعها الإنسان إلّا صورة لهذا الإنسان. فإذا كان الإنسان متوازناً متسامياً مستعلياً، هادفاً ـ كما أراده الدين وصاغه ـ كانت الحضارة صورة منه. لهذا نرى أن أكثر الحالات الحضارية التي تقوم على أساس الدين هي حضارات إنسانية بما تفرزه من قيم ومفاهيم وبما تنتجه من مظاهر ماديّة ومعنوية، وبما تعبّر عنه من حالات وتحولات مفصلية في التاريخ الإنساني.

إن الحضارات التي هي من نتاجات الإنسان المتديّن تضمن بقاءها واستمرارها، وخلودها، لأنها تعبير عن حقائق إيمانية خالدة ومضيئة في حياة الإنسانية.

وحتى هذه الحضارات المادية الحديثة منها والقديمة لن يبقى منها إلّا ما يعبّر عن حقائق أصيلة، ودائمة، وخالدة، منبثقة من الشعور الديني، والسلوك المتسامي للمتدين، وللهدف العظيم للقيم التي يعبّر عنها الدين: إيماناً، وسلاماً، وتطوراً، ورقيّاً، وتقدّماً، فالهدف هو الإنسان المتكامل الذي يصنعه الدين، وليس المظاهر المادية التي لا تجلب للإنسان اطمئناناً عقلياً أو حياتياً، ولا ترسم له هدفاً أو غاية من وجوده. بل تجعله يتخبّط لاهثاً وراء إشباع حاجاته الضرورية، التي تهوي به إلى درجة الاضطرار.

القيم المشتركة بين الأديان

الأديان السماوية ـ تحديداً ـ صدرت عن فيض واحد هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ وقد نزلت بطريق الوحي للأنبياء والرسل ـ عليهم آلاف التحية والثناء ـ وكانت موجّهة إلى الإنسان الذي هو من خلق الله الذي خلقه على صورة واحدة ثابتة متمثّلة بالفطرة السليمة، والطبيعة الإنسانية النقيّة.

فعلى هذا: لابد من أن تكون الأديان السماوية مشتركة في قيمها، ومفاهيمها، وأحكامها، وتشريعاتها، وأهدافها. ذلك أن هناك ثوابت في الطبيعة البشرية ـ كما هي قوانين الكون ـ لا تتغيّر، ولا تتبدّل بتغيّر الأحوال والظروف والعصور. فالأديان السماوية راعت هذه الثوابت، وأقرّتها، وجعلت تشريعاتها وأحكامها وقيمها، ومفاهيمها ملبّية لهذه الثوابت، وناظرة إليها. وإذا رأينا أنّ هناك اختلافات تفصيلية في بعض الأحكام، والتشريعات فذلك عائد إلى واقعيّة الأديان في مراعاتها جوانب التطور، والتغيّر، والتحوّل في ظواهر الحياة، ومتطلباتها، فتأتي هذه الاختلافات التفصيلية ملبّية لحاجة الإنسان المادية، ونضجه العقلي، وتطوره الحضاري، ونظمه الاجتماعي. والدين لابد من أن يشتمل على أربعة عناصر أساسية، وهي:

1 - العقيدة: وهي مجموعة القضايا التي يؤمن بها الإنسان دون أن يتطرّق لديه شك فيها.

2 - الشريعة: وهي مجموعة التعاليم الدينية التي تتعلق بالعبادات والمعاملات. أي: أنها تتعلّق بالجانب العملي أو السلوكي من الدين.

3 - المقدّسات: وهي الموجودات والأمور المطهرة أو المتنزهة عما لا يليق بها من النقائص، وهي التي ينظر إليها الإنسان بشيء من الإجلال والرهبة، ولكل دين من الأديان مقدّساته الخاصة به من معابد، وكتب تشتمل على تعاليمه.

4 - العبادة: وهي القيام بأفعال محدّدة في أماكن وأوقات معينة تعبر عن طاعة الإنسان، وخضوعه، وتعظيمه للإله، أو ما يرمز إليه.

فإذا تعرّضنا لموضوع العقيدة، فسوف نجد أن جميع الأديان السماوية تلتقي عند الإيمان بوجود إله خالق للكون والإنسان، وتلتقي عند الإيمان بأنبياء لله ورسل، وتلتقي عند الإيمان بيوم المعاد، والحساب والجزاء، والثواب، والعقاب، وإن كان هناك اختلافات تفصيلية في هذا الإيمان، أو ذاك لظروف تاريخية، أو تأثيرات حركيّة، أو ضغوطات وانحرافات اجتماعية.

أما في مجال التشريع، فإن الأديان السماوية تلتقي عند خطوط عريضة عامة في التحليل والتحريم، والإباحة والمنع، منها: ما هو أصيل جوهري في صلب الدين، ومنها: ما هو عارض رُوعي فيه المرحلة التي يمرّ بها الإنسان: نضجاً، وتطوراً عقلياً، أو حياتياً فكانت اختلافات تفصيلية فرعيّة في الأحكام والتشريع في مجالات العلاقات الإنسانية، أو التعاملات التجارية، أو التنظيمات الاجتماعية. ولكن يبقى الهدف المشترك لكل الأديان قائماً وناطقاً بدور الدين في عملية تطوير الإنسان وإغناء حياته، وتكريس استقراره، وإدامة استمراره.

كما أن لكل دين مقدّساته ورموزه يعتزّ بها، وينزّهها عما لا يليق بها من النقائص كالأنبياء، والأولياء، والصالحين، والشهداء، وأماكن العبادة، ومراقد المقدسين، ومواضع الإقامة والمرور، وبقاع العيش والموت... وغير ذلك من الأمور التي يقدّسها أتباع كل دين، فهي تخضع لمعايير الأديان ومقاييسها، ومواصفاتها، وتصوراتها، وتتوجّه إليها مشاعرهم، وقلوبهم. فهذا موضع الالتقاء التقديسي الذي يعبّر عن حالة إنسانية مشروعة، ومقدّسة تتواجد في كل أديان السماء.

إن لكل دين من أديان السماء شعائره، ومراسمه، وطقوسه يعبّر عنها بأشكال مختلفة فالصلاة شعيرة دينية في كل الأديان يعبر عنها بأشكال متعددة

وبحركات معيّنة، وبقراءات، وتراتيل معلومة في كل دين. وكذلك الصوم في شكله ومدّته ومواقيته، وأيامه، وكذلك الحج... وعلى الرغم من هذا الاختلاف، لكنها تلتقي في الجوهر، وهو التواصل مع خالق الكون والإنسان، وباعث الحياة، وقابل التوبة، ومانح المغفرة، ومالك يوم الدين، هذا الالتقاء في الهدف ـ وهو التوجه بإخلاص لنيل رضا الله ورضوانه ـ يعبّر عن جوهر واحد هو عُبادة الله الخالق الموجد الرحمن الرحيم مرسل الأنبياء بالأديان هدىً ورحمة للعالمين.

أما أكثر ما تلتقي فيه الأديان، وتشترك فهي الفضائل الخلقية. فكل الأديان تدعو إلى الخير، وتنهى عن الشر بالمفاهيم الإلهية، فهي تدعو إلى الصدق، والوفاء، والتعاون، والتكافل، والعفو، والسماح، ومساعدة الضعيف، وإعانة المحتاج، وإغاثة الملهوف، ونجدة المكروب، والمشاركة الوجدانية الإنسانية... إلى غير ذلك من قيم الخير والمحبّة والاستعلاء تدعو إلى ذلك بدوافع إنسانية مجرّدة عن الطمع والانتفاع راغبة في نيل رضا الله الذي تعبده.

وتدعو الأديان ـ كذلك ـ إلى نبذ الشر، ومجانبة المكر، وإلى عدم الكذب والخيانة والغدر، وإلى الابتعاد عن الخطايا الجسدية، وإلى عدم السرقة واجتناب المحرمات... إلى غير ذلك من النهي، تطهيراً للنفوس، والأجساد، واطمئناناً للعقول والقلوب، وصولاً إلى رضا الله ورضوانه إنّ هذه الفضائل الإلهية، والأخلاق الدينية التي تدعو إليها الأديان جميعاً تعد مرتكزاً أساسياً للقاء بين أديان السماء، وتشكل قاعدة صلبة مشتركة لوقوف بني الإنسان عليها، لتنظّم الحياة الاجتماعية، والعلاقات الإنسانية. وهي القادرة ـ وحدها ـ على ضبط السلوك الإنساني، وتوجيهه التوجيه الصالح البنّاء. فالإنسان غرائز متضاربة، إذ هو جسد وروح، وشهوة وعقل، وقد تتعارض مطالبه، ومطالب المجتمع، فما الذي يضع للإنسان القواعد الأخلاقية السليمة؟

وما الذي يحدّد له سلوكه السليم؟

أهو الأخلاق؟

أم الفلسفة الأخلاقية؟

أم الدين؟

إن القانون ـ وحده ـ لا يكفي لضبْط السلوك الإنساني، إذ كثيراً ما يلجأ الإنسان إلى التحايل على نصوصه، ويطوّعها لأهوائه الشخصية. كما أن الفلسفة الأخلاقية لا تغني فهي متضاربة حيث إن كل فيلسوف له مذهب، وكل مذهب فلسفي له مقياس. فيبقى الدين ـ وحده ـ القادر على ضبط السلوك الإنساني، فقوّة الالزام في القانون الديني أقوى من إلزام القواعد الخلقية، بل أقوى من سائر القوانين المنظمة لعلاقات الأفراد والشعوب، إذ اتباع الفضائل صورة من الطاعة لأوامر الدين، وباب من أبواب القربان، والعبادات الإلهية.

ولما كان للدين هذه القوة الملزمة، وهذا التأثير البالغ، فعلى أتباع الديات السماوية أن يشيعوا قيم الدين، ويبشروا بها، ويلتزم بها. فعند ذلك تلتقي الإنسانية ـ جميعاً ـ على أسس مشتركة من القيم الخيّرة العادلة البنّاءة. ولعل في القيم التي جاء به الإسلام خير هادٍ للإنسان، فهي تلخّص كل قيم السماء، وكلّ ما دعت إليه الأديان، وهي منزّهة عن التحريف والانحراف، ومتعالية على الأنانية، نائية عن كل ما يشين إنسانية الإنسان، ولنا في رسول الله أسوة حسنة لمن آمن بالله واليوم الآخر.

الظواهر الواقعية وأثر الأديان عليها

بإمكاننا الزعم: إن للأديان أثراً في حياة الناس، وأنماط معيشهم وسلوكهم، ما لم يكن لأي فكرة أو فلسفة، أو نظام اجتماعي أو تصور عقلي. فللأديان ـ منذ أن وطأ الإنسان بقدمه على هذه الأرض ـ تأثير، لا يحدّ، ولا يوصف، ويستعصي على كل إحصاء، أو استقصاء.

فللأديان تأثير على الإنسان أولاً، وعلى ما أبدعه الإنسان وانتجه ثانياً.

فالأديان زوّدت الإنسان بقيم نبيلة، ومفاهيم خيرة، وأحكام نظّمت سلوكه، وتشريعات حدّدت علاقاته الاجتماعية، ومُثلٌ عليا حافظت على مقوّمات انسانيته، ولولا الأديان، لما كان للإنسان شأن، ولما بلغ هذا المبلغ من الرقي العقلي، والتهذيب النفسي، والتسامي الروحي الذي يدفع به إلى تحقيق الكمال والسعي إليه في شتى جوانب حياته، وكلما حافظ الإنسان ـ الذي هو من خلق

الله ـ على سلامة فطرته ونقائها كان ألصق بالدرب الربّاني الذي اختطه لمسيرته وصولاً إلى تحقيق هدفه في خلافة الله في الأرض، وإعمارها بكلمة التوحيد، التي تعني ـ فيما تعني ـ الانفتاح على كل قوى الخير، والعدل، والجمال، والتسامي.

إن كل الفلسفات الوضعية ـ منذ فجر التاريخ إلى يومنا هذا التي جعلت الإنسان هدفها ـ لم تستطع أن تقدّم للإنسان شيئا يذكر في شوط حياته، وفي مسيرة وجوده، وفي صيرورة خلقه، وفي كينونة تطلعاته فَقْدَ ما قدّمته الأديان على صعيد المثل والقيم والمفاهيم والأخلاق النظرية والعملية. بل يمكننا القول: إن هذه الفلسفات الوضعية على نحوين:

الأول: أنها تقتبس نورها، وتستمدّ وجودها من فهم خاص للدين ورسالته.

والنحو الآخر: أنها تعبير سلبي عن فهم خاطئ للدين ورسالته.

فهي في كلا الحالين امتداد أو انعكاس لحركة الدين والتدين، فهي لا تنفك عن ذلك بحال، لأنها تقدّم نفسها على أنها امتداد للدين، أو تمرد عليه، ورفض له، وبديلاً عنه في ملء الفراغ المتوهّم عن انحسار الدين، ودوره في حياة الإنسان. وحتى تلك الفلسفات التي تقف موقف النقيض من الدين كالماركسية، والوجودية الملحدة قدّمت نفسها على أنها البديل الغائب عن الدين في تفسير ظواهر الوجود، ومسيرة الإنسان.

كما أن كل الفلسفات الوضعية بمختلف مذاهبها ومناهجها العقلية، والحسية، والمدرسية، والتجريبية عجزت عن الإجابة عن الأسئلة الحائرة الخالدة التي يحتمل بها صدر المخلوق البشر، ولكنّ الدين بما لديه من قوة الحقيقة، وصدق التعبير استطاع أن يجيب عنها، ويحل كثيراً من إشكالاتها، ويوضح المعقّد من إبهامها. ويفصح عن الشائك من رموزها كما أن هذه الفلسفات الوضعية كانت أحادية النظرة، فلم تستطع أن تنظر نظرة شمولية إلى الإنسان، وتشبع تطلعاته، بينما نرى الدين استطاع أن ينظر إلى الإنسان نظرة شمولية واقعية فنظر إليه على أنه روح وجسد، عقل، ونفس، وروح، غرائز، وفطرة، حاجات مادية ومعنوية، فرد، ومجتمع. وكذلك نظر إليه على أنه جزء من كون رحيب فسيح لا ينفصل عنه بحال، ولا يستغني عن ارتباطه به مما أشعر هذا الإنسان

بقيمته، ومنحه الاطمئنان النفسي. والغنى الروحي، والاتساع العقلي، وهذا لم تحققه أي فلسفة وضعية تجعل نفسها بديلاً عن الدين.

ويقال مثل ذلك في النظم والأحكام والتشريعات التي سنّتها الأديان فهي ما تزال عاملة فاعلة في حياة الناس الفردية والاجتماعية، بل إن لها من القدسية والاحترام في النفوس ما ليس لغيرها، فضلاً عن الشمولية في التشريع والتطبيق، والقدرة على حلّ مشاكل الناس حلاً جذرياً مما يحافظ على النسيج الاجتماعي سليماً كريماً، وما التنظيمات الاجتماعية بدءاً من التنظيم الأسري إلى التنظيم الاجتماعي الواسع (المحيط الاجتماعي) إلّا نموذج من نماذج التشريعات الإنسانية الواقعية التي يندفع الإنسان إلى الالتزام بها عن قناعة وإيمان وتلقائية وقل مثل ذلك في نظام المعاملات، والحقوق والواجبات والثواب والعقاب...

أما الأثر الواقعي للأديان في الحياة المادية، فيتمثّل في حركة العمران التي تعبّر عن طبيعة الإنسان والأديان معاً فالمعابد التي تشاد والمساجد والكنائس بما فيها روعة البناء، ودقة الهندسة، تعبّر عن آفاق الروح التي غرسها الدين في الإنسان تلبية لنزعة حب الجمال والكمال. وما اقيم حول دور العبادة هذه من مظاهر العمران البشري وما يبذله المتدينون من أموال وجهود تكلّل عملهم بالتفوّق والإبداع.

وما هذا التقدّم العلمي، والانجاز التقني إلّا نفحة من نفحات الإيمان بالأديان، فهي المحرّك الأساس لقوى الإنسان العقلية والجسدية لانجاز ما أنجز، وإن خالطها شيء من تأكيد الذات، والرغبة في التفوق ويكفيك أن الحضارة الإسلامية هي من انجازات الإنسان الذي اتخذ الإسلام ديناً فطبعها بطابعه الفكري والروحي والانساني، وحسبك أن الحضارة الحديثة تقف على أعمدة تاريخية، الديانة المسيحية أهمها وأعمها وكذلك قل في سائر الحضارات الأخرى التي كان للدين - حتى غير السماوي منه - أثر في تكوينها وبنائها وإبداعها.

فالدين محرّك أساسي في حياة الإنسان، نرى أثره الواقعي في كل جانب من جوانب حياته، بل في كل زاوية من زواياها. فهو الهاجس الذي يحرّك الإنسان، ويشدّه إلى خالقه الذي أوكل إليه عمارة الأرض.

الحوار بين الأديان

إن الدّارس لتاريخ الأديان يجد أن سيرتها تبدأ بالدعوة إلى المحبّة والسلام، والتآلف والدعوة إلى التعايش، وتقديس الإنسان، واحترام إنسانيته وعقيدته، فالدين ـ أساساً ـ هو سلام مع النفس ـ بحكم الرضا بما قسم الله وقدّر وقضى ـ ثم ينسحب هذا السلام على الآخرين من خلال الالتزام بالحدود التي قرّرها الله ـ سبحانه ـ فهو لا يفعل ما يضر بالآخرين ولا ما يؤذيهم، ولا يتجاوز على حقوقهم وحرماتهم، وقناعتهم.

حتى الديانات الوثنية كالبوذية والكونفوشية والطاوية والهندوسية نجد فيها طقوساً تربي الإنسان على سلام مع النفس، مما يؤدّي إلى سلام مع الآخرين. ذلك أن الدين ـ في جوهره ـ حبّ الخير للآخرين، وتواصل معهم، وتعاون على البر، ودعوة إلى الخير ونبذ الشر قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عِمرَان: 104].

أما الإسلام، فهو دين المحبّة، والسلام، والتسامح، والعفو، وغفران الذنوب قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: 134]. والدعوة إلى السلام في الإسلام، لا تصدر عن ضعف، بل عن قوة وقدرة: عن قوّة نفسية إيمانية، وقدرة مادّية فاعلة. والسلام ـ في تربية الإسلام ـ يبدأ من النفس واطمئنانها بالإيمان قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: 28]. ثم يفيض على الآخرين ممن حوله الأدنى، فالأقصى، تبدأ بالوالدين والأقربين، لتنتهي بحبّ الناس جمعياً: وفي الحديث الشريف (خير الناس من نفع الناس)[1]، و (أفاضلكم أحسنكم أخلاقا الموطؤون أكنافاً الذين

(1) محمد الريشهري: ميزان الحكمة/ 1، 845.

يألفون ويؤلفون وتوطأ رحالهم)[1]، والألفة فعل اجتماعي يصدر من عمق إنساني إيماني.

ثم هناك مبدأ (التعارف) بين الناس الذي يقوم على مبدأ (الخلق) من أصلٍ واحد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحُجرَات: 13]، والتقوى جماع الفضائل الإنسانية التي قرّرها الله ـ سبحانه ـ والتي توصل إلى مرضاته، والله لا يرضي للإنسان إلّا عمل الخير، والكفّ عن الشر، وإشاعة السلام، وتوثيق أواصر المحبة، والتفاهم بين الناس جميعاً حتى هؤلاء الذين يختلفون معنا في الدين والرأي وقد قرّر الامام علي عليه السلام هذه القاعدة الإنسانية الوثيقة والعميقة فقال: ـ الناس ـ (صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق)[2]، وهذا من أرقى ما شرّع وقدّر في إشاعة الاخوة وتوكيدها وتعميقها بين بني الإنسان جمعاً في مختلف الأزمان والأصقاع، فهل نحن مدركون؟

الإسلام في احكامه، وأهدافه، وتربية أتباعه يدعو إلى السلام، ويجعل السلام من أوليات وسائله ومراميه، لأن الإنسان عنده هو القيمة العليا قال تعالى: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ﴾ [المَائدة: 32]، فهو لا يدعو إلى الحرب، والعنف، والمواجهات الدموية إلّا دفاعاً عن النفس، بل دعوته أساساً إلى السلام قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنفَال: 61]، وإن دعوته إلى الإعداد والاستعداد ـ إنما هي إظهار القوّة للردع، والترهيب كي يكون قوياً يخشاه العدوّ، فلا يطمع في أرضه وأهله فهو لا يبدأ الحرب، ويحاول أن يتجنّبها بكل السبل، لكنها إن فرضت عليه، فهو على استعداد للدفاع عن نفسه وأرضه، وأهله، وتجارب الفتح الإسلامي مواقف واضحة لحركة الإسلام الداخلية والخارجية، والحربية والسلمية، فهو لا يبدأ بالقتال، ويدعو الطرف

---

(1) الشيخ الكليني: الكافي/ 2، 102.

(2) نهج البلاغة: شرح الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده/ 3، 84.

الآخر المحارب إلى الدخول في الإسلام، وإلّا فعليه أن يدفع الجزية، فإن لم يفعل يكون له موقف آخر لِمن يقف في وجه انسياحه في الأرض ويصد عن سبيل الله، بل أكثر من ذلك نرى أن الإسلام وصل أصقاع وبقاع لم تطأها أرجل الفاتحين، ولم يُسَلَّ السيف عليها، وإنما هو الاقتناع بشريعة الإسلام لما فيها ملاءمة للفطرة، وانسجام مع طبيعة الحياة، وسماحة وانفتاح وهذا ردّ على من تقوّل على الإسلام بغير الحق.

وإذا رأينا بعض التيارات التي تدّعي الإسلام، وتتبنى العنف تعبيراً عن فهمها المنحرف عن الإسلام، فما هي من الإسلام في شيء، بل هي تعمل ـ بوعي أو بغير وعي ـ لتشويه صورة الإسلام النقية، وحقيقته الإنسانية، وحرصه على السلام، وسماحته ومرونته تجاه الرأي الآخر، بل نذهب أبعد من ذلك فنقول إن هذه التيارات التي تتبنى العنف مجنّدة من قبل أعداء الإسلام لتشويه الإسلام، وشقّ صفوف المسلمين، وإضعافهم، وخلق حواجز فكرية ونفسية بين الإسلام ومن يرغب في اعتناقه بتقديم صورة مرعبة عنه. وقد نجحت القوى المعادية للإسلام ـ بهذا الاسلوب ـ أن تعزل الإسلام عن الناس بعد أن رأت أن الناس حين تعرّفوا على صورة الإسلام الحقيقية دخلوا في دين الله أفواجاً، فابتدعوا هذا الاسلوب، وجنّدوا هؤلاء المتشدّدين للإساءة للإسلام وأهله عن طريق من يدّعي أنه من أهله.

إن هذه التيارات المتطرفة التي تسعى إلى تصفية الحسابات ـ بصورة بشعة ـ وتغذية النزاعات لأسباب سياسية أو مذهبية أو قومية، قلبت سلّم الأوليات، فوضعت العنف في مقدّمة الاستحقاقات والأساليب، وبذلك قلبت المعادلة، وجعلت مطلب السلام، ووسيلة الحوار في آخر سلّم الانفتاح والدفاع عن النفس و (الجدال بالتي هي أحسن).

شهد تاريخ الإنسانية القديم والحديث حروباً، قامت لدوافع دينية في العالم القديم والجديد، في أوروبا، وآسيا، وأمريكا وأفريقيا، وما زالت هذه الحروب تندلع بين وقت وآخر، بوعي، أو بغير وعي بأهداف نبيلة. أو أهداف خارجة عن الدين وأهدافه أساساً، وقد تحوّل بعضها إلى مجازر جماعية، وإبادة شاملة. . . وفي مقابل ذلك تنهض دعوات إلى السلام والحوار والتعايش بين الأديان والمذاهب والعقائد، فإن ذلك هو السبيل إلى حياة بشرية كريمة آمنة مطمئنة،

فضلاً عن كونه ـ بحدّ ذاته ـ هو دعوة إلى السلام، وفي جوهره محبة وألفة، وانسجام، وتسامح، وتعاون على الخير، وفعل المعروف، فإنْ فُهم الدين كذلك واتخذ الحوار سبيلاً لمدّ جسور التفاهم والانفتاح على الآخر، انتفت الحاجة إلى الصراع والاقتتال، وحل محلهما الفهم المشترك للدين، وطبيعته، وأهدافه خاصة ونحن نلمس أن الأديان جميعها وفي جوهرها هي دعوة إلى السلم والحوار، والتعايش والتفاهم، وأنّ كل دعوات الأنبياء المرسلين هي أوامر واضحة وصريحة بالحفاظ على الأرواح والممتلكات واتباع طرق الاقناع والجدل للوصول إلى فهم عميق وصحيح لمفهوم (الإيمان) فالإيمان يتطلب قناعات وقبولاً ورضىً، ولا يمكن أن يتحقق باستخدام القوة والعنف، أو القسر، والقهر، بفرض قناعات من الخارج. والمتدبّر لآيات القرآن يراه يزخر بأساليب الجدل والحجاج والاقناع على لسان الرسل والأنبياء واتباعهم، وأساليب الردّ والاعتراض على لسان معارضيهم. وهذا دليل صارخ على الحرية الفكرية التي تتمتع بها الأديان السماوية، ودليل ناطق على القوّة الروحية والعقلية التي يتصف بها الأنبياء والرسل. وعلى شجاعة الإيمان، وأحقيّته في التواصل مع العنصر البشري على مرّ العصور، وتعاقب الأجيال فهو وحده يحقق القناعات الفكرية التي يبغيها الحوار.

ولو اضطر الإسلام، والمسلمون إلى دخول حرب فإنها سوف تكون حرباً دفاعية، يدافع بها عن أرضه، ومصالح أهله وأرواحهم وأعراضهم وأموالهم، كما أنها سوف تكون حرباً (إنسانية) يعامل فيها الاسرى معاملة إنسانية، ولا يقتل فيها أعزل، أو مدبر، فيسقى العطشى الماء، ويطعم الجياع الطعام، وتعالج جروح الجرحى، كما لا يجوز الاجهاز على الجرحى، كما يستثنى الشيوخ والنساء والأطفال من أي عمل حربي، فلا يعاملون معاملة المحاربين، كما أنه حرّم قطع الاشجار، وهدم البيوت، وتخريب الزرع، وقتل الحيوان، فهو يحرّم استخدام ما يسمى اليوم سياسة (الأرض المحروقة) التي استخدمتها الدول المتحاربة في القديم والحديث.

إنّ الدارس لتاريخ الإسلام والمسلمين سوف يظهر له بجلاء إنسانية الإسلام وخصوصية التسامح في تشريعاته وفي تطبيقاته خاصة تجاه الديانات الأخرى ومعتنقيها، فقد عاملهم بالرأفة والرفق، واحترام عقائدهم وشعائرهم، ولم

يضطهدهم حتى في حالة قيام حرب أو صراع مع بعض الدول المسيحية، فهم في أمان وحمى الدولة الإسلامية لا يتعرّض لهم أحد بسوء، لهذا نرى أن كثيراً من اليهود والنصارى كانوا حين يتعرّضون للاضطهاد، وحرب الابادة ـ كانوا ـ يلجؤون إلى الدولة الإسلامية فيستظلون في حماها، ويندمجون في مجتمعاتها، وتجربة اليهود في بلاد الاندلس، فقد لجؤوا إليها هرباً من اضطهاد أوروبا المسيحية، وحين سقطت الاندلس بيد النصارى الاسبان لجأ اليهود إلى شمال افريقيا، وبعضهم لجأ إلى الدولة العثمانية فعاشوا في أمان.

والمسيحيون الذين يعيشون في العالم الإسلام الآن يتمتعون بالامتيازات والحقوق التي يتمتع بها المسلم بلا فرق أو تمييز، وإذا نظرنا إلى تاريخ البلاد الإسلامية، لرأينا اتباع الديانات الأخرى، قد ارتقوا المناصب الإدارية فكان منهم الكتاب والوزراء. وشغلوا المناصب العلمية، والفنية وكان منهم الأطباء والمستشارون، وبرزوا في مجالات العلم والمعرفة، فكان منهم المؤلفون في الأدب، والفلسفة والعلوم والطب.

إذن.. الإسلام بسماحته، والمسلمون بتعاملهم حقّقوا من انجازات الحضارة والتمدّن الشيء الكثير لاتباع الديانات الأخرى كما نرى ذلك الآن في بلاد الشام، ومصر وغيرها من بقاع الإسلام وإن حدثت بعض الاختراقات ـ هنا وهناك ـ لبعض حقوق الاقليات الدينية، فما ذلك إلّا لظروف شاذة ونادرة جداً، وبدافع الدفاع عن النفس، وحماية البلاد والعباد من شرور وأضرار كما حدث للأرمن ـ وهم رعايا الدولة العثمانية ـ ابان الحرب العالمية الأولى، فقد اصبحوا أداة بيد أعدائها، وخصومها، وأصبحوا طابوراً خامساً، يستنزف المسلمين من الداخل، ويتعاون مع أعدائها الذين يبغون بها شراً، ويسعون لتقويضها وهذا ما حدث فعلاً بعد أمدٍ قصير.

لا يخلو مبدأ فكري، أو نظام اجتماعي قديماً وحديثاً من حالات انتهاك لحقوق الإنسان، ذلك أن النظرية شيء والممارسة شيء آخر. وحتى في الديمقراطيات الحديثة نجد خروقات كثيرة لحقوق الإنسان رغم حرصها على هذه الحقوق ورصدها لكل اختراق، وملاحقتها لكل صغيرة وكبيرة تصدر من مسؤول كبير في الدولة أو موظف صغير فيها. وما يقال عن هذه الأنظمة الاجتماعية يقال عن الأديان السماوية، فإنها بحكم احتكاك دعاتها ومبلغيها بعضهم ببعض، لابد

أن تحدث هذه الخروقات، وهي ليست من الدين في شيء، وإنما هي اجتهادات خاصة، وممارسات ذاتية، قد تأتي عفواً من دون قصد أو تأتي بقصد وتصميم، وتخطيط فهي نتاج بشري، من قبل الذين يطبّقون تعاليم الدين، ويذهبون إلى خرقها بشكل متعمد أو غير متعمد لأسباب فردية أو قومية، أو ثقافية، أو اقتصادية. لكن هذه الانتهاكات لم تكن من جوهر الدين وتعاليمه بأي حال من الأحوال فالدين الحقيقي المنزّل من رب العالمين، حق لا باطل معه، وسمح لا تعصب فيه، ومترفّع عن كل الصغائر والدنايا، فهو يتخلّق بأخلاق مشرّعة ومنزّلة.

إننا لا نظن أن هناك اختلافات حادة وجوهرية تستدعي استخدام العنف من دين ضد دين آخر، ولا من مذهب ضد مذهب آخر، فإن هناك قواسم مشتركة وجوهرية بين الأديان جميعاً، تتمثل بالإيمان برب واحد خالق للحياة وبمنظومة من القيم والفضائل الأخلاقية التي توحّد بين المؤمنين اتباع الديانات، وكذلك الإيمان بالمعاد وأنّ الإنسان يثاب ويعاقب تبعاً لعمله وما كسب وما اكتسب، هذه القيم الإنسانية المشتركة والتي اتفقت البشرية على احترامها وتقديسها، والالتزام بها مما يوحّد هذه الديانات ويدفعها إلى السير في طرق مشتركة، ونحو هدف واحد. هو رضا الله سبحانه وتعالى، وإشباع حاجات الروح، وإراحة الضمير، وتحقيق المثل العليا ومما يزيد الأمر تماسكاً وتقارباً وتفاهماً بين كل الديانات.

إن هذه القيم الدينية، والفضائل الأخلاقية والتطلعات الإنسانية المشروعة اصبحت ـ اليوم ـ تشكل منظومة أخلاقية وحقوقية للمجتمع الدولي، تصون حقوق الإنسان ومنها حماية عباداته وطقوسه، وطرق أدائها، وتحفظ حريّته في التعبير عنها. كل ذلك يلغي كل مبررات الصراع، والاصطراع، ويحلّ محلّها كل أسباب التآلف، والتكاتف، والتفاهم، والتعاون لخلق هدف نبيل، هو جذب الناس إلى حظيرة الإيمان، والتبشير بالمثل العليا للإنسانية، والمساعدة في حل مشاكل الإنسان، والتخفيف من آلامه وتحقيق آماله.

إن المجتمع البشري بما يملك من قيم الخير والعدالة والإنسانية ومن رغبة في الأمن والاستقرار والسلام الاجتماعي، قادر على أن يعزل العنف، ويحاصره، ويضعف من فاعليته، وتأثيره، وخاصة ذلك العنف الذي يمارس باسم

الأديان، ويعطي لنفسه المشروعية الموهومة، فيقتل، ويدمّر، ويصنع الكوارث بعقل بارد، ونزعة مفتعلة. ومن سوء حظ البشرية أن النزعات المتطرفة موجودة في كل زمان ومكان، ومن جميع الاتجاهات، وهي حين تلاقي امزجة مؤهلة لقبولها، وحملها، فإنها تنقلب ويلاً وعذاباً ودماراً على المجتمعات الإنسانية، فتؤرّق ليلها، وتجعل نهارها جحيماً، وربما يكون الحوار، وعرض الأفكار، وتجريب الأساليب النفسية من وسائل كبح جماح العنف، ولجم المتطرّفين المهووسين بقيم تضادّ سلوك الدين، وأهدافه الإنسانية الخيّرة. إن معالجة حالة التطرف الديني وما يولّده من عنف يكون بفهم الدين فهماً إنسانياً يحقق أهدافه الإلهية الكريمة.

إن حوار الأديان أمرٌ ضروري، كما أنه اسلوب حضاري في التعامل مع المسائل العميقة، وحل اشكالات الحياة اليومية الطارئة. فإن الأديان تشكل جزءاً أساسياً في حياة البشرية لما لها من تأثير عميق في سلوكهم وتوجهاتهم وتفاعلهم مع ما حولهم. فلابد ـ والحال هذه ـ أن يحتك بعضهم ببعض في قيمهم وعقائدهم، وسلوكهم، وأهدافهم.

إنّ توحيد رؤية الإنسانية للكون والحياة، وطريقة التعاطي معهما وفق فلسفة ايمانية موحّدة، يوفّر على الإنسانية كثيراً من الجهد، والعناء والأموال والدماء، ويجعل جهودها متوجّهة نحو البناء، لا الهدم، ونحو إحياء القلوب وانعاش العقول، لا اماتتها وتخديرها. وخير وسيلة لذلك الحوار المبني على أسس سليمة، والساعي إلى أهداف قويمة والقائم على روح التسامح والهادف إلى كشف الحقيقة والإيمان بها. فعلى اتباع الديانات والمذاهب ومفكريها أن يتوجّهوا إلى مبدأ الحوار مع اخلاص النية لله سبحانه، وبذلك يبنون صرحاً للإيمان، ويختطون سعادة للإنسان.

إن الدكتاتوريات حالة شاذة في النظام السياسي والاجتماعي البشري، كما أنها حالة مرضية تطرأ على المجتمعات البشرية، فتعقب فيها تداعيات منها العنف في التعامل الفردي والسياسي والاجتماعي، وعلى مستويات متعدّدة. فالدكتاتوريات تتعامل مع محكوميها باسلوب التسلط والقهر الذي أداته العنف، وهي تشجع أساليب العنف ضد خصومها السياسيين، ومن الطبيعي أن العنف

يولّد عنفاً، خاصة إذا جعلته الدولة مبدأً سياسياً، وأداة لقمع خصومها، وتدميرهم. وقد مرّ العالم ـ ومنها بلادنا الإسلامية ـ بأنظمة دكتاتورية مدمّرة أهلكت الحرث والزرع، ومن تلك الدكتاتوريات دكتاتورية الشاه محمد رضا بهلوي في إيران، وصدام حسين في العراق، والقذافي في ليبيا، وموسوليني ـ قبلها ـ في ايطاليا، وهتلر في المانيا، وستالين في روسيا، هذه والدكتاتوريات اورثت العالم دماراً وخراباً في العمران والإنسان، وما زالت آثارها قائمة، وتداعياتها متفاعلة في الحياة والعقول والضمائر وقد استخدمت بعض الدكتاتوريات الدين أو المذهبية سلاحاً لإثارة العنف والاقتتال، إشغالاً للناس عن تسلطها وقهرها، وتحقيقاً لأهداف سياسية دنيئة، وما تجربة الاقتتال الطائفي في العراق إلّا واحدة من الدلائل والوسائل التي اجترحتها هذه الدكتاتوريات لهدم التجربة الجديدة في العراق التي تهدّدها وجودها ومستقبلها.

إن التجربة الديمقراطية في العراق ـ وهي من أعسر التجارب ـ يمكن أن تكون عامل استقرار وتنوير في المنطقة لإقامة حكم القانون، ومراعاة حقوق الإنسان، وتمكين اتباع جميع القوميات والأديان والمذاهب بممارسة دورها، والمشاركة في خلق القرار السياسي الصائب الذي يحفظ حقوق الجميع الدينية والمذهبية، لهذا حوربت بعنف بهدف إسقاطها، وتكريس التفرقة بين أبناء الوطن الواحد. والاقتتال بين الاخوة. وقد أدى العنف المسلط من قبل قوى خارجية إلى الحاق الأذى البليغ بالعراق وأهله ومصالحه، وأحدث شروخاً عميقة في النسيج الاجتماعي العراقي، وفي البنية التحتية العراقية، لكن الغيارى من العراقيين مما لهم وطنية صادقة ودين قويم، تصدوا لهذه الظاهرة فحاصروها، وخنقوها وهي على وشك الموت.

إن الإسلام الذي يدعو إلى المحبة والسلام والعدل والمساواة، واحترام الآخر، وتقديس الرأي، يرفض الأنظمة الدكتاتورية، ويعلي من شأن الإنسان، وقيمه الخيرة ومبادئه السليمة، لكي يقيم مجتمعاً قائماً على المحبة والتسامح والتعاون والمؤاخاة، ويعتبر الدين قاسماً مشتركاً بين الناس، والإنسانية قاسماً مشتركاً آخر أوسع بين البشر. وذلك مصداق قول علي عليه السلام: الناس صنفان: إما أخٌ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق.

مما يهيئه الإسلام لمعتنقيه تربية صالحة، ينشأ عليها، ويقوّم نفسه: مشاعر،

وأفكاراً، وسلوكاً. وقد جعل العبادات الشرعية كالصلاة، والصيام، والحج. . . أدوات لهذه التربية، وعوامل توجيه، للإنسان المسلم، تروّضه، وتعلّمه، وتدعوه إلى مراجعة نفسه، وسلوكه وعمله ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم، توجّهه إلى تعاليم الإسلام، وأخلاقياته، ومثاليته التي تبغي بناء الإنسان المسلم الذي يمتاز بروحانية عميقة، ونفس صافية، وفهم قويم، وتعاطف مع من حوله، ورأفة، ورحمة، وتوادّ. وهذا معناه البعد عن كل فعل شائن يجرح دينه، ويسيء إلى انسانيته، ومنها فعل (العنف)، الذي هو نقيض الإيمان، ونقيض السماحة الإسلامية، ونقيض الفعل الإنساني المبني على الرحمة والتوادّ الذي دعا إليه الإسلام.

إن العنف الذي نراه اليوم، والذي تقوم به جماعات تدّعي الإسلام، ليس من الإسلام في شيء، وهو دخيل على الحياة الإسلامية، وعلى الخلق الإسلامي الكريم، هذا العنف الذي يمارسه البعض باسم الإسلام هدفه الإساءة إلى الإسلام، وتشويه مفاهيمه الخيّرة، وخلق فجوة عميقة بين الإسلام الذي جاء رحمة للعالمين وبين الناس. فلا عجب أن نرى اليوم كثيراً من الناس الذين لم يتعرفوا على حقائق الإسلام وكمال دعوته ومراميه، يرمون الإسلام بكل التهم الشنيعة، التي يبرأ منها الإسلام، وبهذا حقق هؤلاء الجناة هدف أعداء الإسلام، فعزلوه، وحاصروه، ومنعوه من أن يكون وسيلة خير وتوحيد ورحمة للناس أجمعين. فالإسلام هو السلام: سلام مع النفس، وسلام مع الآخرين. هذا السلام الذي يوفّره الإيمان، ويعمقه الفهم السليم.

إننا بعد كل هذا ندعو:

أ - إلى حوار حضارات يقوم على روح الدين ومفاهيمه، بدلاً من صراع حضارات.

ب - كما ندعو إلى تشكيل مجلس عالمي للأديان، تكون له فروع في كل العواصم والمدن الكبرى لتوعية اتباع الأديان بضرورة احترام القيم المشتركة بين الأديان.

ج - كما ندعو إلى عقد اجتماعات وندوات ومؤتمرات مشتركة تعرض فيها الأفكار والأهداف والخطط المشتركة التي تهدف إلى فهم مشترك للدين، ودوره في حياة البشرية.

د - كما نحث وسائل الاعلام العالمية: المسموعة، والمقروءة إلى تبني مسألة حوار الأديان، وحوار الحضارات التي تحترم الأديان، وتراها جزءاً من مكوّناتها الأساسية، وبذلك يكون التكامل، لا التعارض.

هـ - كما ندعو إلى تنظيم زيارات وعلى مستويات مختلفة من رجال الدين والمفكرين والمثقفين، ومن اتباع الأديان المتعددة إلى المراكز الدينية العالمية للتعرف على ما لديهم، ولتحقيق التقارب والتآلف.

الإسلام... وحوار الأديان

الحوار ـ كما يدل عليه لفظه ـ يتضمن جانبين أو أكثر من التخاطب وذلك بحسب تعدّد الأطراف المحاورة، وتنوعها. ومن أجل عرض الأفكار والقيم والغايات التي يسعى إليها أطراف الحوار يقوم هذا التخاطب. ولأجل تحقيق التبادل المنطقي والمفيد لهذه القيم والأفكار والتصوّرات يأتي الحوار بين الأطراف.

ويعتبر الحوار أحد القيم الأساسية في المجتمع المدني القائم على احترام الاختلاف باعتباره يشكّل التعدّدية اللازمة لقيام هذا المجتمع.

إن البشرية في سيرها التكاملي تلاحمت وشائجها، وتداخلت مصائرها، وتشابكت مصالحها، فكان لابد من اجتراح أساليب جديدة، ووسائل مفيدة لتحقيق التعايش، وإيجاد حالات من التكيف والإنسجام. وكان من هذه الوسائل: الحوار، الذي أصبح من الوسائل المهمة على جميع الأصعدة والمستويات. لذا أصبح من الضروري البحث عن حلول لهذه المشاكل، والحوار يعبر عن الحالة الحضارية المتسامية التي تحياها الإنسانيه اليوم.

ومن هنا يمكن القول:

إن الحوار قد أصبح من الضرورات المهمة التي تعيشها الإنسانية للتغلب على مشاكلها. وبالحوار المنفتح وحده نهرب من اللجوء إلى السلاح ونحتكم إليه في حل جميع المشاكل، وفض الاختلافات، وحقن الدماء في صراع غير مجدٍ ومفيد.

ومن شروط نجاح أي حوار على أي مستوى: لابد من تحقيق المساواة التامة بين طرفي الحوار في كل مايتعلق بالحوار المراد إجراؤه، فلا يحمل طرف عقدة التفوق، ويستشعر الطرف الآخر بمركب النقص. كما ويقتضي الحوار أن

تكون هناك قضية محددة العناصر يتحاور أطراف الحوار بشأنها، حتى لايدور الحوار في حلقة مفرغة، وكل من الطرفين يتحدث عن قضية مختلفة، وبمفاهيم مختلفة، وبلغة تختلف عن لغة الآخر. ويتطلب الحوار تحديداً واضحاً لأهدافه حتى تكون هذه الأهداف خارطة طريق للمتحاورين، وهذا أمر ضروري إذ بدونه لايصل المتحاورون إلى أي نتيجة. ولابد من تحرير النفس من أي عقد ومشاكل نفسية، فالنزعات الاستعلائية لها خطرها في أي حوار.

وإذا أريد النجاح لأي حوار، فلا يجوز أن تكون غايته العمل على إلغاء الآخر، أو التقليل من شأنه، أو الادعاء بالأحقية من دونه. وليكن شعار المتحاورين أنا على صواب. وأحتمل الخطأ، وأنت على خطأ وتحتمل الصواب.

إن القارئ للقرآن الكريم، المتدبر والمتمعن في آياته، يراه حافلاً بالحديث عن الأديان، وعقائدها المتنوعة، وعرضها بدقة، وإحاطة، وحيادية، حتى يمكن عده المصدر الأساس، والموثوق في التعرف على هذا التنوع الإنساني في مجال الدين والعقيدة، متسامياً عن الانحياز، والتجريح، والتشكيك، وذلك للوصول إلى كلمة سواء تجمع الناس في طريق واحد، وعلى صعيد واحد بمنأى عن النزاع، والصراع، وإلغاء الآخر.

ولكي نقف على منهج القرآن الكريم ـ وهو المصدر الأول لمعرفة الإسلام وقيمه ومفاهيمه ـ لابد لنا من إستعراض مفهومي الدين والإسلام، ودلالتهما من خلال القرآن الكريم ـ بشكل إجمالي ـ لكي نتعرف من خلال ذلك على نظرة الإسلام للأديان الأخرى، وطريقة التعامل معها حواراً، ومعايشةً، ومكاشفةً وتوحيداً للجهد الإيماني لأتباع هذه الأديان.

وبالرجوع إلى المصادر الفكرية التي تعرضت للدين، وللمقارنة بين الأديان ودراستها نجد أن لكلمة (الدين) معاني متعددة منها: الملك، العز، الإحسان، العبادة، القهر والسلطان، التذلل والخضوع، الإسلام والتوحيد.

أما معناه ـ الاصطلاحي ـ عند المسلمين فهو: (وضع الّهي يرشد إلى الحق في الإعتقادات، وإلى الخير في السلوك والمعاملات بمايحقق للناس سعادة الدارين).

أما الدين عند الغربيين الذين يؤمنون بوجود الله، فهو ـ كما يقول شيشرون ـ (الرباط الذي يصل الإنسان بالله).

وهو عند الفيلسوف الالماني (كانت): (الشعور بواجباتنا من حيث كونها قائمة على أوامر الّهية).

كما يطلق لفظ الدين في القرآن الكريم ـ بمعناه العام ـ على الإعتقادات الوثنية، كعبادة الأوثان، أو عبادة الحيوان، والنبات، أو قوى الطبيعة. كما يطلق على ديانات اليونان، والرومان، والمصريين القدماء، والزرادشتية، والبوذية، ذلك أن القرآن سماها ديناً بالمفهوم العام. قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: 85]. وقال تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافِرون: 6].

أما الإسلام: فهو في معناه اللغوي: الإنقياد، والخضوع، والإستسلام. كما أنه في معناه الاصطلاحي وفي التعبير القرآني، إسم للدين المشترك، الذي صرح به جميع الرسل والأنبياء، فنوح عليه السلام يخاطب قومه ويقول: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يُونس: 72]. ويوصي يعقوب عليه السلام بنيه فيقول: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البَقَرَة: 132]. وموسى عليه السلام يخاطب قومه فيقول: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يُونس: 84]. والحواريون يقولون لعيسى عليه السلام: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: 52].

الإسلام هو الخضوع والإنقياد لله تبارك وتعالى، بإقرار وبإيمان واثق واطمئنان بكل ماجاء من عنده: توراةً، أو إنجيلاً، أو زبوراً، أو قرآناً من دون إعتراض على حكمه، ومن دون تفريق بين كتاب وكتاب من كتبه، أو رسول ورسول من رسله، أو نبي ونبي من أنبيائه قال تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البَقَرَة: 136].

فالإسلام تلخيص وتهذيب وتكميل لما جاء قبله من شرائع وأديان. فالأديان السماوية جميعها ـ كما الإسلام ـ صدق وعدل، وبعضها يصدّق البعض الاخر، وهناك مشتركات عقائدية بينها كالإيمان بالله، وبالنبوة، وباليوم الآخر، كما أن هناك قواسم في الفضائل والأخلاق، وهناك توافق ببعض تفصيلات التشريع

وعموميته. وقد مثل النبي ﷺ في بعض حديثه الأديان السماوية والإسلام بالبناء المتراص فهو ـ ﷺ ـ يقول: (إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويعجبون بها ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم الأنبياء)[1].

ومن المعلوم ومما لا ريب فيه، أن الأديان حين تنزل يراعى في تنزلها مرحلة النضج الحضاري والعقلي والنفسي، والمرحلة التاريخية التطورية التي تعيشها، فيأتي الدين ملبياً لحاجة الإنسان في هذه المرحلة أو تلك. وهذا يعني التدرج في التشريع، والتصحيح في فهم الشريعة وطرق ممارستها وتطبيقها مما يمكن أن نطلق عليه (عمليه التكميل في التشريع). وهذا يعني أن الشرائع اللاحقة تكمل الشرائع السابقة، وتصحح فهم معتنقيها، وسلوكهم كما حدث في الإنجيل الذي جاء ناسخاً لبعض أحكام التوراة، كما ورد في القرآن الكريم على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران: 50].

إننا نقرّر جازمين أن هناك أموراً مشتركة بين الأديان السماوية، لا تتغير، ولا تتقاطع، ولا تهتز، وهي:

1 - الإيمان بالله والملائكة والرسل والكتب المنزلة.

2 - الإيمان باليوم الآخر والحساب والثواب والعقاب.

3 - مدح الفضائل وذم الرذائل.

4 - وجوب إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم والعبادة. وهذا في الجملة، وليس على وجه التفصيل.

5 - التسامح والرحمة والايثار والإحسان.

وعلى هذا يمكن القول: إن الحوار الديني ـ بالمعنى المشترك للدين ومفاهيمه ـ لابد من أن ينطلق من الإحترام المتبادل، ومن نظرة إنسانية شاملة تقوم على احترام الكرامة الإنسانية، ووحدة الجنس البشري، وانتفاء الأنانية،

(1) ابن شهراشوب: مناقب آل أبي طالب/ 1، 198، المطبعة الحيدرية.

والفهم المتبادل بمعنى التسليم بحق كل طرف في أن يكون مفهوماً من الطرف الآخر دون أي لون من ألوان التشويه، أو التزييف.

والإسلام بحكم سماحته،وأحقيته، وثقته بعدالة عقائده وأحكامه وهادفيته، فهو دعوة للناس جميعاً، كانت الدعوة إلى الحوار صادرة عنه. فالحوار وسيلة من وسائل عرض عقائده وإيصالها إلى الآخرين، وتبليغهم بأحكامه ومفاهيمه، فهو يدعو **أهل الديانات إلى الحوار على أساس متين**. يقول تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًۭٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًۭا مِّن دُونِ ٱللَّهِ...﴾ [آل عِمرَان: 64].

ويتمتع الإسلام ـ دون غيره من الأديان ـ بميزة خاصة هي كونه يؤمن بكل الديانات السماوية السابقة، ويرى نفسه امتداداً لها، وتكميلاً لدورها في الحياة. وهو يعترف بكتبها وانبيائها ويدعو إلى نفس عقائدها ـ كما أنزلت ـ ويدعو إلى ذات احكامها وتشريعاتها الجوهرية، ويحث على الإلتزام بفضائلها الخلقية. مما حلّ كثيراً من الإشكالات الفكرية والتاريخية، وحرر معتنقيه من كثير من الحساسيات والأمور النفسية، والأحكام المسبّقة التي تعكر صفو الحوار، وتفسد شفافيته.

وقد أقرّ الإسلام ـ وهذه ميزة إيجابية في أي حوار ـ قاعدة المساواة التامة بين المحاورين، مما يوفر أرضاً صلبة وصالحة لقيام أي حوار ايجابي. فمن أجل قيام أي حوار مثمر، وتعاون وثيق بين الجماعات البشرية، دعا إلى ضرورة تعرف كل من طرفي الحوار على الآخر والوقوف معاً على قاعدة المساواة فهم من أصل واحد (آدم وحواء) وجعلهم شعوباً وقبائل (للتعارف) ولا فرق ولا تمايز بينهم. فإن التفاضل بينهم مبني على مبدأ (التقوى) قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍۢ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًۭا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحُجرَات: 13].

(تشير الآية المباركة إلى جملة من الحقائق الإنسانية:

أولها: اتحاد الإنسانية من حيث المصدر، فالجميع خُلِقوا من ذكر وأنثى (آدم وحوّاء).

ثانيهما: الجعل التكويني للتنوع الإنساني، فالذي خلق هو الذي جعل خلقه (شعوباً وقبائل).

ثالثها: الفاعلية الإنسانية كعلّة لهذا التنوع.

رابعها: حقيقة التعارف لحل إشكالية الخلاف، وإنهاء الصراع والنزاع (لتعارفوا).

وخامساً: حقيقة الكرامة التي تحقق بالتقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحُجرَات: 13] فالتقوى ـ في المفهوم الديني ـ عنوان جامع لكل القيم العليا، والمبادئ والفضائل، واستحضارها في ساحة العمل، والسلوك)[1].

وقد وفّر القرآن الكريم في هذه الآية المباركة المناخ المناسب للحوار، وأبرز المعنى الإنساني العام لطبيعة الإسلام، فهو يدعونا أن نتعرف إلى إنسانيتنا والذي يقودنا إلى التعرف على وحدة النوع والأصل، فهو يكرس الأخوة بين إفراد البشرية ويرسيها على قاعدة صلبة ثابتة تنفي كل تمايز وإختلاف وشعور بالتعالي أو الاتّضاع. أما هذا الاختلاف الذي نجده في اللون، والجنس، والعنصر، فهو اختلاف شكلي لاقيمة له، يسقطه ويلغيه بمفهوم التقوى الذي هو ميزان الإيمان والتفاضل. فالاختلاف في جزئيات الحياة وشكلياتها يجعله الإسلام منطلقاً للتعارف والتآلف لامدخلاً للنزاع والشقاق. وهذا أمر يوفر المناخ المناسب لقيام حوار مثمر يستوعب الجميع ويحتويهم.

وأمر آخر أعلنه القرآن الكريم، وكرّسه لإنجاح أي حوار وهو أنّه رسم الأسلوب الأمثل الذي ينبغي إتباعه في الحوار، فضلاً عن الالتزام بأدب الحوار وذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوٓا أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العَنكبوت: 46].

ولم يوجه القرآن الكريم إلى أدب الحوار مع أهل الكتاب فحسب بل تجاوزه إلى الحوار مع غيره من كافرين ومشركين ومنافقين، فوجّه أن يكون الجدال معه بالالتزام بكل آداب الحوار الإسلامي المستند إلى احترام الإنسان

(1) لاحظ لهذه النقاط مفصلاً: حسين درويش العادلي: الإسلام والتعايش السلمي بين الأديان والقوميات المختلفة/ بحث مقدّم إلى مؤتمر (يد بيد ضد الإرهاب) الذي عقد في فينا عام 2006م.

وعقيدته أو مايسمى بالرأي الآخر. قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾ [النّحل: 125]. فالدعوة إلى الإسلام يجب أن تكون بالحكمة والتعقل والبرهان والدليل، وتكون مغلفة برقة الأدب، ولياقة الخلق الكريم، والتذكير بنعم الله، وصدق القول، وحكمة التشريع.

وقد وجه القرآن الكريم ـ كتاب الإسلام الخالد ـ أن يكون الحوار منطلقاً من الأرضية المشتركة، والقواسم المشتركة بين الأديان. فالديانات السماوية ـ كما أسلفنا القول ـ كلها تؤمن بوجود إله خالق لهذا الكون، كما وتؤمن بالحياة الأخرى بعد هذه الحياة، كما توحد بينها منظومة القيم الأخلاقية والفضائل الإنسانية. وهذا مما يسهل عملية الحوار، ويبعث الثقة بين المتحاورين، ويقرب الفهم فيما بينهم لكثير من الظواهر، ويجعل نظرتهم الى المشاكل الطارئة وأسلوب حلها متقارباً إن لم يكن موحَّداً.

والأفضل في أي عملية حوار الابتعاد عن البحث في مسائل العقيدة التي هي من عالم الغيب لعجز الوسائل العقلية والمادية عن حسمها، فهي مسائل شائكة امتد الحوار فيها قروناً وقروناً زادت الفجوة بسببها بين الأديان، ولم يحصلوا على نتائج مقنعة لكل الأطراف لتمسك كل طرف بنصوص مقدسة قابلة للتأويل والفهم الغامض. (وهذا يعني إن الحوار حول مايجمع أصحاب الأديان من قيم مشتركة هو أفضل السبل لتفهم كل جانب للآخر. وعلى هذا النحو يمكن القضاء على الكثير من أشكال الصراعات الدينية في العالم، وتحقيق السلام بين الأديان الذي يعد شرطاً لا غنى عنه لتحقيق السلام بين البشر)[1].

وينبغي أن نفهم ـ كما يذكّرنا القرآن الكريم ـ إن الأديان جميعها تدعوا إلى عبادة الله وتطبيق أحكامه ـ التي جاء بها الأنبياء ـ على الأرض، وتحقيق إنسانية الانسان، وجلب السعاده له بربطه بين أداء واجباته تجاه نفسه واتجاه أخيه الإنسان وإيمانه بالله سبحانه. فهدف الأديان واحد وهي تكريس خلافة الإنسان لله من خلال عبادته، وسلوك الطريق الذي يرضيه. وفي هذا فليتنافس المتنافسون.

(1) محمد عادل التريكي: الحوار بين الأديان/ الحوار المتمدن، العدد: 2812، 27/ 10/ 2009م.

وليس هدف الأديان التنافس على متاع الدنيا، وعلى مكاسب، وغنائم ومظاهر دنيوية، مهما كانت الذرائع والمسوغات. فالله سبحانه يقول ـ موضحاً هذا الهدف: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المَائدة: 48].

إذن الهدف هو استباق الخير، وفعل الخير الذي حث الله على فعله.

ولا يكون الحوار مجدياً محققاً هدفه إلا إذا استبعد المتحاورون كل عوامل الكراهية المتراكمة، وكل العقد السوداء المتوارثة من أزمان الصراع، من النفوس والذاكرة وعدم إثارتها. بل يجب زرع قيم ايجابية بدلاً منها، والتذكير بمواقف الحب والألفة والوحدة، فيما مرَّ عليهم من أحوال وظروف.

ويجب إبراز أدوات التبادل المعرفي، والتواصل الحضاري، والتكامل الإنساني والمجتمعي بينهم. وهذا وحده هو الذي يبني الثقة، ويمهد السبيل لحل ايجابي يكون أداته الحوار لتحقيق خير الجميع بطاعة الله وسعادة الإنسان.

التعايش بأمن وسلام مع مختلف الأديان

الاختلاف سنة الحياة، ولولا الاختلاف لما كان هنالك إبداع، وتجدد، وإضافة، والاختلاف في الخلق أمر مقبول، والاختلاف في مظاهر الطبيعة دليل تنوع، ولمسات جمال. وكما يكون هناك اختلاف، يكون هناك اتفاق، وما بين حالتي الاتفاق والاختلاف لون من الانسجام، والتعايش، والتواؤم.

وهكذا في الفكر و العقيدة والدين. فقد يختلف الإنسان في كل ذلك مع أخيه الإنسان، ولكنه يلتقي معه في التعبير عن الحالة الإنسانية العامة إذا فهم دور العقيدة في حياة الإنسان، وإذا وعى دور الدين في حياة البشرية، وإذا تيقن أن الاختلاف في تفاصيل الأحكام الدينية، وممارسة شعائره، لا يعني الافتراق، بل يعني الاتفاق للتعبير عن حاجه روحية وعقلية، لابد من إشباعها لتتكامل شخصية الإنسان، ولتسامى مسيرته في الحياة.

وعلى هذا يمكن للإنسان إن يلتقي مع أخيه الإنسان مهما كان دينه وعقيدته ـ إذا تفاعل مع المقاصد السامية للدين ـ وأنه وسيله للوصول إلى الحقيقة المطلقة، وأنه أداة لتفجير إنسانية الإنسان. وأنه سبب لتكامل وعيه لعلة وجوده، ومركزه في هذا الكون الفسيح.

إن الدين يبقى عامل توحيد لا فرقة، وعامل سلام، لا احتراب، وعامل تعايش، لا اقتتال، إذا فهم على أنه يمثل رسالة الله إلى الإنسان، ويمثل جوهر الوجود الكوني، وصيرورته وتكامله. وبهذا يلتحم الإنسان بما خلق له من دور وهدف ورسالة.

إذا تحقق ذلك، فإن الدين ـ عندئذ ـ يؤدي رسالته، كما أراد لها الله، وإنّ الإنسانية، تؤدّي دورها في إعمار الأرض بكل قيم الخير، والإيمان والجمال، كما أراد لها خالقها الله ـ رب السماوات والأرض. وحينئذٍ تتطابق رسالة الدين

مع مهمّة الإنسان، فيكون السلام الذي أراده الله لهذه الأرض لكي يتمّ نوره ولو كره الكافرون.

الصراع بين الأتباع لا بين الأديان

وإذا استعرضنا التاريخ البشري، نجد أن هناك صراعات ونزاعات قامت بين الحين والحين بين أديان سماوية، وأديان سماوية، وأديان سماوية، سماوية مع غيرها. والحقيقة أن هذه الصراعات والنزاعات لم تقم بين الأديان ذاتها ـ ذلك أن جوهرها واحد، وهدفها واحد، وسبيلها واحد ـ وإنما هذه الصراعات والنزاعات قامت بين أتباع هذه الأديان لجملة أسباب منها:

* القصور في فهم الدين، ورسالته في الحياة.

* أو الانحراف في فهم الدين، لتحقيق أغراض ضيقة شخصية أو فئوية أو سياسية، يكون الدين فيها قناعاً تتقنع به هذه الأغراض.

* وقد يتخذ الدين طابعاً تحالفياً بين العقيدة والسياسة لتحقيق أغراض لا تخدم الدين، ولا تحقق الهدف من إنزاله كالتحالف الذي قام بين الاستعمار، وحركات التبشير المسيحي، أو التحالف الذي قام بين الحركات المتطرفة، وبعض الحكومات الإسلامية لتحقيق أهداف توسعية، أو لتنفيذ أجندات مشبوهة تشق صف المسلمين، وتشوه صورة الإسلام.

وهذه الصراعات ليست جديدة، وإنما هي قديمة قدم الأسباب التي دعت إليها، ومازال الدين ـ بالمفهوم الدنيوي ـ مدعاة للخلاف والاختلاف تحقيقاً لمصالح ضيقة تتنافى مع قيم الدين ومثل الإنسانية.

إن على علماء الأديان ـ أساساً ـ وعلى أتباعها ـ تبعاً ـ أن يتساموا على غرائزهم، ومطامعهم، ومصالحهم، ونظراتهم الواحدية في تعاملهم مع بعضهم، وفي فهمهم لرسالة الأديان، وفي تقديم هذا الفهم لأتباعها من الناس. فإن في سماحة الدين، وإيجابيته، متسعاً لكل الإشكالات الفكرية، والاجتماعية والسياسية، وفي فضّ كل النزاعات المفتعلة، أو المتوهمة. وإذا تنازع بعض رجال الدين على مساحة يكسبونها هنا أو هناك لهذا الدين، أو ذاك، فإنهم في

تنازعهم هذا مخطئون لأن أي مساحة يكسبها هذا الدين أو ذاك، فإنها للأديان جميعاً تنتزعها من تيارات الكفر والإلحاد والانحراف، والرذيلة التي تنكرها الأديان جميعاً.

السياسة ودورها في إثارة النزاعات الدينية

والذي نريد أن نؤكده إن للسياسة دوراً خبيثاً في تأجيج النزاعات الدينية لتحقيق مآرب سياسية خبيثة. فالسياسة مصالح، وليس للسياسة مبادئ، والسياسة مكاسب وقتية، وليس للسياسة أخلاق، والسياسة أمر دنيوي وليس للسياسة مطامح أخروية. والسياسة كثيراً ما اتخذت الدين وسيلة لتحقيق مصالحها، ومكاسبها الضيقة، والسريعة. وبهذا تلوث السياسة الدين، ويصح القول الشائع (ما دخلت السياسة في شئ ألا أفسدته)، ولا يعني هذا أن الدين يجب أن ينفصل عن السياسة في حياة الناس بل يعني إن الدين يجب أن يحذر من الالتباس بأحابيل السياسة، ويستخدم أساليبها الخادعة، ويتخلق بأخلاقها. ويعني أيضاً أن على الدين أن يؤثر في السياسة ويوجه أهدافها للخير وللمصلحة العامة، وان تتوسل السياسة بوسائل الدين النزيهة، وتتخلق بأخلاقه عملاً لإسعاد المجتمعات، وإصلاح أحوالها.

وعلى الرغم من ذلك كله نرى بعض السياسيين استعانوا بالخلافات الدينية وتشبثوا بها وعمّقوها لتحقيق مآرب سياسية فأججوا نيران النزاعات، وأثاروا الصراعات، كما نرى اليوم في العراق فالمصالح السياسية للحكام والدول أججت النزاع الطائفي، وأباحت الدم المسلم لتحقيق أهداف ضيقة خبيثة تحفظ للحكام مراكزهم وللدول الكبرى مصالحها. وما نراه في لبنان من انشقاقات وإصطفافات مذهبية أو دينية أو طائفية مثلٌ آخر لما تفعله السياسة بالمجتمعات المتوحدة بقوة الوطنية، والمصالح المشتركة، والمصير الواحد. وهذه النزاعات المفتعلة لا يتحمل مسؤوليتها الدين - لأنها ليست من الدين في شئ - وإنما يتحمل مسؤوليتها ونتائجها هؤلاء الذين زرعوها فهم يحصدون ما زرعوا.

إننا لا ندعو إلى فصل الدين عن السياسة. فالدين عامل فعّال في حياة الفرد والمجتمع، والدين عامل ايجابي في بناء الفرد والمجتمع، والدين عامل تنويري

ورقابي بحكم المفاهيم التي يبشّر بها، والقيم التي يدعو إليها، والأخلاق التي يتخلّق بها معتنقوه، والأهداف التي يتطلبها، ويضطلع بالسعي إلى تحقيقها، وهي لا تختلف ـ بحال ـ عن الأهداف السياسية المعلنة التي ينادى بها السياسيون، لكن الفرق بين الدين والسياسة يبقى فرقاً في المبادئ الثابتة، وفي التوجّهات الدنيوية والأخروية.

وعلى هذا: فعلى العاملين في الاطار الديني أن ينطلقوا من منطلقاتهم المبدئية الدينية، وإلّا يتخلقوا بأخلاق العاملين للدنيا، ولأنفسهم، وإنما عليهم أن يتخلّقوا ـ في الغاية والوسيلة ـ بأخلاق أديانهم النقية ومثلهم العلنية. وبهذا يضمنون لأنفسهم ولمجتمعاتهم ولعقائدهم النجاح والانسياح، وكسب ثقة الناس بهم، وبما يدعون إليه.

ومن هذا المنطلق نرى أن الدين قرين السياسة، فليس له وعليه أن ينسحب من الساحة، مخلياً المجال لأعدائه من الساسة الدنيويين والماديين، والعاملين لنفعهم لا للنفع العام.

الفهم السليم للدين يخمد النزاعات

إن اللوم لا يقع على أي دين في حال وقوع نزاعات، لأن الدين ـ بمفهومه الواسع ـ لا يكون سبباً في وقوع نزاع، لأنه دعوة إلى المحبة، والتسامح والتعايش السلمي. واحترام الآخر، ولو كان نقيضاً، وإنما اللوم يقع على بعض إتباع هذا الدين، أو ذاك، لأنهم قصروا في فهم الدين ومراميه الخيرة، التي تجمع الجميع في إطار من الألفة والمودة والتفاهم، أو لأن أتباع هذا الدين أو ذاك خلطوا بين ما هو من الدين وبين ما ليس منه أو لأنهم اتخذوا الدين آلة للدنيا، أو لأنهم جعلوا أنفسهم ودينهم أداة لتنفيذ أجندات غريبة عن الدين، وعن مجتمعاتهم، تخدم مصالح أعداء الدين وأعداء وطنهم. فهؤلاء وحدهم ـ هم الذين يتحملون مسؤولية قيام نزاعات قد تصل حد الاقتتال ـ بين أبناء البلد الواحد، أو الشعب الواحد. وما تجربة الحرب الأهلية اللبنانية في الربع الأخير من القرن الماضي ببعيد، فقد أتت على الأخضر واليابس، ومزقت وحدة الشعب اللبناني، ووحدة أراضيه، وجعلتها لقمة سائغة لاعدائه، ولم يكسب لبنان أرضاً

وشعباً، أدياناً ومذاهب شيئاً من كل ذلك سوى الدمار والخراب، واستنزاف الطاقات المادية والبشرية، وانتهاك القيم المقدسة، واحتلال أراضيه من عدو متربص به يريد أن يبتلعهم ويذلهم ويمزق وحدتهم.

والعراق مثل آخر لهذا النزاع ونتائجه. فبسبب الفهم السقيم للدين، ودوره في حياة الشعوب، وبسبب تدخلات خارجية في شؤون العراق التي لا تريد له أن يستقر، وأن يعيش تجربته الجديدة في الحرية، وبسبب عداء متأصل للعراق وشعبه، ونهضته المرتقبة، قامت ما يشبه بالحرب الطائفية شنّها متشدّدون جهلة، مارسوا كل أساليب القتل والتدمير والإبادة الجماعية مخالفين بهذا كل الثوابت المبدئية للإسلام. وكل الأحكام الشرعية التي جاء بها الإسلام ـ متذرعين بذرائع واهية، متحركين وفق فتاوى جاهلة. فلم يكسبوا مغنماً لدنياهم، ولا مكسباً لآخرتهم، لم يتركوا وراءهم إلّا سوء السمعة والاحدوثة التي ألصقوها بالإسلام، والإسلام منها بريء.

وهذا كله بسبب الفهم الخاطئ للدين، والممارسة السمجة للسياسة، وعدم وضوح الهدف من كل ما يفعلون، وتنفيذهم لأجندات مشبوهة.

الشعور بالظلم الاجتماعي عامل لنشوب النزاعات الدينية

مما يساعد على قيام النزاعات الدينية والصراعات الاجتماعية هو الشعور بالظلم الاجتماعي، والإحساس العميق بالغبن من جراء الجوع والفقر والبطالة، والاضطهاد، واختلال التوازن، وفقدان الحقوق، ومصادرة الحريات، فإن هذه الآفات الاجتماعية تؤجج النزاعات الاجتماعية، ونحن لا نقول بالصراع الطبقي نتيجة للفوارق الاقتصادية بين أبناء المجتمع الواحد، وإنما نقول: إن شعور الإنسان بالظلم يدفعه إلى التمرد، وإعلان الثورة، والمطالبة بحقه. لهذا نرى أن الأديان السماوية حرصت على معالجة هذه الآفات، ومكافحتها ليس بالموعظة بل بحلول ناجحة تنبع من قدرة الدين وقيمه، وواقع المجتمع وإمكاناته، وطاقة الإنسان، وثرواته، واستجابته لنداء الواجب الديني والإنساني. كل ذلك يدفع بالدين إلى تلافي ظواهر الفقر، والجهل، والمرض بأسباب موضوعية.

إن الإسلام ـ كدين سماوي ـ قادر على إشباع الحاجات الروحية للإنسان، وقادر على الإجابة على كثير من الأسئلة الكونية الحائرة التي تؤرّق الإنسان، وهو قادر على إشباع الحاجات المادية الضرورية للإنسان. بحيث يحفظ عليه إنسانيته وكرامته. ولكن التجارب السياسية والاجتماعية الإسلامية لم تراع هذه الجوانب، وإنما اكتفت بضخ الأفكار، ومطالبة الناس بالامتثال لأوامر الدين ونواهيه، غافلة عن تهيئة الأسباب واللوازم التي تساعد على هذا الامتثال. وقد أغفل رعاة الأمر في هذه المجتمعات ذلك محتجزين المنافع والمكاسب لأنفسهم، حتى باتوا يشكلون طبقة اجتماعية متمايزة في حياتها، وسلوكهم، مهملين أمر عامة الناس، غير شاعرين بضروريات حياتهم ما خلق نفرة منهم، وعدم ثقتهم بدعواتهم الدينية إلّا من اتخذ القناعة مسلكاً، وارتضى لنفسه ثواب الآخرة سبيلاً.

وهذا الأمر المؤسف المجحف، مخالف للدين، مضرّ بسمعته، مثير للنقمة والغضب، محفّز للتمرد، ومؤجج للصراعات والنزاعات، ناقض لقيم الدين وأحكامه، داعٍ للخروج عليها، واستبدالها بأخرى وضعيّة.

عدم فهم الآخر. . . سبب لقيام النزاعات

وهناك سبب أخر يؤدي إلى قيام نزاعات دينية، أو مذهبية، أو طائفية، متمثل في عدم فهم طرف ديني لأخر ديني بسبب التعصب والجهل والانغلاق على الذات. ولو أن الأديان بمذاهبها انفتح بعض على بعضها الأخر، وفهمه، وتعرّف عليه ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ وعلى تعاليمه، ومفاهيمه، وأحكامه، ومقاصده، وأهدافه، لاكتشف أن الدين واحد، وان الاختلاف بمن دانوا، وليس بالدين. فقيم الدين واحدة، وجوهره واحد، وهدفه واحد: عبادة الله الواحد، وإسعاد خلقه بالعمل بإحكامه لنيل رضاه، وجزاء ذلك جنة عرضها السماوات والأرض.

ولعل من أوليات الدين هو التفاهم الذي يقود إلى فهم الأخر، والتسامح الذي يطوي صفحة الخلاف والشقاق، وتجاوز ذلك إلى وحدة الهدف ووحدة السبيل، وأداة ذلك الانفتاح على الآخر، وقيام حوار مثمر وإيجابي هدفه الوصول إلى الحقيقة بين علماء الأديان المتعددة. أو بين أتباعها، فسيكتشفون لا

محالة أن طريق الله (طريق الحق) سيجمعهم، وأن وحدة الهدف (سعادة الدنيا والآخرة) ستوحدهم وان الارتقاء بالإنسان سيرتقي بهم.

إن التسامح هو جوهر كل الأديان (فأدر له خدك الأخر) (وإن تعفو خير) (وإن تصبر فهو خير للصابرين) فالعفو والصبر فعلان ساميان، لا يصدران إلا عن روح متسامية أدركت مغازي الدين.

ولو تمعنا النظر في الهدف من إنزال الأديان السماوية، لرأيناه هدفاً عظيماً متمثلاً في عبادة الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذّاريَات: 56] وعبادة الله ليست مقصودة لذاتها، وإنما هي لنفع الإنسان، وجعله في نظام كوني حكيم، وتحريره من شتى العبوديات: عبودية الجسد، وعبودية الغرائز، وعبودية المطامع المادية التي تذله، وعبودية الإنسان للإنسان، وعبودية الخوف... وبهذا يكون الإنسان حراً (لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً)[1]، (ما عبدتك خوفاً من نارك ولا رغبة في جنتك، بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك)[2]. وإنسانية الإنسان لا تتكامل إلا بالحرية العقلية والروحية والنفسية. وهذا ما أراده الله للإنسان على هذه الأرض.

والأنبياء مثل قائم لذلك، وأولياء الله مثل آخر، فقد عاشوا حياة حرة، وحققوا للإنسانية حياة حرة.

فضلاً عن ذلك فإن الدين يهيئ للإنسان نظاماً اجتماعياً متماسكاً لبنته الأولى الفرد، ثم الأسرة، ثم المحيط الاجتماعي المشكل حول الأسرة، ثم المجتمع الإنساني الخاص ثم العام. وهذا النظام الاجتماعي يهيئ للانسان فرداً او جماعة، استقراراً نفسياً وفكرياً وحياتياً، يحفزه نحو الإبداع ونحو عمل الخير، نحو البناء والأعمار وهي وظيفته على هذه الأرض. فلو فهم الإنسان هذا الهدف من الدين وأدركه وأحاط به، ووعاه لانتفت الصراعات والنزاعات بين الأديان أو بين الإنسان والإنسان من أتباع الأديان، ولعاشوا جميعاً متوادّين، متحابّين، متعاونين، متكافلين يسعون إلى هدف واحد وهو إعلاء كلمة الله في

(1) محمد الريشهري: ميزان الحكمة/ 1، 582.

(2) محمد الريشهري: ميزان الحكمة/ 4، 3642.

الأرض، ويسعون إلى رضاه سبحانه بالعمل بأحكامه وتعليماته، ويتسابقون إلى ردم الفجوة بين بعضهم وبعض، فتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذي كفروا السفلى.

ولعل من أهم أسباب قيام النزاعات في عصرنا هذا، والعصور التي سبقته هي عدم الانفتاح على الآخر، وعدم فهمه، وتفهمه، والتعرف على ما عنده، أو على أقل تقدير إساءة فهمه، والقفز على ما عنده من مفاهيم وقيم ومقاصد خيّرة. وهذا الأمر منوط بعلماء الدين، ورجاله، فهم أقدر على الفهم، وأقدر على إدراك الحقيقة، والإحاطة بها من غيرهم، ونقلها إلى أتباعهم. ولكن ـ في بعض الأحيان ـ يحدث العكس، فيسيء هؤلاء الفهم ـ عن قصد وعن غير قصد ـ وينقلون فهمهم هذا إلى أتباعهم، فتنعكس على مواقفهم، وتصرفاتهم عملاً سلبياً، أو عدوانياً.

وقد هيّأ العصر الحديث من وسائل المعرفة والتعرّف، ومن مناهج الوصول إلى الحقيقة، كما هيّأ للناس ظروف حرية التفكير، لتتحقق لهم الحركة العقلية كما يشاؤون ويرغبون، وبذلك فلا عذر للإنسان في تنكُّبه عن درب الحقيقة، والوصول إلى اليقين، إلّا إذا كان جاهلاً، متعصّباً، منغلقاً على ذاته، مريضاً بمعاداة الحق، أو كان ذا أغراض دنيئة، تمنعه من إتباع ما هو أهدى، وأصوب.

فما أجدر بني الإنسان بالتزام الحق الذي صدر عن الحق المطلق الله سبحانه ـ ففي ذلك خير الدنيا والآخرة ـ وذلك لا يكون إلّا بتمثّل الدين: علماً، ومعرفة، وسماحة، واحتراماً للآخر، وقوّة نفسيّة تستوعب الآخر بكل ايجابياته، وسلبياته، وتوجيهها لخير الإنسان والأديان.

البحث عن الخلاص... غاية الإنسان في كل الأديان

الخلاص شعور بالتطهّر من الآثام والذنوب، والشرور الاجتماعية، وهو يهيء للإنسان راحة الضمير، وفراغ الذمّة من كل ما يسيء إلى العلاقة بينه وبين الله، وبينه وبين الناس.

والخلاص عمل فردي، يمارسه المرء مع نفسه، وينعكس على أحاسيسه وأفكاره، وسلوكه إيجاباً.

إنّ جميع الأديان تزعم أنها توفّر الخلاص للبشر، لكن بأساليب مختلفة، والخلاص في دار الدنيا يعني التوبة عن الذنب والندم على ارتكابه، والإقلاع عنه، والاستغفار عنه، وعمل الصالح بدلاً منه ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هُود: 114]، وبذلك يتحرز الإنسان من الاحساس بالذنب والشعور بالخلاص من الاثم. أما تمنياته الأخروية، فإنه يعيش مطمئناً إلى مصيرهِ، واثقاً من رحمة ربّه، عالماً إلى ما سيؤول إليه من مغفرة وجزاء وثواب.

إنّ صحّة معتقد الإنسان (القلب السليم) وقيامه بواجباته العبادية، وما يترتّب عليها من أفعال، وسلوك، يجعله يشعر شعوراً عميقاً بالخلاص، بامتناعه عن ارتكاب الشرور الاجتماعية، مما يجعل منه إنساناً مثالياً بمراقبة أفعاله، وأداء واجباته الدينية والاجتماعية مما يحوّله إلى إنسان يرتبط بالله، لا بأهوائه، وبتطلعاته الأخروية، لا باحتياجاته الدنيوية، ويخلّصه من سلطان الغريزة والتحرّر من ضرورات المادة، فيعيش خفيفاً طليقاً، تتجاذبه أشواق الروح، وتنهض به إشراقات العقل، وتغمره رحابة النفس، ويسلكه في زمرة العرفانيين الذي يتوحّدون مع من حولهم، ويهدمون كلّ الحواجز بينهم وبين مخالفيهم في الدين. فالدين يكون واحداً لأنه تعبير عن شعور عميق واحد، يرتبط بمصدر الكون، ومفيض الرحمة، والهدى، والحبّ. لهذا نرى أن (العرفانيين) من مختلف الأديان يلتقون بينهم على السماحة والامتزاج الروحي، ولا يتناكرون باختلاف الدين والمذهب. ولهذا نرى أن شعور من يسمّون بالصوفية، وموقفهم من شيعة أهل البيت عليهم السلام وأئمتهم شعور نقي صافٍ، يتصف بالتسامي، والاستعلاء بعيداً عن البغض والتعصّب لأنهم ذكروا الله فأغناهم أنفسهم.

إن البحث عن الخلاص بمختلف السبل، وشتى الوسائل هو بحث عن منفذ روحي تستقرّ عنده روح الإنسان، وقناعاته العقلية، وتصبح أفعاله محكومة بهذا الهدف النبيل. وقد يتعدّوا مفهوم (الخلاص) عند المذاهب والأديان، لكنه ـ في واقع الأمر ـ واحد، ما دام يهدف إلى تخليص الإنسان من الشعور بالذنب، وما دام يوجه أفعال الإنسان وجهة ايجابية تبتغي رضا الله، وكفّ الشرور عن عباده، وما دام يعمّق الشعور بوحدة الوجود العقلية، ووحدة الغاية لكل ما في الكون.

إنّ السعي للخلاص عمل روحي بالدرجة الأولى، لكنه يأخذ منحىً عقلياً

فلسفياً، فتستقر قناعات الإنسان عند الحقيقة المطلقة التي لا مناص منها، ولا نكوص عنها.

الدين.. هدىً ورحمة للعالمين

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنزل الأديان هدى ورحمة للعالمين. أنزلها هدى لكي يستطيع الإنسان أن يجيب عن كل الأسئلة المثارة في هذا الكون عن علّة الوجود وتكوينه، ورسالته، ومركز الإنسان فيه. هذه الأسئلة الكونية التي عجزت كل الفلسفات الأرضية، والمناهج العلمية التجريبية عن الإجابة عليها إجابة شافية كافية مقنعة، لأنها تتعلّق بعالم الغيب، فليس إلّا الدين من مجيب، لأنه منزل من عالم الغيب والشهادة، العليم الحكيم الخبير.

وأنزل الدين رحمة للعالمين، لأنه نظام اجتماعي يكفل للإنسان أن يعيش حرّاً إلّا من عبوديته لله، وأن يعيش آمناً مطمئناً لأنه رسم له حدوده، وعرّفه حقوقه، وواجباته، فلا يحيد عنها قيد شعرة. وكفل له حياةً اجتماعية متوازنة ابتداءً من كونه فرداً في خلية صغيرةٍ هي الأسرة، إلى عضو عامل فاعل في محيط اجتماعي كبير. كما كفل له سلطة تحميه وتحفظ عليه حقوقه وحياته، كما وضع له ميزاناً خلقياً، يزن به سلوكه وسلوك من يتعامل معه.

فالدين ـ إذن ـ نظام اجتماعي هدفه إسعاد الإنسان في الدنيا بربطه مع مفيض الوجود (الله) وتنظيم حياته على أساس الأخلاق والفضائل الإلهية كما كفل له طريقاً إلى الآخرة يوصله إلى سعادتها وبهجتها.

وقد أثبتت التجارب الدينية، على مرّ التاريخ أنها القادرة على إسعاد الإنسان بمنحه اطمئناناً روحياً، وأمناً نفسياً، واستقراراً عقلياً، وإشباعاً شرعياً متوازناً لحاجاته المادية وذلك على صعيد التجارب الفردية، أو الاجتماعية على السواء.

فالمتدين الحقيقي ـ الذي يؤمن بالدين تفصيلياً ويعي أحكامه وأهدافه ويعمل بها ـ يكشف ويكتشف مناعة الإنسان الحقيقي على هذه الأرض من خلال ممارساته: تفكيراً، وسلوكاً. فهو يواجه كل قوى الطبيعة بثبات، ووعي، وتفهم، ويواجه حركة المجتمع بانفتاح وتفاعل، وعطاء، ويواجه تحدّيات الحوادث

بصبر، واستيعاب لعبرها. وهذا ما لا نجده عند غير المتدين الذي لا يصمد أمام كل ذلك، بل يهرب من مواجهة الواقع إلى الخمرة، والمخدرات، بل إلى الانتحار. وبذلك يفقد قدرته على التفاعل الإيجابي، ويعيش منكفئاً على ذاته لا يعي ما يقول، وما يفعل، وما يريد.

فالدين ـ على هذا ـ ليس ممارسة روحية ـ وهي أساسية ـ وليس مغامرة عقلية ـ وهي مطلوبة ـ وليس عبادة تخلو من هدف ومضمون، وإنما الدين نظام اجتماعي متكامل يكفل للإنسان سعادة الدنيا والآخرة، ويحرّر الإنسان من كل نوازعه الشريرة، زارعاً قيم الخبرة والحبّ، والجمال، والابداع في دربه الموصل إلى التكافل الاجتماعي.

إن الدين، لا يمكن أن يكون عملاً سلبياً كما تقول الماركسية: (الدين أفيون الشعوب) بل هو موقف إيجابي يحرك العقول للتفكير، والمشاعر للثورة على الظلم والظالمين، ويحرّض الإنسان على قول الحق، والمطالبة بحقّه، وحقوق الآخرين، وأن يعيش إنسانيته كاملة رافضاً لكل أنواع العبودية، والقهر والاستغلال.

وهذا هو الدين بمفهومه الايجابي الفاعل البنّاء. وإن أسيء فهمه أو العمل به، فما العيب فيه، وإنما العيب في القائمين عليه.

الدين . . منظومة فكرية واجتماعية

الأمر الذي نريد أن نؤكّده أن الدين ليس اموراً تعبّدية ـ على كونها أساسية ـ يؤدّيها المرء يومياً، وبأوقاتها المحدّدة، وليس مواعظ يردّدها الواعظ بين الحين، والحين الآخر، دون توقّع لأثرها، وتأثيرها. وإنما الدين ـ وخاصة الإسلام ـ نظام اجتماعي يسعى لتحقيق العدالة الاجتماعية، والمساواة أمام القانون، ويكافح الفقر، ويدعو إلى الوصول وإلى الاكتفاء، وزرع الثقة بين الناس، وإشاعة التعاون، وإقامة التكافل لا على أساس المبادرة الفردية ـ وهي مطلوبة بإلحاح ـ ولكن ضمن منظومة اقتصادية واجتماعية متكاملة، متضامنة.

إن الدين يرى أن تحقيق الاكتفاء، وإشباع حاجات الناس الضرورية، أمر

لابد منه (كاد الفقر أن يكون كفراً)[1]، والذي لا يجد قوت يومه لابد من أن يتمرّد، ويشهر سلاحه، مطالباً بحقّه (إني لأعجب ممن لا يجد قوت يومه كيف لا يخرج شاهراً سيفه).

ففقدان العدالة، والشعور بالغبن، وانعدام الثقة بين الناس، واختلال التوازن في العلاقات بينهم، والازدواجية بين ما يدعو إليه الدين، وبين واقع الناس، يؤدي إلى فقدان مصداقية الدين، وفقدان الثقة فيه، بل يؤدّي إلى ارتدادات فكرية عنه، وانعكاسات سلوكية شاذة، تحارب الدين، وتقف منه موقف النقيض.

وبالتالي لا يمكن تحقيق الأمن الاجتماعي، والسلام الأهلي، والتعايش والتكافل إلّا بفهم الدين فهماً اجتماعياً، وتطبيقه أحكاماً، وتشريعاً لمصلحة الإنسان، وإسقاط حالة الصراع الاجتماعي. والغاء الفجوة الاجتماعية ـ الاقتصادية بين الناس. عندئذٍ يحقّق الدين اهدافه في العدل والمساواة، وإشاعة الثقة، وتعميق التعاون والتكافل، فيسود بينهم السلام، ويتحقق الوئام بين الناس جميعاً على مختلف الأديان والطوائف والمذاهب.

وحتى هؤلاء الذين فهموا الدين على أنه حالة تعبّدية محضة، وهي علاقة بين الإنسان وخالقه، فإن لفهمهم هذا مداليل ايجابية، لو أحسنوا التمعُّن فيها وتمثل في الافاضات الروحية والشعورية للمتعبد، بأحكام الدين وشعائره على سلوكه، وأخلاقه، وأسلوب تعامله، وفي نظرته إلى الأمور، وعلى حكمه على الأشياء. كل ذلك ينتج من ممارساته التعبّدية، وإحساساته الروحية.

وعلى هذا يبقى الدين مصدر الهام، وتنوير، وتبصير على أي حدّ فُهِمَ، وفي أي مجال طُبّق.

أما المواقف السلبية من الدين، والانكفاء عنه، والوقوف منه موقف النقيض من النقيض، فهي غير مقنعة لأصحابها، بل هي مقلقة لهم، لأنها تجعلهم يلجون في انفاق مظلمة لا نهاية لها، ولا بصيص من النور فيها، فهم يتخبطون في دياجير روحية وفكرية تظهر في سلوكه عقماً وعجزاً وهوساً ﴿أَمْ

(1) محمد الريشهري: ميزان الحكمة/ 3، 2438.

تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفُرقان: 44].

الدين... هو الحقيقة المطلقة التي تهيء لبني الإنسان الحياة الكريمة

الدين هو الحقيقة المطلقة، والبحث عن الدين، هو بحث عن الحقيقة، والباحث عن الحقيقة، لابد من أن يتخذ الدين سبيلاً للوصول إليها. والوصول إليها يبعث في النفس الاستقرار والاطمئنان، والأمان، ذلك أنه يؤمن بالله الخالق العليم، الحكيم القويّ، الرؤوف الرحمن الرحيم، الذي أنزل الدين هدى، ورحمة، وبشرى، ويقيناً. فعلى الذين يحملون الدين عليهم أن يحملوه رسالة للمحبة، والسلام، والتآلف، والتعاطف، والتراحم. وتعاليم الرسل جميعاً تؤكّد هذه المبادئ، وتسعى إليها، وتبتغي نشرها، وإشاعتها قيماً، ومفاهيم، وتعاليم، وأساليب للعيش والسلوك وحين يجتمع علماء الدين من مختلف الأديان، وينفتح بعضهم على الآخر، سيكتشفون أن مبادئهم واحدة، وسبلهم واحدة، ومقاصدهم واحدة هي السلام على الأرض لكل بني الإنسان، وإشباع الاحتياجات الضرورية لكل بني الإنسان. وتوفير السعادة لكل بني الإنسان، وحين يكون فهم الدين كذلك ـ ولابد من أن يكون كذلك ـ فإنه يؤدّي دوره في حياة البشر، ويوصلهم إلى شاطئ الأمن والسلام.

وإذا رأينا اليوم بعض أتباع الأديان يختلفون، ويتناقضون إلى درجة الاقتتال، والاحتراب فما ذلك إلّا لقصور في فهم الدين ورسالته، وما ذلك إلّا لسوء فهم وتصرّف من حملته: عامة وعلماء لتحقيق أهداف ضيّقة، أو لتمرير مخطّطات مشبوهة. تتقاطع مع مفاهيم الدين، ورسالته الإنسانية السمحاء.

وعلى هذا فالسلام لن يتحقّق على هذه الأرض إلّا بوحدة دينيّة حقيقية تعتمد الفهم السليم، والعمل الصحيح، والهدف القويم وعند ذلك تتحقق وحدة الإنسانية، وترسو على أسس صحيحة سليمة، قويمة، رصينة، لا عوج فيها ولا أمتاً.

وخلاصة القول: إن الدين هو الذي يحقّق للإنسانية حياة كريمة شرط:

1 - أن يفهم فهماً سليماً على أنه هدىً ورحمة للعالمين.

2 - أن ينظر إليه بمنظار إنساني عام وشامل.

3 - أن يسعى كل أتباع الأديان إلى تحقيق هدف الدين: عبادة الله الواحد بتطبيق أحكامه وشرائعه، والالتزام بفضائله ومقاصده. عند ذاك يحقّق الدين أهدافه بقيام وحدة إنسانية يتعارف فيها الجميع ويتوادّوا في ظل رحمة ربّ العالمين.

أديان في حالة سلام

نعرف، أن الدين يهتم بالدنيا والآخرة معاً. فهو مسؤول عن تنظيم وإدارة الحياة البشرية. يدخل (العمل من أجل السلام) في صلب الوظيفة الدينية. ويطالب الله المؤمنين بالجنوح إلى السلم وتجنب الصراعات الحربية وحقن الدماء وحفظ النوع البشري، قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: 61].

نعتبر نحن المسلمين... أن بناء الأمة أي بناء المجتمع الإنساني الخاص بالإسلام، يتطلب قيام عدالة لقيادة المجتمع واقرار مساواة بين أبنائه، حتى يتحقق النهوض بهذا المجتمع، وتحقيق التنمية البشرية، وتوفير فرص عادلة لتعزيز الشخصية لكي تعطي ما لديها من قدرات وطاقات في خدمة البناء والإعمار على الصعيدين الروحي والمادي، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [المُلك: 15].

ينبغي أن لا نبالغ في المثالية حين نتحدث عن دور الدين في تحقيق هذه الوظائف. فالدين يتأثر بالصراعات وتتجه تفسيرات أحكامه في أحيان كثيرة، اتجاهات سياسية وقومية واجتماعية قد لا تمثل الدين وأحكامه في معظم الأحيان، وأسطع مثال على ذلك هو مفهوم الحرب والسلام. فالإسلام لا ينادي بالحرب، لكن عدداً غير قليل من معتنقيه، يثيرون الحرب باعتبارها جهاداً ضد الأمم والشعوب بل في أحيان كثيرة ضد المجتمع الذي يعيشون فيه. هذا التطرف ليس دينياً وإنما تغذيه عوامل اجتماعية وقومية وعصبية ومعتقدات محلية تخلط بين الأعراف والتقاليد وبين الدين.

لقد شجب القرآن الكريم أعمال العنف. ونعرف كيف أن جميع أعمال العنف الموجهة ضد الأعمال الخيّرة للرسل والأنبياء والصدّيقين قد شجبت في القرآن الكريم واعتبرت أعمالاً مدانةً وخسيسةً.

إن أكثر الناس تعرضاً للخوف والذعر والتشريد والسجن والتعذيب والقتل، وغيرها من الأساليب القمعية، كانوا من الأنبياء والأولياء والصالحين الذين يطمحون أن يعيشوا على الأرض بأمن وسلام.

فعند ارتداد بني إسرائيل وعبادتهم الأصنام أخذوا يعذبون الأنبياء ويقتلونهم، وقد تحوّل بيت المقدس إلى سجن رسمي للأنبياء وأتباعهم قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البَقَرَة: 87]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: 101]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عِمرَان: 21].

وقد عانى أنبياء بني إسرائيل القتل والسجن والتشريد. وذكرت المصادر التاريخية أن النبي إلياس من عانى من الطاغية (آحاب) الوثني، وعانى أشعيا من (آحازبن يوثام)، وقد سجن ملكهم (صدقيا) النبي (ارميا) وعذبه فأطلق سراحه الغزاة البابليون الذين سحقوا الدولة اليهودية، أمّا النبي دانيال فقد كذّبه اليهود رغم أنه كان يبلّغهم الرسالة وهم في معسكرات الأسر البابلي، وقد قتلوا زكريا ويحيى كما هو معروف[1].

وكانت جريمتهم بحق السيد المسيح وأمه عليهما السلام هي التي قصمت ظهر المملكة اليهودية على أيدي الغزاة الرومان. فقد بعث المسيح عليه السلام في وقت كانت أورشليم محتلة من قبل الرومان، والوثنية مهيمنة، والحاخامات المنحرفون يحكمون باسم الرومان، وكانت فئة الموحدين اليهود (الحسيدية) مضطهدة ومعزولة ومنهم خرج أصحاب المسيح عليه السلام وحواريوه، فأخذ الكهنة يحرّضون الوالي الروماني (بيلاتوس) على قتل المسيح حيث اعتقلوه وسلّموه إلى (بيلاتوس) وبعد التحقيق مع السيد المسيح عليه السلام وجدوه بريئاً فقرر الوالي العفو عنه. إلا أن اليهود ألحّوا عليه فسلّمه إلى الحاخامات فـ (صلبوه) على حسب ظنهم. وجاء في إنجيل يوحنا (فخرج بيلاطوس وقال لهم ها أنا أخرجه إليكم

(1) قاموس الكتاب المقدس: عدة من المؤلفين.

لتعلموا أني لست أجد فيه علة واحدة، فخرج يسوع وهو حامل إكليل الشوك وثوب الأرجوان فقال لهم بيلاطوس هو ذا الإنسان فلما رآه الكهنة والخدام صرخوا قائلين اصلبه... اصلبه... قال لهم بيلاطوس أأصلب ملككم؟ أجاب رؤساء الكهنة، ليس لنا ملك إلا قيصر فحينئذٍ أسلم إليهم ليصلب فأخذوا يسوع ومضوا به، فخرج وهو حامل صليبه إلى الموضع الذي يقال له موضع الجمجمة)[1]. وهذا يعني أن اليهود استعانوا بالقيصر الوثني لقتل نبيهم الذي يدعوهم إلى التوحيد. قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ [النِّساء: 157].

وقد ذكر الباري عز وجل معاناة أنبيائه من القتل والإرهاب في العديد من آياته المباركة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البَقَرَة: 61].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البَقَرَة: 91].

وقوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [آل عِمرَان: 112]

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المَائدة: 70].

وهناك كثير من الآيات التي تبين تعرض الأنبياء والأولياء عليهم السلام إلى التخويف والرعب والعنف.

---

(1) إنجيل يوحنا: 18 ـ 19.

ومن الأنبياء من تعرض للحرق كإبراهيم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبيَاء: 51-57]، فلما نهاهم إبراهيم عليه السلام واحتج عليهم في عبادتهم الأصنام لم ينتهوا فحضر عيداً لهم فخرج نمرود وجميع أهل مملكته إلى عيد لهم وكره أن يخرج إبراهيم معه فوكّله ببيت الأصنام. فلما ذهبوا، عمد إبراهيم إلى طعام فأدخله بيت أصنامهم، فكان يدنو من صنم، صنم، ويقول له كل وتكلم. فإذا لم يجبه أخذ القدوم فكسر يده ورجله حتى فعل ذلك بجميع الأصنام ثم علق القدوم في عنق الكبير منهم الذي كان في الصدر. فلما رجع الملك ومن معه من العيد نظروا إلى الأصنام مكسرة قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبيَاء: 59-60]، وهو ابن آزر فجاؤا به إلى نمرود فقال نمرود لآزر خنتني وكتمت هذا الولد عني فقال أيها الملك هذا عمل أمه وذكرت إني أتقوم بحجته، فدعا نمرود أم إبراهيم فقال ما حملك على أن كتمتني أمر هذا الغلام حتى فعل بآلهتنا ما فعل؟ فقالت أيها الملك نظراً مني لرعيتك قال وكيف ذلك؟ قالت رأيتك تقتل أولاد رعيتك فكان يذهب النسل فقلت: إن كان هذا الذي تطلبه دفعته إليك لتقتله وتكف عن قتل أولاد الناس وإن لم يكن ذلك بقي لنا ولدنا وقد ظفرت به فشأنك فكف عن أولاد الناس فصوب رأيها[1].

ومن الأنبياء من قطعوا رأسه كيحيى عليه السلام. فعن ـ الإمام جعفر بن محمد الصادق ـ أبي عبد الله عليه السلام، قال: إن ملكاً كان على عهد يحيى بن زكريا لم يكفه ما كان عليه من الطروقة حتى تناول امرأة بغيا، فكانت تأتيه حتى أسنت، فلما أسنت هيأت ابنتها، ثم قالت لها: إني أريد أن آتى بك الملك فإذا واقعك فيسألك ما حاجتك فقولي: حاجتي أن تقتل يحيى بن زكريا عليه السلام فلما واقعها سألها عن حاجتها فقالت: قتل يحيى بن زكريا عليه السلام. (فقال: ما أنت وهذا. إلهي عن هذا، قالت: ما لي حاجه إلا قتل يحيى) فلما كان في الليلة الثالثة بعث إلى

(1) القمي: تفسير القمي/ 2، 71 و 72.

يحيى فجاء به، فدعا بطشت ذهب فذبحه فيها وصبوه على الأرض، فأخذ الدم يرتفع ويعلو، وأقبل الناس يطرحون عليه التراب، فيعلو عليه الدم، حتى صار تلاً عظيما. ومضى ذلك القرن. فلما كان من أمر بخت نصر ما كان، رأى ذلك الدم. فسال عنه فلم يجد أحداً يعرفه حتى دل على شيخ كبير فسأله، فقال: أخبرني أبي عن جدي إنه كان من قصه يحيى بن زكريا كذا وكذا. وقصّ عليه القصة والدم دمه. فقال بخت نصر: لا جرم لأقتلن عليه حتى يسكن. فقتل عليه سبعين ألفا، فلما وفى عليه سكن الدم[1].

أما زكريا عليه السلام فنشروه بالمنشار[2]. ومنهم من قتلوه وسلخوا جلدة وجهه وفروة رأسه كإسماعيل بن حزقيل عليه السلام[3].

وعانى نبينا الكريم ﷺ الأشد من ذلك في مختلف ظروف وأطوار حياته. فعذب وطورد وشرد وجوّع وجرح وسمّ وانتهكت حرمته، حتى قال ﷺ (ما أوذي نبي مثل ما أوذيت)[4].

إن ما تعرض له الأنبياء والصالحين تمثل عمليات إرهابية قلّ نظيرها في التاريخ الإنساني وقد أدان القرآن الكريم كل هذه الجرائم النكراء وأدان مرتكبيها. كما أدان أعمال العنف في كل أطوار البشرية .

وإذا أراد القرآن الكريم أن يصف قرية ويعتبرها مثالاً للعيش فإنه يصفها بالأمن والسلام والإستقرار والتنعم بخيرات الطبيعة والعمل قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: 112]. لذلك نتجه نحن المسلمين، إلى الخير استجابة للقرآن الكريم، لأن أعمال الشر مدانةً وتعتبر حراماً.

يشدد القرآن الكريم على احترام أحكام الصلح. وفي تجربتنا نحن المسلمين شواهد كثيرة. فصلح الحديبية، قَبِل فيه النبي ﷺ التنازل عن لقبه (رسول الله)

---

(1) قطب الدين الرواندي: قصص الأنبياء/ 219.

(2) قطب الدين الرواندي: قصص الأنبياء/ 219.

(3) يراجع لذلك ابن شهراشوب: المناقب/ 4، 85.

(4) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ 39، 65، مؤسسة الوفاء، بيروت ـ لبنان.

أثناء التوقيع. وكل ذلك من أجل إقرار الأمن وتجنب الحرب.

وفي وصيته لعامله على مصر ـ مالك الأشتر ـ يشدد الإمام علي عليه السلام، إمام المسلمين، على حماية الأرض والبيئة باعتبارها رأسمال وليس وسيلة انتاج فقط، فيقول عليه السلام:

(وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلَغَ من نظَرِكَ في استجلاب الخراج، لأن ذلك لا يُدرَك إلا بالعمارة، ومن طلبَ الخراج بغير عمارةٍ أخرَبَ البلاد، وأهلَكَ العباد، ولم يستقم أمرُهُ إلا قليلا. فإن شكو ثقلاً أو علةً أو انقطاع شربٍ أو بالة[1]، أو إحالةِ أرضٍ اغتمرها غرق[2]، أو أجحف[3] بها عطشٌ، خفَفتَ عنهم بما ترجو أن يصلحَ به أمرهم، ولا يُثقلَنّ عليك شيءٌ خفَّفتَ به المؤونةَ عنهم، فإنه ذخرٌ يعودون به عليك في عمارة بلادكَ، وتزيين ولايتكَ، مع استجلابكَ حسن ثنائهم، وتبجُحَكَ باستفاضة العدل[4] فيهم، معتمداً فضلَ قُوتهم، بما ذخرتَ عندهم من إجمَامِك[5] لهم، والثقة منهم بما عودتهم من عدْلِكَ عليهم في رِفقكَ بهم، فربما حدثَ من الأمور ما إذا عولتَ فيه عليهم من بَعْدُ احتملوه طَيِّبَةً أنفسهم به، فإن العمران محتمل ما حمّلتَهُ، وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلِها، وإنما يعوز أهلُها لإشرافِ أنفُسِ الولاةِ على الجمعِ، وسوءِ ظنهم بالبقاء، وقلة انتفاعهم بالعِبَر...)[6].

فالإمام علي عليه السلام يؤكد على إعمار الأرض لأنها منتجة. وعلى الحاكم حماية الأرض لتنتج بدون إرهاق واستغلال.

وإذا قلنا أن الاسلام (دنيا وآخرة) فذلك يعني العمل من أجل سلام البشرية. لأن سلام المجتمع الواحد لا يمكن أن يتحقق، خاصة في العصر

---

(1) بالة: ما يبل الأرض من ندى ومطر.

(2) إحالة أرض: اغتمرها غرق: أي كون الأرض قد حالت، ولم يحصل منها الارتفاع، لأن الغرق غمرها، وأفسد زرعها.

(3) أجحف: أتلف.

(4) استفاضة العدل: إيصاله ونتشاره.

(5) الإجمام: الترفيع والراحة.

(6) نهج البلاغة: 528، نشر: العتبة العلوية المقدسة.

الحديث، دون السلام الإنساني العام بسبب الاتصال السريع وتطور التقنيات السلمية والعسكرية على حد سواء.

ولذلك نعتقد أن الأديان تواجه مهمة عالمية في كل مكان من أجل العمل على السلام وتدعيم هذا السلام. وفي العالم كله، وخصوصاً في منطقة الشرق الأوسط يجب أن يرتبط السلام بالحقوق العادلة للشعوب. لذلك لا يمكن أن ندعو للسلام دون أن نربط دعوتنا وعملنا ووسائل عملنا بالمطالبة بإقرار حقوق الشعوب. وإذا كانت الحروب القديمة غير خاضعة لمعيار دولي، فإننا ومنذ منتصف القرن العشرين، نعيش تحت مظلة القانون الدولي الذي ينبغي أن يستفيد من الظروف الدولية لدعم الأديان في مسعاها نحو السلام. فالسياسات الدولية في كثير من الأحيان، تعيق السلام وتجعل مهمة إقرار السلام والدعوة إليه صعبة ومعقّدة، خاصة من قبل ممثلي الأديان الذين لايستطيعون الإنفلات من الإلتزامات الأخلاقية.

يشير الواقع الحالي، دولياً، إلى أن السياسة تخرب ثم تدعو الأديان لإصلاح ما تخربه. وهذه معادلة صعبة ومعقدة. وإذا اختلطت الأسباب، أي أن الشعارات الدينية إذا اختلطت بالأهداف السياسية فإن الصعوبات تصبح أصلب وأقوى أمام الدعوات الدينية للسلام.

إذا استمر هذا الوضع فإن وقف النزاعات وتحويلها إلى سلام وتعزيز نزعات التفاهم والتسامح سيكون صعباً ويعرقل الجهود التي يبذلها قادة وممثلو الأديان.

من أجل تحقيق مهمات مشتركة ومترابطة. فالعمل من أجل السلام يرتبط بتشجيع المجتمعات لكي تنعم بالعدالة، وهذا يقتضي تحقيق تنمية بشرية واستغلال الموارد الطبيعية في تحقيق رفاهية قادرة على جعل المجتمع منسجماً ومتعايشاً ومنتجاً للسلام داخل صفوفه. لأن السلام الأهلي هو منطلق للسلم الإقليمي والدولي. فالدعوة للسلام لا تتحقق بدون الدعوة للعدالة الدولية أيضاً.

إذا ألقينا نظرة تاريخية سريعة فسنجد.. أن الحضارات التي قامت على التفوق العسكري وحده لم تعمر طويلاً من جهة، ومن جهة أخرى لم تترك آثاراً إنسانيةً مشتركةً مثل الفكر والثقافة والفلسفة والإكتشافات العلمية تستفيد منها البشرية بالإشتراك في منافعها.

ولذلك يرتبط الحديث بالعمل من أجل السلام وإنهاء النزاعات بالحديث عن التنمية البشرية وإقامة مجتمعات تتمتع بالعدالة والرفاهية والإنسجام، وبحماية الأرض وتنميتها وإعمارها.

إن العالم اليوم مرتبط بصورة لم يسبق لها مثيل. والانتفاع بالعيش لا يمكن أن يتحقق بالعزلة والإنقطاع، وهذا يتطلب إقامة سلام عالمي ودائم قائم على الإشتراك بموارد الأرض داخلها وفوقها بدون استغلال لأن الاستغلال يقود إلى القهر والقهر يتطلب وسائل عنف تتسع لتشعل الحروب والمنازعات المسلحة.

لذلك فإن الدعوة إلى السلام هي دعوة إلى النهوض بالبشرية ومجتمعاتها إلى حالة من الإستقرار العادل والمنسجم، تستطيع أن تفتح الآفاق الرحبة أمام الإنسان لتطوير قدراته وتنمية مهاراته واطلاق مواهبه لتعزيز شخصيته واقامة جسور مع الآخرين بغض النظر عن قومياتهم وأديانهم وألوانهم.

رسالتنا من أجل العدالة والسلام

يرشدنا القرآن الكريم ـ كتاب الإسلام والمسلمين ـ إلى الوسائل الإنسانية والسلمية للتعامل مع (المسيحيين واليهود) من قبل المسلمين. منذ البداية. فقد وضع لنا قواعد ثابتة للتعامل مع أهل الكتاب ـ مسيحيين ويهوداً ـ تقوم على مبادئ إنسانية وسلمية وأهمّها الدعوة إلى الحوار بمستوى متكافئ قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: 64]، هذا الحوار الذي يركّز على مبادئ مشتركة قال تعالى: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ﴾. مع مراعاة الجانب الاخلاقي والموضوعي لعملية الحوار، واحترام الرأي الآخر، وعدم المسّ بخصوصية الطرف الآخر في الحوار.

بل إن القرآن الكريم يمهّد الأرضية اللازمة لقيام حوار إيجابي بين الاطراف المتحاورة من المسلمين وأهل الكتاب حينما يقرّر أن المسلم لا يكتمل إيمانه وإسلامه إلّا إذا آمن بكل أنبياء الله ورسله الذين بعثهم، وبكلّ كتبه التي أنزلها عليهم قال تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: 84].

وهكذا ينفتح باب الحوار الايجابي بين الأطراف جميعاً. فأهل الكتاب ـ من اليهود والنصارى ـ يقرأون ذكر أنبيائهم في القرآن الكريم فيذكرون بكل احترام وتبجيل وتقديس أكثر مما ورد في كتبهم المقدسة، ويقرأون تعاليم أديانهم ومبادئها وقد وردت في القرآن الكريم متطابقة مع منابعها، ومنسجمة مع أهدافها.

عند ذلك لابد من أن يستجيبوا للحوار، وينفتحوا على مشتركاته الايجابية، ويتفهّمون مرامي الأديان جميعاً من الدعوة إلى التوحيد، والعمل بأحكام الله، والتخلّق بأخلاقه، وإعمار الأرض وفق رؤية كونية إلهية، تحفظ للإنسان إنسانيته، وكرامته قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسرَاء: 70].

والذي نريد أن نؤكد عليه أن القرآن الكريم ـ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ قرّر في محكم آياته أن ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البَقَرَة: 256]، وقال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْۚ﴾ [الكهف: 29]، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغَاشِيَة: 21-22]، وكل هذا معناه أن الدين عقيدة، والعقيدة لا تفرض من الخارج فرضاً، وإنما هي اقتناع وتفهّم وتفكّر يسبق الإيمان. وهذا شأنه مع أهل الكتاب. فالإسلام دعوة إلى السلام. وحركة اجتماعية تتخذ الوسائل السلمية سبيلاً للتبليغ والانتشار.

كما يؤكد القرآن الكريم على إنسانية الأديان السماوية ـ ومنها الإسلام ـ فالإنسان أثمن موجود على الأرض، وهو بناء الله، وكل التعاليم السماوية إنما جاءت لتحفظ إنسانية الإنسان، وتعلي من شأنه، وتحرّره من عبودية الغريزة، فترفع شأنه على شأن الملائكة، وتخلّصه من سطوة المادة، وتعزّ قيم الروح والمثل العليا فيه، وعندئذٍ يستحق أن تسجد له الملائكة قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَرَة: 34].

وهكذا يلتقي الإسلام مع غيره من الأديان لكي يكون دعوة للمحبة والسلام والتعايش السلمي الإنساني.

إن بعض الوقائع لا تتطابق مع الإرشادات القرآنية فيما يخص العلاقات بين الأديان، فهناك مواقف متزمتة تتناقض مع ضرورة التعامل السلمي والاعتراف بالأديان السماوية، والاعتراف بحقها في ممارسة شعائرها ومعتقداتها. وهذه المواقف لا تنطلق من الإسلام بقدر ما تنطلق من التعصب أياً كان دافعه.

إن الموقف من النظريات ليس على مستوى واحد من الفهم والتطبيق، وإنما تختلف المستويات باختلاف الأزمنة، والأمكنة، والأمزجة، والمصالح، والظروف عامّة. وهذا ما نراه في فهم وتطبيق النظريات في العصر الحديث. فالرأسمالية تختلف فهماً وتطبيقاً من بلد لآخر ومن زمن لآخر، وكذا نقول في الديمقراطية. فإنها تختلف في بناء مؤسساتها وحدود توجهاتها الفكرية. وهذا ما نقوله في الماركسية ـ ووليدتها الشيوعية ـ مثلاً. وهكذا التعاليم القرآنية المتمثلة بالإسلام فإنها تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص والحكومات فهماً وتطبيقاً. ففهم الإسلام في عصر الرسالة يختلف عما أعقبه من عصور، وفهم

الإسلام عند النبي ﷺ وآل بيته الطاهرين ﷺ يختلف عن فهمه عند الأمويين أو العباسيين، وفهم الإسلام في العصر الحديث يختلف عمّا أريد به في عهود الامارات والطوائف والممالك المتنازعة.

وهذا الاختلاف في فهم الإسلام، وأساليب تطبيقه متأتٌ من الانحراف الذي وقع بعد وفاة رسول الله ﷺ وخروج الأمر إلى غير أهله ممن فهموا الإسلام فهماً قبلياً، وطبّقوه تطبيقاً بدوياً استمر في روحه ونهجه إلى يومنا هذا ما أخرجه عن الفهم القرآني الصحيح بل والنص القرآني الثابت.

وهذا ما نقوله في علاقة بعض المسلمين برعايا الأديان الأخرى، وموقفهم من عقائدهم وهو موقف يندّ عن الارشادات القرآنية والأحكام الإسلامية، وهذا الموقف جاء نتيجة لعدة أسباب منها:

1 - الفهم القاصر لبعض المسلمين لتعاليم القرآن الكريم وموقفه اتجاه الأديان السماوية الأخرى.

2- ومنها: الاحتكام بين المسلمين واتباع الديانات الأخرى في المجتمع الواحد وصراع المصالح الدنيوية مما ينعكس على الفهم الموضوعي لعقائد هذه الديانات والموقف منها.

3- ومنها: حالة التعصب التي تصيب بعض المسلمين لجزئية عقيدية، أو لممارسة مختلفة مستندرة عند اتباع الديانات الأخرى.

4- ومنها: افتعال الأزمات والصراعات من شخوص ورموز بعض الديانات الأخرى لخلق حواجز نفسية واجتماعية بين المسلمين واتباع هذه الديانات مما يعجب الحقيقة. ويضبّب الرؤية، ويمنع التفاعل والتواصل بين المسلمين واتباع الديانات الأخرى.

5- ومنها: الاعمال العسكرية التي تقوم بها جهة من الجهات ضد أخرى كالحروب الصليبية في القرون الوسطى، وحملات الاستعمار الغربي المسيحي في العصور الحديثة، والاستيطان الصهيوني في فلسطين ما أدى إلى قيام صراعات دموية ذهبت بكثير من القيم السماوية، وأبعدتها عن دائرة الصراع الايجابي.

6- ومنها: الشعور بالتعالي عند بعض أتباع الديانات الأخرى على المسلمين

بما حققته دول الغرب المسيحي من تقدم علمي وتكنولوجي ما يجعلهم يتصرفون تصرفاً مسيئاً لغيرهم فتحصل ردات فعل نفسية واجتماعية وعقائدية.

7- ومنها: تعهد بعض اتباع الديانات الأخرى الاساءة لمعتقدات المسلمين ورموزهم، وشعائرهم، وتاريخهم، وتسفيه عاداتهم، وممارساتهم الخلقية مما يخلق ردات فعل سلبية يخرج عن النهج القرآني الكريم.

8- ارتباط بعض أتباع الديانات الأخرى بدول اجنبية، يعدونها مرجعاً سياسياً لهم ووطناً روحياً حتى لو تعارض ذلك مع مصالح الوطن الذي يعيشون فيه.

إن كل ذلك لا يبرّر الإساءة إلى الأديان السماوية وأتباعها فإن منهج القرآن الكريم يرفض ذلك، ويدعو إلى ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النّحل: 125]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [العَنكبوت: 46]، وبها نضمن وحدة الطريق ووحدة الهدف لكل الأديان السماوية التي تدعو وتعمل لارساء قيم السماء.

وفي الواقع ليست الكنيسة وحدها ما تواجه المصاعب في عملها وإنما كثير من المذاهب الإسلامية التي تواجه التحديات نفسها، ولكن من منطلقات متشابهة. أي من منطلق عدم الاعتراف بالآخر وحقه في التواجد والوجود. وهو ما يتناقض مع مضمون وهدف الآية الكريمة قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحُجرَات: 13]، وهذا نص صريح بأن التفاضل عند الله لا يقوم على القومية أو العشيرة أو المذهبية بقدر ما يقوم على التقوى الإيمانية بالله ورسله وكتبه. وهذه التقوى، بنص الآية المباركة، لا تقتصر على أمة دينية دون أخرى، مما يوجب على المسلمين توفير ظروف التقوى لاتباع بقية الأديان لممارستها لكي تتعارف الشعوب والقبائل أياً كان دينها السماوي.

إن الكنيسة ـ بحكم عملها التبشيري ـ تواجه صعوبات وتحديات من كل

لون وهي قادرة على التغلّب عليها لو أنها اعترفت بالآخر، واحترمت قناعاته، وكذا المذاهب الإسلامية ـ في دعوتها إلى الإسلام وإلى مذاهبها الخاصة ـ كثيراً ما نراها منغلقة على نفسها، ترفض كل من يعارضها الرأي، أو يقف موقفاً خاصاً قد يبتعد ـ بكثير أو قليل ـ من موقفها ورأيها. وهذا مما يؤدي إلى انعزالها، وانكفائها على ذاتها.

إن الكنيسة، والمذاهب الدينية الأخرى المتخالفة يجب أن تفهم حقيقتين:

الأولى: إنّ الدين هدفه واحد، ودعوته واحدة، وهو هداية الناس إلى التوحيد، ودعوتهم إلى التمسّك بالفضائل السماوية التي أنزلها الله على شكل تعاليم، وأحكام، وحدود. فعلى هذا: يجب أن تتعاون، وتتوحّد لنشر عقيدة التوحيد وما يتبعها من التزامات.

الثانية: إن اسلوب الدعوة يجب ألا يتعارض مع الغاية، بل يجب أن يكون الاسلوب جزءاً من الغاية. فالغاية ـ في شرع الله ـ لا تبرّر الواسطة. فلا يطاع الله من حيث يعصى. وهذا ما لا نراه في كثير من أساليب التبشير عند المسيحيين، وفي كثير من وسائل التبليغ عند الدعاة المسلمين. بل إنّ بعضهم يفعل المنكرات ويجترح الخطايا ويسفك الدماء لكي يكسب أرضا جديدة لدينه أو لمذهبه.

وقد فاتهم أن التقرّب إلى الله ـ وهو جوهر الدين والتدين ـ هو الهدف والغاية في العمل التبشيري والتبليغي. وأنّ الإنسان الاتقى هو الأقرب إلى الله قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

كما أن التقاطع في المواقف، والتعارض في بعض وجهات النظر، لا يبرّر الصراع التدميري الذي يحدث نتيجة هذا الاختلاف.

إن أسوء ما يصاب به العمل التبشيري، أو التبليغي أن يرتبط بأجندات سياسية، ومصالح دنيوية، فتختلط السياسة بالدين، والدنيا بالآخرة، فتسقط عند ذلك الأقنعة، وتتكشّف الوجوه البشعة المستفيدة من هذا الصراع الفكري الذي سرعان ما يتحوّل إلى إقتتال دموي، كما يحدث الآن في بعض الاجزاء من افريقيا. المهم ـ مثلاً ـ في افريقيا أن نعكس صورة مشرقة للدين ـ مهما كان

الدين ـ الذي يعالج أوجاع الروح كما يعالج أوجاع الجسد، ويلبي متطلبات الفكر كما يشبع حاجات الجسم. وهو يملأ الفراغ العقائدي بتصورات مقنعة لتحل محل التصورات البدائية الساذجة.

فالدين دواء لا داء، وتغيير لا تدمير، وتحرير من عبودية الغرائز، وعبودية الآخرين، والدين هداية، لا غواية، والدين تسامٍ، لا تعادٍ. هكذا يجب أن يفهم الدين، ولا يكون ذلك إلّا بنبذ التعصّب، وتجّاوز الجهالة، وإحلال المحبّة والوئام، ومصلحة الإنسان، ورضا الله نصب أعين الجميع.

إننا لا ننكر أن قضايا مثل السلام والتعايش والرغبة في تطوير الإنسان والمجتمع والمساهمة في أمنه واستقراره ورفع مستويات معيشته وثقافته وواجباته تجاه أفراده هي قضايا مشتركة بين الإسلام والمسيحية. وتقع على عاتق الجميع مهمة تذليل المصاعب والضغط على الحكومات لاستخدام أجهزتها الأمنية لحماية المواطنين بغض النظر عن الدين والمذهب.

فالإسلام والمسيحية ينبعان من منبع واحد، ويصدران عن مصباح واحد ذلك هو الله العليم الحكيم، ويسلكان سبيلاً واحدة وصولاً إلى هدف واحد، وهو بناء الإنسان الذي جعله الله ـ سبحانه وتعالى ـ خليفته في الأرض ليعمل على إعمارها وفق سنن الله الكونية، وشرائعه السماوية، وفضائله الخلقية، إذن لابد من أن تُهيّأ كل الظروف التي تساعد على قيام الإنسان بمهام الخلافة في الأرض، وأولها: السلام، وزرع روح التعايش مع الآخر، وتنمية الرغبة في تطوير الإنسان في وسائله وغاياته، والمساهمة في خلق أمنه واستقراره، ورفع مستويات معيشته، وتعميق ثقافته ووعيه وفهمه لما حوله، وإرهاف شعوره لتحمل أداء واجباته تجاه أفراد مجتمعه.

كل ذلك هي قضايا مشتركة بين الإسلام والمسيحية، ولا يمكن أن نفي بواجباتنا تجاهها إلّا إذا انفتح أحدهما على الآخر، وازداد اقتراباً منه لفهمه، ولقيام تعاون مشترك، لتحقيق هدف مشترك.

إننا نرى اليوم الإسلام والمسيحية كل منهما يدعو إلى الإيمان بعقيدته دون سواها وهذا أمر مقبول بشرط ألا يؤدي ذلك إلى سوء فهم يقود إلى الاصطراع، لكن بالمقابل نرى أن كلاً من الإسلام والمسيحية يصطنع وسائل متشابهة متوافقة

لكسب أرض جديدة لدينه. فكل منهما: يتخذ العلاج الطبي، وبناء المستشفيات. وإقامة المدارس لنشر التعليم، وإطعام الطعام لمحتاجيه، وتهيئة فرص العمل للعاطلين إلى غير ذلك من آليات الدعوة والتبليغ والتبشير، وصولاً إلى أهداف مشتركة وإن ظهرت متعارضة. فالجوهر واحد، والشكل مختلف. فعلى الجميع تهيئة الظروف الملائمة لتحقيق غايات سامية، وهي الأخذ بيد الإنسان إلى مصدر النور، ومبعث الخير، وواحة الأمل المتمثّل بالدّين وتشرّعة الله سبحانه، لاراحة العقل وتطهير الضمير، وتهذيب السلوك وصولاً إلى بناء الإنسان الكامل الذي يريده الله.

إن قيام الدولة ـ في المنظور الإسلامي ـ ضرورة اجتماعية لابد منها لتقوم بواجباتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتنظيمية كمؤسسة مسؤولة مسؤولية مباشرة عن رعاياها المسلمين وغير المسلمين القاطنين على الأرض المسمّاة أرض الإسلام.

كما ومن واجبات الدولة ـ في الحكم الإسلامي ـ هو حماية المواطنين، وتوفير الظروف الإنسانية لممارسة حياتهم، وعملهم، وتحصيل علومهم، وحفظ حقوقهم، وصيانة دمائهم، وأموالهم، وأعراضهم، وإقامة شعائرهم، وإحياء مناسباتهم.

وما نقول عن واجبات الدولة تجاه رعاياها المسلمين، نقوله عن واجبات الدولة تجاه رعاياها غير المسلمين، فهي مسؤولة عن حفظ حياتهم، وأعراضهم، وأموالهم، وحماية دور عبادتهم، وممارسة شعائرهم، وإقامة طقوسهم، وإحياء مناسباتهم. وإذا كانت قوانين الدولة الإسلامية تضمن لغير المسلمين ـ ومنهم المسيحيون ـ كل ذلك، فإن الصعوبات، والعقبات، والحواجز، ترفع بين المسلمين وغيرهم، فيعيشون تحت خيمة واحدة من الأمن، والسلام، والطمأنينة يمارسون حياتهم بصورة طبيعية.

وقد نطقت التجربة التاريخية للحكم الإسلامي على مرّ العصور بذلك، فقد عاش اليهود في ظل الحكم الإسلامي في حياتهم الطبيعية في مشارق الوطن الإسلامي وغربه. فكان منهم العلماء والأطباء، والأدباء، والفلاسفة، والمؤرخون، والصنائعيون، والتجار، وأهل الزراعة، ولا ننسى تجربة اليهود

الذين هربوا من الاضطهاد الكنسي في أوربا في العصور الوسطى، فهاجروا هرباً منه إلى ظل الدولة العثمانية الإسلامية. حتى قيام الكيان الصهيوني الذي حوّل اليهود إلى جماعات عدوانية مغتصبة لحق المسلمين، مبيحة لدمائهم وأموالهم وأعراضهم.

أما المسيحية فيشهد التاريخ بأنها مارست حياتها، وحريتها في ظل الحكم الإسلامي وقد طوّرت كثيراً من مفاهيمها بالتلاقح مع المفاهيم الإسلامية، وقد انفتحت تجاربها الفكرية على تجارب المسلمين الفكرية والفلسفية، فأخذ كلٌ منهما عن الآخر. وهذا ما شهد به مؤرّخوا أوربا والغرب عامة ـ المسيحيون ـ

وما اعتماد كتب ابن سينا في الطب وابن رشد في الفلسفة في معاهد أوربا المسيحية إلّا دليل قاطع لما للمسلمين من أثر في الفكر المسيحي. وما انفتاح المسلمين ـ في العصر الحديث ـ على العالم الغربي المسيحي. وأخذه عنه كثيراً من العلوم، والتجارب، والانجازات التكنولوجية، والنزعات الفكرية إلّا دليل صارخ على ما عند المسلمين من روح التفاعل والتطلّع، والمشاركة الحياتية مع الآخرين.

واليوم لا يعاني المسيحيون في حياتهم في المجتمعات الإسلامية فهم يعيشون أخوة متحابين مع اخوانهم المسلمين إلّا من بعض الخروقات التي تحدث هنا أو هناك لعلّها جاءت من سوء فهم عند بعض المسلمين المتشدّدين، وقصور إدراك لدينهم، أو أنها جاءت ردّة فعل لمواقف بعض دول الغرب المسيحي تجاه الإسلام والمسلمين وقضاياهم اليومية. وهي مواقف سياسية تنبثق من حسابات سياسية لا علاقة للدين بها.

إن مفهوم أهل الكتاب في القرآن يعني الحوار والتفاهم معهم واحترام عقائدهم والدفاع عنهم في حالات الحروب ورعايتهم في حالات السلم والاستقرار، ولذلك فإن إقامة حواجز بينهم وبين المسلمين سواء داخل المجتمع الواحد أو في المجتمعات المختلفة، يضر المجتمع الإسلامي نفسه ويضر بالتعددية والاستقرار ويؤثر على حياة المسلمين انفسهم.

إن الحوار مبدأ قراني كريم، وهو نهج الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله بالحق. وما دام هؤلاء يدعون إلى الحق، فإنهم ينهجون نهجاً إنسانياً في ايصال

الحق إلى أهله، وهم واثقون أن دعوة الحق ستنتصر، فلا يلجؤون إلى وسيلة أخرى تعزلهم عن أقوالهم وعمّن بُعِثوا إليهم.

وما دام الدين مجموعة أفكار ومفاهيم يُراد ايصالها والاقناع بها، فالحوار هو خير منهج لتحقيق ذلك، وأهل الكتاب هم الذين يحملون عقائد أنبياء الله عليهم السلام ومنهم: موسى، وعيسى عليهما السلام، ويؤمنون بها، ويدعون إليها، فلابد من اصطناعهم لغة الحوار والتفاهم. وهكذا فعل القرآن معهم فخاطبهم بلغة إنسانية وديّة، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: 64]، والكلمة السواء هي كلمة التوحيد التي تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له. وما دامت كلمة التوحيد هي القاسم المشترك بين المسلمين وبين أهل الكتاب، فلابد من التفاهم والإلتقاء، والاحترام المتبادل لعقائد الطرفين. بل ودفاع كل من الطرفين عن الآخر في موقف السلم وفي موقف الحرب. فحين هزم الفرس الوثنيون الروم المسيحيين في حرب وقعت - في أول أيام الدعوة الإسلامية - شمت كفار قريش وقالوا: هُزِم المؤمنون على يد الوثنيين فأنزل الله قوله ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الرُّوم: 2-3]، وما أن مرّت أعوام حتى هُزِم الفرس على يد الروم المسيحيين. فموقف القرآن الكريم - وهو كتاب المسلمين - واضح وصريح في نصرة أهل الكتاب والتعاطف معهم، وما ذلك إلّا لأن القضية بين أهل الكتاب والمسلمين، مشتركة بل هي واحدة.

كذلك نرى موقف الإسلام واضحاً وحاسماً في حماية أهل الكتاب في أيام الحروب والفتن، وتهيئة كل ظروف الاستقرار والأمن والاطمئنان أيام السلم، وتوفير الفرص المناسبة التي تسمح لهم بالدعوة إلى عقائدهم، وممارسة شعائرهم، وإحياء مناسباتهم، بل دعوة المسلمين إلى مشاركة أهل الكتاب أفراحهم وأتراحهم لخلق حالة من الانسجام والتفاهم. والتعايش، والاندماج الإنساني.

وعلى الرغم من إيمان الإسلام بالتعددية الدينية واحترامها، فإنه يحرص على رفع الحواجز بين الأديان والعقائد، ومعاملة أتباعها على قدم المساواة مع

المسلمين فإن في ذلك خلق حالة من الوحدة والتوحّد في المجتمع مما يجعله قوياً سليماً مستنداً يسوده الانسجام والسلام، ويبعده عن تداعيات الاختلاف والاصطراع فإن ذلك يضر بالمجتمع الإسلامي، ويستنزفه ويوقف انسياح دعوة الحق إلى الناس جميعاً. فإن دعوة الإسلام للناس كافّة.

إن أي مجتمع إنساني لا يقيض له البقاء والامتداد، والنمو والتطور والتقدّم... إلّا إذا توافرت له أسباب ذلك، وأولها وأهمّها الأمن والاستقرار للحفاظ على النسيج الاجتماعي خاصة إذا كان متنوعاً متعدّداً. لهذا فإن أي عمل تحريضي لفئة على فئة أخرى يضر بكيان المجتمع، ويؤدي إلى تفككه، وقيام اصطراع فيه، وهذا معناه فقدان الوحدة العضوية لهذا المجتمع التي تمثّل حياته.

وهذا ما نراه يحدث عند بعض ممن فقد التدين الحقيقي، أو ممن كان له فهم قاصر للدين ومراميه، أو ممن غاب وعيه عما يمكن أن يفرز من نتائج سلبية. وقد تجلّى ذلك في أحداث استهدفت الأخوة المسيحيين ـ وهم قوم مسالمون ـ وكنائسهم وشعائرهم مما انعكس سلبياً على العلاقة الإنسانية الحميمة والصحيحة بين المكوّنين: الإسلامي، والمسيحي، ومما أفرز نتائج سلبية منها هجرة كثير من الاخوة المسيحيين إلى خارج ديارهم وأوطانهم، ولكن من حسن الحظ أن هؤلاء المسيحيين أدركوا أن أعمال العنف العدائية هذه لا تمثل الإسلام، ولا تنطلق من ثوابت إيمانية، وإنما هي أعمال معزولة صدرت عن قوم لا يفقهون من الإسلام شيئاً، بل إنهم ينفّذون أجندات معادية للإسلام تروم تشويهه وعزله، وهذا ما حدث بالفعل، فقد اقترن الإسلام ـ في أذهان كثير من الناس في جوانب العالم ـ بالعنف والارهاب، والقتل والتدمير الوحشي.

فعلى الغيارى من المسلمين أن يعرّوا هذه الاجندات وينبهوا إلى خطرها على الإسلام ديناً ومفاهيم ودعوة ووجوداً اجتماعياً وحركةً حياتية تبغي بناء المجتمع الإنساني على أسس إلهية، وتصورات سماوية.

كما يفضحون المخططات الهادفة إلى تمزيق المجتمعات الإسلامية، وتقويض استقرارها ووجودها بافتعال خلافات وصراعات، واقتتال دموي بين أبناء المجتمع الواحد وتعطيل تطوره ونموّه واكتماله.

وقد بادرت المرجعية الدينية العليا في النجف الأشرف ممثّلة بسماحة المرجع الديني الأعلى السيد علي السيستاني إلى تحريم الدم الإنساني من أي جهة كان، ودعا إلى احترام المسيحيين أرواحاً وأموالاً. وأعراضاً، وعقيدة، وشعائر، وكنائس، والحفاظ على ذلك كلّه وحمايته. ما ولّد تعاطفاً شعبياً معهم، واستنكاراً لأعمال العنف ضدّهم.

وقد وافق ذلك فهماً عند الاخوة المسيحيين، ووعياً بطبيعة هذه الأعمال وأهدافها مما جعلهم يخلدون إلى الأصوات المخلصة للمسلمين، ويقدّرون أن هذه الظروف طارئة عابرة لا تشكل موقفاً ثابتاً، ولا نهجاً مستمراً، ولا تنطلق من ثوابت الإسلام، ولا من مفاهيمه الخيّرة، ولا من تشريعاته الإنسانية التي تقدّس الإيمان بأي صورة جاء، وتحترم الإنسان بأي سبيل سلك.

إن التعاون بين قادة جميع الأديان والمذاهب سيعطي دفعة قوية لجهود السلام والأمن في البلدان الإسلامية. ويحد من تطور النزعات المتزمتة والمتطرفة ويعزلها باعتبارها عملاً مذموماً لا يتناسب وقيم الإسلام والمسيحية في الإسلام والتعايش والتسامح. كما أن مثل هذا التعاون سيوجه رسالة واضحة للحكومات للاهتمام بسلام المجتمعات وأمنها المدني وواجبها تجاه مواطني دولها أياً كان الدين الذي ينتمي إليه المواطن.

إن فتح قنوات التحاور والتفاهم واللقاء المشترك والتعارف بين قادة جميع الأديان والمذاهب والطوائف، سيؤدي إلى التعاون المثمر البنّاء ويعطي دفعة قوية لجهود السلام والأمن في البلدان الإسلامية، وزخماً لمحاولات التقريب والتوحيد بينهما، ويعزل كل النزعات المتزمتة باعتبارها عملاً مذموماً أما إذا حدث التقاطع بين قادة الأديان والمذاهب ومفكريها وعلمائها فإنه يقود إلى الجهل والتجهيل، ويسمح للنزعات المتطرفة، والآراء المتزمتة بالنمو والامتداد، وممارسة دور لا يتناسب مع قيم السماء. وانغلاق المذاهب المتطرفة على نفسها وعدم انفتاحها على المذاهب الأخرى، والتفاعل معها أدى إلى قيام دعوات متشددة، وحركات متطرفة انبثقت منها، ما أدى إلى ممارسة أعمال وفعاليات ـ باسم الإسلام ـ أساءت إلى الإسلام وتاريخه المشرّف في التسامح، والتعاون، والعيش المشترك.

وما موقف الحركات المتطرفة المعاصرة من الفكر الشيعي والطائفة الشيعية إلّا مثل واضح صارخ لما نقول.. فقد انكفأت تلك الحركات عن فهم الفكر الشيعي، ورفضته جملة وتفصيلاً من دون التعرف عليه، والإطلاع على أصول عقيدته وفروع تطبيقاته، ورمته بالانحراف عن الإسلام، ورمت معتنقيه بالكفر وذلك عن جهل، وتعصّب، وبغضاء، فوقعت في شرك التطرّف، والتزمّت، وصدرت عنها أفعال لا تمت إلى الإسلام بصلة. وهذا الفعل يتحمّل مسؤوليته الشرعية قادة الحركات المتطرفة وحاملو فكرها، ومحرّكو دعوتها. وقد اختلطت بالسياسة، وأصبحت أحبولة من أحابيلها تحقق أغراضاً دنيئة على حساب المصلحة العليا للإسلام والمسلمين.

كما أن الحكومات في البلدان الإسلامية تتحمل جزءاً كبيراً من مسؤولية خلق حالة من الفهم المشترك، والتعاون بين الأديان المتعدّدة، والمذاهب المختلفة. فإن هذا التعاون لو فُقد، لحلّت محلّه روح التقاطع، والتصارع مما يزعزع أمن المجتمع واستقراره، كما أن هذا التعاون سيوجه رسالة إلى هذه الحكومات للاهتمام بسلام المجتمعات، وأمنها المدني، وواجبها تجاه مواطني دولها أياً كان الدين الذي ينتمي إليه المواطن، فتشرّع القوانين التي تساوي بين مواطن وآخر، وتخلق حالة من الشعور بالرضا عن الدولة، والإيمان بوحدة المجتمع، كما أن على الدولة وقوانينها أن تراعي الحالة الخاصة لهذا الدين، أو لذلك المذهب، فلا تشرع قوانين قسريّة تفرض بها فقه دين على دين آخر، أو فقه مذهب على مذهب آخر، فلا تراعي بذلك الحالة الخاصة ما يشعر بعضهم بالغبن، والقهر، والاضطهاد، فيبدأ الحراك الاجتماعي، وتنشأ حركات التمرّد والرفض مما يزعزع أمن المجتمع واستقراره ويفقده القدرة على التعايش المشترك، ويحرمه من النموّ والتقدّم والحياة الإنسانية الطبيعية.

إن الحكومات ـ أي حكومة وخاصة المنتخبة منها، والتي جاءت لتنفيذ برامج إصلاحية، والتي جاءت بإرادة شعبية ـ حريصة على تحقيق الأمن الاجتماعي والاستقرار السياسي، والنمو الاقتصادي، وكل هذا يدعوها لاطلاق الدعوات للتسامح والتعايش الديني والمذهبي، وخلق الأجواء المناسبة لقيام حالات من الفهم المشترك، والرغبة في التعاون، والتفاهم، والتعايش الإنساني من خلال سلوك سياسي متوازن يراعي شروط المواطنة الصالحة، ويتعاطف مع

كل جهد إنساني نبيل ومخلص يأتي من أي جهة كانت، ويتبنّى كل عمل يهدف إلى ترصين الوحدة الاجتماعية، لا تصديعها.

كما على الحكومة أن تشرع القوانين لمنع التمييز الديني، والفرقة المذهبية، وإثارة الفتن والنعرات الدينية والطائفية، واعتبارها خرقاً للقانون واعتداءً صارخاً على حقوق الإنسان، وكرامته، وتجاوزاً على رسالة الأديان السماوية وحرمتها عند الله، فيجب ايقافها عند حدها، والمحاسبة ـ بل المعاقبة ـ عليها.

إن على الحكومات أن تتفهم ـ أولاً ـ رسالات السماء، ومراميها الخيّرة. وما تهدف إليه من بناء الإنسان الكامل، والمجتمع السليم وفق متبنيات الفضائل السماوية. وبناءً على هذا الفهم تتصرف في التعامل مع الأديان المختلفة والمذاهب المتعدّدة على قدر من العلاقات المتوازنة، والمواقف المتكافئة فتعطي لكل ذي حق حقّه في الدعوة إلى معتقده، وإقامة شعائره، وإحياء مناسباته وبذلك تقف على مسافة واحدة من كل منهم، وتشعرهم جميعاً بأنهم أبناء وطن واحد، يحكمه قانون واحد، ويتمتّع مواطنوه بحق المواطنة التي تفرض العدالة والمساواة في الحقوق والواجبات.

أما إذا جنحت الحكومات نحو التفرقة والتمايز بين دين ودين ومذهب ومذهب فإن ذلك يؤدي إلى التمايز بين مواطن وآخر، ومعنى ذلك احتدام الصراع بين حاكم جائر، ومحكوم مقهور. وإنّ هذا الصراع يفجّر كل المشاعر الشريرة عند بعض الناس، فتكون النتيجة ويلاً وثبوراً على الجميع ومن ضمنها الحكومات. كما ما جرّبناه من حكم البعث الساقط ومن ممارسات قائده المقبور فقد ناصبت الطائفة الشيعية العداء، فاستهدفت عقائدها وشعائرها فحاسبت الناس ليس على أفكارهم فحسب وإنما على مشاعرهم، وعواطفهم، وعلاقاتهم الاجتماعية، فكان ما كان. وهذا ما تسلكه بعض دولة المنطقة الآن.

إن الحكومات التي تبتغي بناء وطن متطور متقدم ينعم بالأمن والسلام والاستقرار ويسعى لتحقيق الرفاهية المادية لمواطنيها، لابد من أن تخلق كل الفرص المناسبة لذلك، فلا تقدم من دون أمن واستقرار، ولا رفاهية من دون علاقات اجتماعية سليمة كريمة، وهذا كله يقوم على الفهم المشترك، وعلى التسامح، وعلى احترام عقيدة الآخر، وعلى التسامي ـ في ردّة الفعل ـ على

أخطاء الآخرين، وبعض هذا من واجبات الحكومات وبعضه من واجبات القادة الدينيين، وبعضه من واجبات المواطنين الذين يحملون عقائد مختلفة لكنها تسعى إلى هدف واحد هو رضا الله، وتقديس الإنسان.

تاريخياً: إنّ منطقة الشرق ـ عموماً ـ والشرق الأوسط خصوصاً هي مهد الأديان السماوية، ومنبع الأفكار الثريّة، ومسرح الحضارات الإنسانية، فلابد ـ والحال هذه ـ أن تكون ساحة صراع تاريخي بين هذه البواعث والمكوّنات، ثم صدّرت هذه المنطقة أفكارها وقيمها وفلسفاتها إلى العالم أجمع، فأصبحت مصدر النور، والخير، والفكر الباحث عن الحقيقة.

وما زالت منطقة الشرق مسرحاً لكثير من الصراعات الموروثة تاريخياً، أو المفتعلة دولياً، فإن الصراعات السياسية العالمية والاقليمية في مناطق خارج الشرق الأوسط صارت تغذّي خصومات الشرق الأوسط وتؤثر عليها. فقد رأينا ـ في القرن العشرين ـ كيف أصبح الشرق الأوسط ساحة صراع بين فلسفات اجتماعية وسياسية، وبين أنظمة متناحرة كالرأسمالية والشيوعية، والديمقراطية والنازية فكان ضحيّة هذا الصراع شعوب هذه المنطقة وبلدانها، وقيمها وعاداتها وتقاليدها واستقرارها الاجتماعي والسياسي، وما زالت الأيدي الخبيثة المدمّرة تعبث بمقدّراتها بذرائع شتى ووسائل متعددّة.

لذا فإن على شعوب هذه المنطقة أن تعي ذاتها وتعي الخطر المحدق بها وتهيء الوسائل المناسبة لدرء الخطر عنها. وفي مقدّمة ذلك أن نعمل لقيام تضامن اقليمي بين الأديان يحتاج إلى تضامن دولي وإلى تفعيل دور الأمم المتحدة، ومنظمات حقوق الإنسان الدولية، والمنظمات المتفرعة عن الأمم المتحدة.

كما ينشط ـ مع ذلك كله ـ كل المثقفين، وأصحاب الرأي، والنشطاء المثقفين، ودعاة الحقوق المدنيّة، والكتّاب في حملة عالمية من أجل السلم، والتعدديّة، والتعايش الإنساني. فإن ذلك كفيل بخلق حالة منسجمة من الآراء والمواقف، والأهداف.

إن منطقة الشرق الأوسط تبدو مبعثرة، وفي حالة اصطراع غير مجدٍ بسبب غياب عامل التوحيد عنها. وهذا العامل لا يتحقق إلّا بجهود مشتركة متضافرة

مخلصة تجمع كل عناصر الوحدة، وتلغي كل عناصر الفرقة، وعناصر الوحدة والاجتماع كثيرة مادية ومعنوية، دنيوية وأخروية، نسبية وسببيّة.

كان الشرق الأوسط ـ قديماً ـ منبع النور، ومصدر الهدى، ومنجم الفكر والفلسفة والثقافة، وكانت تنهض على أرضه حضارات الإنسان، وتصدر منه أعظم الانجازات به العلم والحكمة، والتجارب الفكرية العميقة والمفيدة. فيمكن للشرق الأوسط أن يستعيد دوره الإنساني الحضاري الهادي إلى الحق، والداعي إلى الفضيلة، وإلى تقديس الفيوضات الإلهية.

إنّ كل ما في العالم المعاصر ـ كما القديم ـ من قيم خيّرة، وفضائل إنسانية تدعو إلى المحبة، والتسامح، والتسامي، وربط قيم السماء بقيم الأرض هي من فيوضات الشرق، ومن ابداعاته، ومن خيراته. وإذا رأينا العالم الجديد يزخر بانجازات علمية وتقنية فما هي إلّا دفقة من روح الشرق، وشرارة من شعلته المنيرة.

فعلى أبناء الشرق أن يستعيدوا دورهم الإنساني ـ من دون إحساس بالعجز والنقص ـ في بناء حضارة الإنسان المتكامل المتوازن، وما الدعوات التي تصلهم من هنا وهناك إلّا انعكاس ايجابي أو سلبي لأنوارهم التي اشرقت وأضاءت جوانب العالم، وعلى أبناء الشرق ـ بما لديهم من قيم وفضائل وتجارب روحيّة ـ أن يعيدوا التوازن البنّاء في شخصية الإنسان المعاصر الذي غاب عن حضارة الحديد والأسمنت.

إن اقحام الأديان في الخلافات السياسية والحزبية يعرضه لمختلف الانقسامات التي ترافق الانقسامات السياسية، ويتعرض الدين في هذه الحالة إلى الرأي الفردي والموقف الحزبي، وبالتالي يجعله أداة بيد القواعد الحزبية والتحالفات المؤقتة ويؤثر على الجوهر الإنساني للدين باعتباره منقذاً للبشر من الفرقة والانقسام والضياع وباعتباره إيماناً بالعدالة والمساواة والسلام والتآخي حيث يقول النبي ﷺ (لا حسب إلا بالتواضع، ولا كرم إلا بالتقوى، ولا عمل إلا بنية)[1]، وهي رسالة القرآن الكريم في التعارف والتعايش والتي تعلو على العنصر والزمان واللون والمكان.

---

(1) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ 1، 48، ح9، باب: وجوب النية في العبادات...

هناك مقولة شائعة وتصدق في كثير من الأحيان، وهي: ما دخلت السياسة في شيء إلّا أفسدته. وما ذلك إلّا لأن السياسة تقوم على المصالح، لا على المبادئ، فالسياسة لا دين لها، ومقول الإمام علي عليه السلام في وصف طبيعة صراعه مع معاوية: (والله ما معاوية بأدهى مني ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر والفجور لكنتُ أدهى العرب)[1]. واصطباغ السياسة بالغدر والفجور، والكذب والنفاق، والغدر، والمكيدة، والخيانة، تجعلها بعيدة عن الدين بأخلاقه المتسامية، ومثله العليا، ومبادئه الثابتة. والسياسة حليفة الانقسامات والصراعات، فإقحام الدين بها يجعله عرضة للانقسامات والصراعات، وتتخذه بذلك السياسة أداة لتحقيق أهدافها النبيلة والذليلة. ويكون الدين عرضة للابتذال حين يعبّر عن رأي سياسي فردي أو موقف حزبي. وبذلك يفقد الدين نقاءه، ومثله العليا، ويسيء إلى أهدافه المتسامية، ويتركه عرضة للنقد والانتقاد والتجريح.

إننا نؤمن أن لا معارضة بين الدين والسياسة حين تكون السياسة أداة بناء وإصلاح لا هدم، حين تلتزم السياسة بالمثل العليا في إدارة شؤون الناس وتأمين مصالحهم، وحفظ أعراضهم ودمائهم وأموالهم، وحين تكون السياسة صدقاً، لا كذباً ونفاقاً.

أي: لا تعارض بين الدين والسياسة، حين تحقق السياسة أهداف الدين في خدمة الناس، وتحقيق مصالحهم، وحلّ مشاكلهم، واحترام عقائدهم، وفق اخلاقية إنسانية وحين ننظر إلى السياسة في عالمنا المعاصر، فإننا نكتشف أنها تخالف كل ما يدعو إليه الدين من قيم وفضائل، ومثل عليا، وذوبان مصلحة الفرد في مصلحة المجموع. وهذا ما يشكل أزمة عميقة في الحياة السياسية، وحياة الناس.

وقد قامت أحزاب دينية تدعو إلى تطبيق الإسلام في حياتنا في المجالات كافّة: السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، لكنها فشلت في تحقيق أهدافها لأسباب موضوعية تتعلق بالجو العام الذي يعيشه المسلمون وتأثير القوى العلمانية والخارجية عليهم وأسباب ذاتية تنبع عن فقدان التجربة السياسية عند قادة هذه

---

(1) نهج البلاغة: شرح الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده/ 2، 180.

الأحزاب وقواعدها في ظل تشابك المصالح، والمواقف، والآراء في عالم مملوء بالتناقضات وتحكمه تجاذبات الحياة المادية المعاصرة.

إنّ على الدين أن يبقى نقدياً، وإذا تدخل في أمور سياسية، فعلية أن يحافظ على نقائه وتساميه، وقد يصبح تدخل الدين ـ أحياناً ـ ضرورياً لا تحقيق مصلحة سياسية، وإنما لتصحيح انحراف، أو إقامة اعوجاج، أو تنبيه إلى مأساة اجتماعية تقود إلى الهاوية وهذا ما وجدناه في تجارب سياسية إسلامية حديثة: تجربة الميرزا حسن الشيرازي في مسألة التنباك[1]. وتجربة الملا كاظم الخراساني

---

(1) الميرزا محمد حسن الشيرازي، الملقب بالشيرازي الأول، وبالمجدد الشيرازي.. والشيرازي الكبير أيضاً، ولد عام 1815م في مدينة شيراز بإيران. توفي والده وهو في دور الطفولة فكفله خاله (السيد حسين الموسوي) الذي أرسله مبكراً إلى معلم خاص لتعليمه القراءة والكتابة ثم علوم العربيّة، تدرج في الدراسة حتى أكمل المقدمات وهو في الثانية من عمره، وعندما بلغ أثني عشر عاماً أخذ يحضر دروس الشيخ محمد تقي في الفقه والأصول بمدينة شيراز... سافر إلى اصفهان ليدخل (مدرسة الصدر للعلوم الدينية) وبقي فيها عشر سنوات، درس أثنائها على أيدي أساتذة كبار كمحمد باقر الشفتي وغيره، سافر إلى العراق عام 1879م لمواصلة الدراسة الحوزوية فوصل إلى كربلاء التي بقي فيها فترة ثم غادر إلى النجف حيث أستقر... نال درجة الأجتهاد، ويؤيد اجتهاده محمد حسن النجفي صاحب الجواهر.. بعد وفاة المرجع الشيخ الأنصاري توجهت الأنظار إلى تلميذه الشيرازي الذي أختير للمرجعية عام 1281هـ ارتبط اسمه بـ (حوزة سامراء) وثورة التنباك (التبغ) في إيران.. اشتهر بمعالجة الرئاسة بمهارة وبالتدبير والتخطيط بكل ما يقدم عليه، وينقل عنه: اية الله اغا بزرك الطهراني في كتاب (هدية الرازي إلى المجدد الشيرازي)، اقول في ذلك معناه (رئاسة المرجعية الدينية تحتاج إلى مائة جزء، جزء من علم وجزء عدالة وثمانية وتسعون جزء، إدارة)!.. استوطن المجدد الشيرازي سامراء التي ذهب إليها زائراً، واخذ تلامذته يتبعونه إلى هناك تدريجياً، ثم انظم اليه افراد عائلته، وصار ينفق الأموال الطائلة في سامراء حتى كسب قلوب شيوخ العشائر في المدينة. وقد شيد أكبر مدرسة دينية في العراق تعرف باسم (مدرسة الميرزا) كما بنى سوقاً كبيراً ودوراً، وصارت مظاهر التشيع تظهر في المدينة التي هي مدينة سنية بالكامل. كان يقيم مراسيم التطبير في بيته ويدفع اثمان كفن المطبرين، كما انتشر الضرب بالسلاسل على عادة الشيعة في عاشوراء. كان المجدد الشيرازي يخطط لهجرة شيعية كبرى إلى سامراء من إيران والنجف وكربلاء لوضع اليد تدريجياً على المدينة وتحويلها إلى مدينة شيعية فيها حوزة علمية ووجود بشري شيعي كثيف. انتفاضة التنباك (1891م ـ 1892م) بعد اتفاق الشاه ناصر الدين القجاري مع بريطانيا على إعطاء الأخيرة حق التصرف بالتبغ الإيراني داخل البلاد وخارجها، وتدفق الاجانب على إيران، أرسل الشيرازي رسالة إلى الشاه يعترض فيها

في مسألة المشروطة والمستبدة، وتجربة الشيخ الكاشاني في الاصطفاف مع مصدق في تأميم النفط، وتجربة الإمام الخميني الجريئة في إقامة الدولة الإسلامية. وهذه تجارب جريئة وعميقة وحاسمة كتب لبعضها النجاح ولبعضها الآخر الفشل تبعاً لقيادتها، والظروف الموضوعية لها، ولكنها على كل حال تعد جزءاً مضيئاً من تاريخ الإسلام والمسلمين.

إن مهمّة الدين أن يوحّد، لا يفرّق، ومن مهمّته أن يبني، ولا يهدم، ومن مهمّته أن يعلي المبادئ والفضائل، ولا يفرّط فيها أو يضحي بها لمصالح عارضة، ومن مهمته أن يجعل الإنسان وإصلاحه، وصلاحه هدفاً نبيلاً له، ومن مهمّته أن يجعل الآخرة نصب عيني الإنسان فيوازن بين دنياه وآخرته، وبين دينه ودنياه، فهل تستطيع السياسة أن تحقق ذلك؟ تلك هي المسألة..!!!!

على تلك الاتفاقية، محذراً من أن تؤدي إلى اضعاف الدولة، وتكررت الرسائل دون أن يهتم بها الشاه، فأصدر الشيرازي فتواه الشهيرة التي جاء فيها : (ان استعمال التنباكو والتتن بأي نحو كان يعتبر محاربة للامام صاحب العصر والزمان)، ثم أتبع الفتوى بثانية لتحذير الحكومة، جاء فيها (إذا لم يُلغ أمتياز التنباكو بشكل كامل، سوف أعلن الجهاد خلال ثمان وأربعين ساعة). وكان تفاعل الإيرانيين مع الفتوى من خلال الامتناع عن استعمال التبغ والخروج في مظاهرات حاشدة، وحدوث اضطرابات في أماكن متعددة، كان ذلك مما أرغم الحكومة على الغاء الأمتياز. توفي الميرزا الشيرازي عام 1895م بمدينة سامراء بعد أن مرض بداء السل، ونقل جثمانه إلى الكاظمية ثم إلى كربلاء فالنجف حيث دفن هناك بجوار مرقد الامام علي ﷺ، ويقول أحد تلامذة السيد حسين الصدر في كتابه (التكملة) : (إن مجالس العزاء على المرجع الشيرازي دامت عاما كاملاً).

الفكر الديني للديانات القديمة

تتميز الديانات القديمة عامة بالشرك والوثنية، وعبادة الأصنام على الرغم من ظهور عقيدة التفريد ـ مرحلة متوسطة بين الشرك والتوحيد ـ أي: يتضمن الاعتقاد بوجود إله واحد دون نبذه عبادة الآلهة الأخرى في عبادة بعض الشعوب مثل البابليين وقدماء المصريين، والعبرانيين في العهود الأولى من تاريخهم. كما تشترك الملاحم السومرية والاغريقية في التمجيد بمآثر الفرد والدولة، ولا نجد لهذا التفريد عند الاغريق أو الرومان. وفي بعض أقطار الدول العربية، اتّصفت رئاسة الدولة بالقدسية، لأنه يمثّل الإله على الأرض ـ كما في العراق ـ وفي بعض الأحايين بالألوهية ـ كما في مصر.

أما الاغريق فلم يُضفوا أي صفة مقدسة، أو إلهية على حكّامهم، أو ملوكهم أثناء حياتهم، ولكن عبدوا ابطال تاريخهم بعد موتهم، وقد أدرج الرومان أسماء بعض أباطرتهم في قائمة الإلهية، وكانوا ينشدون من وراء ذلك هدفاً سياسياً هو الابقاء على ولاء الولايات للامبراطورية، وتوطيد الحكم الروماني فيها.

وتتّصف الآلهة في عموم المعتقدات الدينية القديمة بالعدل والرحمة والخير، وحماية الفرد والدولة على حدٍّ سواء من الاخطار، ومع ذلك تظهر في بعض منها قوى التدمير وأحداث العواصف والفيضانات والزلازل والأمراض.

ولكن التيارات الفلسفية الاغريقية كانت تدرك قواعدها عن قصد وعن غير قصد منذ عصر بركلس في القرن الخامس قبل الميلاد، ولذا كانت علاقة الفرد بالآلهة، وتعصّبه لها أقوى في الوطن العربي مما كانت عليه في بلاد اليونان.

لقد لعب اليهود دوراً غير مباشر في تهيئة أذهان العرب ـ وعلى الأخص أهل يثرب ـ لتقبّل الدعوة الإسلامية من خلال حديثهم عن الإيمان بالله الواحد

والإيمان بالأنبياء والرسل والبعث بعد الموت كما أن توقعهم لمجيء المخلّص الذي سيقودهم إلى النصر على أعدائهم سهّل على أهل يثرب الإيمان بالرسول محمد ﷺ قبل أن يسبقهم إليه اليهود ويبدو أن رسول الله ﷺ كان يضع هذه الاعتبارات في ذهنه حينما اتصل بجماعة من أهل يثرب بحدود السنة العاشرة للبعثة وأخذ يدعوهم إلى الإسلام.

إن الدافع المباشر لاقبال أهل المدينة على الإيمان بالدعوة هو البحث عن التوحيد والوحدة تحت قيادة الرسول ﷺ ورسالته. أما الدافع غير المباشر، فكان الرد على التحدي العقائدي الذي يواجههم به اليهود.

لقد كان موقف اليهود من الدعوة الإسلامية ـ في البداية ـ حسناً، فهو دعوة إلى التوحيد، وقد ذكّرهم القرآن وذكّر علماء بني إسرائيل بأكثر من موضع، وبعد وصول الرسول ﷺ إلى يثرب كتب ﷺ كتاباً بين المسلمين (المهاجرين والأنصار) وادَعَ فيه اليهود وعاهدهم وأقرّهم على دينهم وأموالهم.

غير أن موقف اليهود أخذ بالتبدّل بعد أن شعروا بخطر المنافسة التي بدأ يشكلها قوة المسلمين المتنامية سياسياً واقتصادياً ودينياً، وخاصة بعد معركة بدر. وتوجّه الرسول ﷺ نحو توحيد المجتمع المدني من خلال الصحيفة التي أعلنها، والتي اعتبرت اليهود أمة مع المؤمنين، ودعوة الرسول ﷺ اليهود للإيمان به، جعلت اليهود يشعرون بالخطر يتهدد وجودهم المتميّز في المدينة من الناحية الدينية والسياسية. ومن ثم فقد شرع اليهود بمعارضة الرسول ﷺ والدعوة الإسلامية عن طريق التشكيك بصحة الرسالة الإسلامية، والتعاون مع المنافقين من أهل المدينة لاضعاف مركز الرسالة فيها. وأخيراً في مدّ يد العون لمشركي مكة في حربهم رسول الله ﷺ والدعوة الإسلامية، وكان طبيعياً أن يرد القرآن الكريم عليهم، ويفنّد انتقاداتهم، وتشكيكاتهم في الرسالة الإسلامية، ويكشف حقيقة موقفهم في العديد من الآيات.

لقد تطوّر الصراع بين الرسول ﷺ واليهود حتى انتهى إلى اتخاذ إجراءات عملية ضد اليهود، فقام الرسول ﷺ بإجلائهم عن المدينة على دفعات عن طريق القوة المسلحة وبذلك أنهى وجودهم السياسي في المدينة المنوّرة، ولكن كل ذلك لم يؤد إلى سحب اعتراف الإسلام بالديانة اليهودية كديانة سماوية، كما

استمر الرسول ﷺ في معاملته لليهود باعتبارهم أهل الكتاب شأنهم في ذلك شأن المسيحيين.

وحينما انتشر الإسلام، واستقرّت أركانه في أطراف الأرض كان اليهود بعضاً من رعايا الدولة الإسلامية يعيشون في حدودها ويتمازجون مع أهلها، ويخضعون لقوانينها، عند ذلك أحس اليهود بالأمن والاستقرار، وشعروا أن الكتب التي بأيديهم، تعبّر عن عقائدهم بطريقة ساذجة لا تنسجم مع العقول، عند ذلك لجأ اليهود إلى الدّفاع عن عقائدهم متأثرين بمناهج المسلمين ومن أخذوا عنهم، وحين شاعت النزعة العقلية بين المسلمين متمثلة بالفكر الاعتزالي ما لبث أن نفذ إلى هذه المدرسة أحد رجال اليهود وهو (عنان بن داود)[1]، وقام يبشّر

---

(1) عنان بن داود لاهوتي يهودي عراقي ـ حسب أغلب المصادر ـ أو فارسي ـ حسب الموسوعة البريطانية ـ عاش في بغداد في العصر العباسي الأول حيث عاصر الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور الذي امتدت خلافته من عام 754 إلى 775. أسس عنان ما عرف بالعنانيين أو القرائين وهي فرقة يهودية تنحو منحىً أصولياً حيث تقوم نحلتها على التمسك بما جاء في العهد القديم وحده وعدم الاعتراف بأحكام التلمود وتعاليم الربانيين والحاخامات. ويعني لفظ (العنانيين) النسبة إلى (عنان بن داود)، أما (القراؤون) فهي نسبة إلى (مقرا) أي أسفار العهد القديم. بعد وفاة أبيه حاول عنان، حسب المصادر الحاخامية، أن يعين نفسه مكانه لكن رؤساء الحلقات التلمودية رفضوا ذلك. فدخل معهم في صراع حاد سنة 762. وتذكر الموسوعة اليهودية أن الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور سجن عناناً لعدم اعترافه بحاخامية (إسحاق الإسكافي) الذي كان الخليفة قد أقر تنصيبه على الطائفة اليهودية. إلا أن عناناً التقى في السجن بالإمام أبي حنيفة، ويبدو أن بينهما صداقة وتآلفا، فاقترح عليه أبو حنيفة شرح آرائه ذات المنزع الاجتهادي العقلاني وتوضيحها للخليفة خاصة وأن فرقة عنان ـ كما يرى ابن حزم في كتابه الفِصَل في الأهواء والملل والنحل ـ لا تنفي نبوة عيسى ومحمد ﷺ. فامتثل عنان لرأي أبي حنيفة وعرض آراءه وتوسع في إبلاغها، وبعد أن وصلت آذان الخليفة العباسي المنصور أفرج عن عنان الذي أصبح زعيم فرقة العنانيين أو القرائين. ولم يكن تأسيسه فرقة القرائين مجرد رد فعل على الخلاف مع الحاخاميين بقدر ما كانت استجابة للتحديات التي لحقت اليهودية بعد توسع الفكر الإسلامي وطرحه إشكالات فكرية جديدة. وقد استند عنان في أطروحاته على مفهوم القياس عند المسلمين، وتأثر بأصول الفقه الحنفي، خاصة وأن الفكر اليهودي كان يتمركز في جوهره على الحلولية فأدخل عنان مفاهيم علم الكلام والعقلانية إلى النسق العقدي اليهودي. وانطلاقاً من استيعاب عنان لأطروحات المدارس الفكرية الإسلامية (مذهب أبي حنيفة، المعتزلة..) فتح باب الاجتهاد في فهم النصوص المقدسة، وسمح لكل قادر على ذلك أن ينشئ له مذهباً فرعياً خاصاً في نطاق الأصول العامة التي قام

بحركة عقلية جديدة، فأعلن الثورة على الربّانيين ـ أحبار اليهود ـ ودعا إلى استخدام العقل ومبدأ البحث الحرّ.

وقد حاول (موسى بن ميمون) ـ أحد مفكري اليهود في الأندلس ـ التوفيق بين الدين والفلسفة وفي محاولته هذه اعتمد على فلاسفة المسلمين مثل الفارابي وابن سينا. وبهذا تقرر: أن اليهود عرفوا خلال تاريخهم الطويل مرحلة ذهبية عندما عاشوا في المجتمعات الإسلامية ـ وخاصة في بلاد الأندلس العربية الإسلامية ـ وأن تسعة أعشار تراثهم الديني كتب باللغة العربية.

إن أهم ما يميّز الإسلام هو مبدأ التسامح الديني القائم على الاعتراف بالآخر، وهكذا كانت علاقة الإسلام بالمسيحية، فهو لم يُلغِ الأديان السابقة عليه ـ ومنها المسيحية ـ بل اعترف بها وجعل الإيمان بها جزءاً من عقيدة المسلم، قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البَقَرَة: 136].

ومن هنا انطلقت العلاقة الحميمة بين الإسلام والمسيحية، فالقرآن الكريم يذكر عيسى ومريم عليهما السلام وقصّتها وينزههما من كل سوء ورذيلة، ويذكر الرهبان الذين تفيض أعينهم بالدمع لذكر الله، وما لجوء المسلمين إلى ملك الحبشة المسيحي هرباً من اضطهاد المشركين إلّا دليل على القاسم المشترك العظيم الذي يوحّدهم وهو الإيمان بالله، وما قصة رهبان نجران والمباهلة إلّا دليل آخر.

وفي الأجيال اللاحقة لعصر الرسالة كان المسيحيون يتمتعون بكافة الامتيازات التي يتمتع بها المسلمين على رغم الصراع السياسي والعسكري الذي كانت تدور رحاه بين الدولتين: الإسلامية والبيزنطينية، فقد كانوا يؤدون شعائرهم بكل حرية ويدعون إلى عقائدهم من دون اعتراض، ويدخلون في جدل هادئ

عليها مذهبه. فترتب على ذلك أن حدث الانقسام في فرقة القرائين نفسها، وتشعبت منها طوائف كثيرة من أشهرها طائفة بنيامين بن موسى وطائفة الأكبرية. وقد ساعد عنان على ترسيخ مدرسته الفكرية مناخ البحث وتعدد المشارب الفكرية الذي شهدته الدولة العباسية في القرن الثامن الميلادي. وقد ألف عنان كتاب الأوامر والنواهي بالآرامية (سفر هامتسفوت) سنة 770 ولا يوجد منه سوى أجزاء.

وحوار مثمر مع المسلمين، ويحتلون مناصب رفيعة في الدولة الإسلامية، ويؤدون خدمات علمية، واجتماعية من خلال ذلك، كما كانت لهم مؤسساتهم القضائية التي يتحاكمون إليها، وفق أحكام دينهم.

أما أثر الإسلام على الفكر المسيحي، فقد ظهرت المسيحية بعد أن ورثت العهد القديم (التوراة) من اليهود وأضافت إليه الإنجيل فصار الكتاب المقدس في أيدي المسيحية يشتمل على العهدين: القديم والجديد ونتيجة لعدم التناسق في الكتاب المقدّس، واجهت المسيحية مجموعة من العقائد المعقّدة كالتثليث والذنب والكفّارة التي لا يستوعبها العقل ولا يفهمها بسهولة لأنها مأخوذة من الفلسفة الرواقية والوثنية والرومانية والأفلاطونية الحديثة. وهنا بدأ التفلسف وظهرت حركة الآباء التي كانت بوادرها في الاسكندرية. وازدهرت في الشرق والغرب، ودافع الآباء عن العقائد المسيحية بالأدلة العقلية، وشرحوا الكتاب المقدّس شرحاً عقلياً معتمدين على السر المسيحي والأسرار الرمزية للكتاب المقدس.

وحين ظهر الإسلام، ازدهرت الثقافة نتيجة الاحتكام بين المسلمين والمسيحيين في بلاد الإسلام، فقد كانت الكنيسة المسيحية حاضرة في أقطار الشرق الأوسط والأدنى تستخدم اللغة اليونانية أولاً، واللغة العربية بعد ذلك، وقد كان القدّيس يوحنا الدمشقي وثيق الصلة بالعالم الإسلامي وكان لا يتردد في أخذ الكثير من أدواته الصناعية عن ابن سينا وعن ابن رشد خاصةً.

ولا نغفل تأثير مدرسة أهل البيت عليهم السلام التي حفظت الأصول العقائدية مما جعل الفكر المسيحي المعاصر يتأثر بفكر هذه المدرسة. فالإسلام هو الجامع المشترك لكل أديان السماء، لما يمتلكه من مادة علمية وثقافية وحضارة، ونظريات، ولأن الإسلام ليس بدعاً، وإنما هو دين الله الذي جمع كل الأصول العقائدية لما سبقه من أديان، والتي تدعو إلى الخضوع والتسليم لمشيئة الله سبحانه. أما التحريفات التي طرأت على اليهودية والمسيحية فهي من قبل أحبار اليهود نتيجة للعصبية التي تريد تحجيم الرسالة السماوية وقصرها على شعب واحد، وهو شعب الله المختار كما تدّعي.

إنّ من الضروري بحث مسألة الحوار الإسلامي ـ المسيحي نظراً للتجربة

الممتدة لقرون طويلة تجاور فيها الدينان، وتعايشا، واحتك أحدهما بالآخر، وتفاعل معه فكراً، وعقيدة، وممارسة، واحتواءً، ذلك أن الدين الإسلامي انساح في مناطق، كانت موطناً ووعاءاً للدين المسيحي، وللمسيحية لها فيه وجود،واستقرار، وامتداد كبلاد الشام والعراق ومصر، وبعض أنحاء الجزيرة العربية. هذا التجاور، والاحتكاك، والتشابك،والتفاعل، لابد من أن تكون له جوانب ايجابية، وجوانب سلبية، أفرزتها طبيعة الحياة، والرغبة في اتساع الرقعة، وانسياح الدعوة، أو التبشير.

إن للحوار بين الإسلام والنصرانية ـ في واقع الديانتين ـ جانبين[1]:

الأول: لاهوتي. وهو يتمحور حول العقيدة في، الله، والمسيح، والنبوة، والانجيل، والقرآن، وما يتصل بهذه المفردات من مفاهيم الصلب والفداء.

والثاني: واقعي.يتصل بحركة التعايش بين الدينين، والجماعتين ـ في الوطن الواحد، أو في العالم كله ـ على صعيد المواقع المشتركة أو المنفصلة.

أما بالنسبة للجانب الأول (اللاهوتي): فقد كانت له أهمية قصوى في القرون اللاحقة من ظهور الإسلام، حينما كانت العقيدة هي المحركة للحياة، والنافذة في عقول الناس وسلوكهم، والراجحة في متبنياتهم وما يترتب عليها من ممارسات، وشعائر، فكان الصراع ـ بين المسيحية والإسلام ـ على الأرض، وعلى الناس، وعلى السلطة، وكانت هناك معارك ضاربة وحروب طاحنة بين الدول التي تجعل الإسلام شعاراً لها، والدول التي تجعل المسيحية شعاراً، وخاصةً بين الدولة الرومانية، والدولتين الأموية، والعباسية. ثم كانت الحروب الصليبية الدامية حين غزت دول أوربا المسيحية ارض فلسطين وما حولها من بلاد الشام، فهب المسلمون ممثلين بدويلاتهم، مصر وبلاد الشام مما أدى إلى اندحار الصليبيين في نهاية المطاف. والملاحظ في هذه الحروب الطاحنة، والمستمرة أنها لون من ألوان الصراع على الأرض، والتوسع، والرغبة في التعالي في الأرض.

---

(1) يلاحظ لذلك بالتفصيل السيد محمد حسين فضل الله: مداخل واقعية لنجاح الحوار الإسلامي ـ المسيحي/ محاضرة منشورة على الموقع الأكتروني، بتصرف.

هذا بالنسبة للفريق المسيحي، أما بالنسبة للمسلمين، فقد كان دفاعاً عن النفس، وعن العقيدة الإسلامية، وعن الأرض الإسلامية والوجود الإسلامي في هذه البقعة، أو تلك.

وفي خضم هذا الصراع الحربي كان يقع على هامشه حوار فكري، لاهوتي لكي يثبت كل طرف أحقية عقيدته، وصواب موقفه، ومبرر حربه.

لكن في القرون الأخيرة، ضعفت العقائد الدينية وبرزت إلى السطح الاتجاهات المادية في الفكر والحياة، وسيطرت الأفكار العلمانية على عقول الناس، ففصلوا بين الدين والدولة، ثم قامت فلسفات مادية، قطعت الصلة بين الله والإنسان، وأعطت للإنسان حق اختيار نظامه، وأسلوب حياته، فخفت ـ عند ذاك ـ طبيعة الصراع، وتحولت إلى صراع فكري محدود بين المؤسسات المسيحية، والمؤسسات الدينية والإسلامية.

وأتاح التطور العلمي، و التكنولوجي للمجتمعات المسيحية أن تطور أساليبها وتوسع من وجودها في أماكن لم يصل إليها الإسلام، أو تحقق وجودها في أماكن كانت خالية من كل دين إلا الأديان البدائية الوثنية، كما في بعض أجزاء أفريقيا، والقارتين الأمريكيتين.

كما استخدمت المسيحية التطور الحضاري، لمجتمعاتها واستخدام أساليب البحث الحديثة للتغلغل في المجتمعات الإسلامية.

إن الحوار بين المسيحية والإسلام أمر ضروري، تتطلبه حركة الحياة، والإقرار بالحقيقة، والوصول إلى قناعات ذاتية، وهذا يتطلب خلوص النيات، وسلامة التوجهات، وعدم خلط الديني الأخروي بالدنيوي، والترفع عن أساليب التشهير، والتجريح، والهدم لكون أن هنالك مشتركات عقيدية بين الديانتين، وأهدافاً دنيوية وأخروية هو جرّ الناس إلى الإيمان بالله والأنبياء واليوم الأخر، والالتزام بالفضائل الخلقية التي تدعوا إليها الديانتان. ومما يزيد الأمر إلحاحاً أن اليهودية ـ في عصرها الجديد وفي حركتها الدينية والسياسية ـ بدأت تتحرك للتخطيط لإسقاط الدينين معاً، والسيطرة على مواقعهما، وإفراغ مضمونهما من كل منحى حي يتصل بالقضايا المنفتحة على الله والإنسان والحياة كلها. لهذا نجد أن من الضروري:

1 - دراسة ذلك كله بعيداً عن الذاتية الطائفية.

2 - العمل على إدارة الحوار على مستوى كل المفردات التي يختلف فيها.

3 - كما ولابد أن يتعمق كل من الطرفين فيما عند الأخر من مصادر ثقافية أصلية كالكتب المقدسة، والتراث الفكري للدخول في عملية مقارنة فيما يلتقيان فيه، وحوار فيما يختلفان فيه.

إن عملية الحوار تعتمد على مجموعة عوامل ليكون ايجابياً مثمراً منها:

1 - الوضوح في فهم الآخر، فهو يساهم في تقريب الأفكار، وتوازن الأحكام، وانفتاح الإنسان على الإنسان والموقف على الموقف.

2 - ضرورة الابتعاد عن العصبية المتحجرة التي خلقت لدى المسلمين ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: 64].

إن ما يحدث ـ أحياناً ـ في المجتمعات الخليطة ـ من المسيحيين والمسلمين ـ من أزمات، واختناقات، وصراعات، ونزاعات، ليس هو بسبب العقيدة المختلفة، والأفكار المتقاطعة، والممارسات الدينية، وإنما هو من صنع جهات محلية أو أجنبية، والتي تريد الاستفادة من نتائج هذا الصراع. فهناك جهات، تخطط لإثارة الصراع المسيحي ـ الإسلامي في هذا البلد أو ذاك من خلال بعض المفردات التي قد تكون ناشئة من أوضاع متعددة مختلفة سياسية، أو مصلحيه لا تتصل ـ من قريب أو بعيد ـ بالمسيحية والإسلام في صفتها الدينية والعقيدية، بل تتصل بالانتماءات السياسية الدولية أو الإقليمية التي يخضع لها هذا الطرف المسيحي أو الإسلامي في علاقاته العامة و الخاصة.

ثم يكتشف الجميع ـ مسلمون ومسيحيون ـ بعد ذلك أنهم كانوا ضحايا هذا الصراع وأن الإسلام والمسيحية لا دخل لهما في هذا الصراع، وأن الرابح الوحيد هو صاحب المشروع التدميري. فعلينا أن ننتبه ـ مسيحيين ومسلمين ـ إلى هذه المخططات التدميرية التي تهدف إلى تدميرنا وذلك بطريق الحوار بالوسائل الواقعية الإيجابية.

ويرى سماحة ـ المغفور له ـ السيد محمد حسين فضل الله (رحمه الله) أن

مسألة (التبشير) في الصعيد المسيحي و (الدعوة) في الصعيد الإسلامي في الساحة الواحدة، تبقى أمر طبيعياً. ومسألة خاضعة للحوار. ولابد من الاتفاق على هدف واحد محدد، وهل هنالك هدف أسمى عند المؤمنين من إعلاء كلمة الله، وتوحيده، والالتزام بشرائعه والدعوة إلى فضائله. وإذا كان بعضهم يخاف من دخول الآخر إلى ساحته في عملية تبشير أو دعوة، فإن ذلك لن يكون سلبياً على صعيد الهدف.

ومما يساعد على إنجاح عملية الحوار هو التطور الفكري في الواقع المعاصر، والانفتاح الإنساني على القضايا الفكرية المعقدة، والروح الموضوعية التي أصبحت تعيش داخل الذهنية المعاصرة.

وأما بالنسبة للجانب الثاني.. وهو ما يتعلق بالتعايش بين الديانيتين:

فيرى سماحته (رحمه الله): أن الحوار في المسالة الواقعية وهو الذي يتصل بحركة التعايش بين الدينَين، والجماعتين، فإنه لا يقل أهمية عن الحوار في المسألة الأولى ـ اللاهوتية ـ بل قد تكون هذه المسألة هي الأقرب للوصول إلى نتائج ايجابيه، إلا أنها تتصل بالمصالح المشتركة على صعيد الواقع. فإن تعايش المسيحيين والمسلمين تاريخياً حاصل في مختلف بقاع الأرض وعلى مدى قرون طويلة. فقد عاش المسيحيون في المجتمعات المسلمة دون أن يصيبهم ضرر أو أذى، وكانوا يمارسون حياتهم وطقوسهم ودعوتهم إلى دينهم، والجهر بعقائدهم وممارساتهم دون حواجز أو موانع. ونحن نعيش في عصرنا هذا نرى المسلمين يعيشون في المجتمعات المسيحية ويعيشون حياتهم بصورة طبيعية من دون اضطهاد أو تقييد، ويمارسون شعائرهم ويدعون إلى دينهم بكل حرية واختيار.

إذن.. التعايش الواقعي حاصل يجمعهم الحس الإنساني المشترك والهدف الروحاني العام. ونراهم هنا أو هناك يقفون موقفاً واحداً موحداً إزاء قضية ما، ويجتمعون على حد واحد إزاء مسألة ما. ذلك أن هناك أكثر من قضية يلتقي فيها المسلمون والمسيحيون في كل الساحات وهي: الكلمة السواء (التوحيد) ورفض الشرك، ووحدة الإنسانية، ورفض استعباد الإنسان لأخيه الإنسان، وقد عبر عن ذلك القرآن الكريم بقولة تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا

وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: 64].

وأخيراً.. إن النظر إلى الدين حاله روحيه، والتعامل معه نتاجاً فكرياً يحقق للإنسانية في حركتها الدينية الثقافية الكثير من الغنى والعمق والحركية والشمولية، والحوار بإيجابياته ـ ولو كان قاسياً، حاسماً في موقفة ـ فإنه يعكس حالة كسر الجمود الفكري والروحي والثقافي. ونحن بهذا نحقق هدفاً إنسانياً كبيراً وهو التخلص من جمود التقليد، وتحجر الذهنية، وبذلك ننفتح على أفق جديد، ونتحرر من هم مستقبلي كبير، ونحقق في حياتنا وحياة أجيالنا القادمة اطمئنانا روحياً، واستقراراً فكرياً، ووحدة إنسانيةً في ضل انتماء إيماني كريم.

الجماعات الدينية والتنمية والمساعدة الإنسانية

الجماعات الدينية هي تلك التي تسعى لجعل الدين منهجاً للحياة بأحكامه، وتشريعاته، وأخلاقه، وأنماط سلوكه، وتتخذ أشكالاً مختلفة كالمرجعيات الدينية، والمنظمات الدينية، والمنظمات الإنسانية التي تتبع جهات دينية وكالأحزاب الدينية السياسية والهيئات التبشيرية والتبليغية.

وتقوم هذه الجماعات الدينية بنشاطات إنسانية تنسجم مع ما تدعو إليه، لتحقق الهدف الإنساني لهذا النشاط، والهدف الديني التي تدعوا إليه. ومن هذه النشاطات: إطعام الطعام للجائعين، وإغاثة المحتاجين، وتقديم العلاج للمرضى، وتسهيل تعليم الأميين، وتوجيه الجاهلين. . . ولكن الهدف الديني غير المعلن يغلب ـ أحيانا ـ على الطابع الإنساني فيفسده ويسيء إليه.

وتأتي موارد هذه الجماعات من أعطيات أناس متدينين يبتغون الثواب بالإنفاق في سبيل الله، وتأتي ـ أحياناً ـ من جهات مشبوهة تبتغي تحقيق أهداف سياسية، كما في بعض الدول الاستعمارية الغربية. أو الدول ذات الفكر الموجّه، كما في الدول الشيوعية. أو الدول التي تتبنى مذهباً دينياً يخدمها سياسياً.

وما تنفقه هذه الجماعات الدينية من أموال يعد كبيراً، ويمكن أن يساعد في تنمية المجتمعات البشرية: اقتصادياً، واجتماعياً، وتربوياً، وعلمياً. ذلك إذا أحسن استخدامها وفق خطة تنموية مدروسة، ومخطط لها ومنسجمة مع الهدف العظيم والكريم في بناء الإنسان، ومساعدته في التغلب على ظروف حياته الصعبة، القاهرة. ولكن تقاطع هذه الجماعات الدينية في الهدف، يفسد مساعيها ويبدد جهودها، فلا يجعلها تسير في مسلك واحد، لتحقيق هدف جماعي عام.

وإذا أخذنا إفريقيا ـ مثلا ـ ساحة لنشاطات الجماعات الدينية، فإنه ـ على الرغم من كثرة ما يبذل من أموال وجهود فيها ـ لا يرقى بمجتمعاتها إلى حال من الاكتفاء المادي، وتحقيق المستوى الإنساني. فالجماعات الدينية تعمل ـ بحكم

أهدافها المتعارضة والمتقاطعة ـ بصورة متعارضة متقاطعة. فالتبشير المسيحي يعمل بكل مذاهبه ومدارسه، وتوجهاته المتناقضة. والتبليغ الإسلامي يعمل وفق مذاهبه المتناحرة مما يستنزف الطاقات والجهود، ويصادر الأهداف الإنسانية المرجوة. فلو توحدت جهود الجميع وفق خطط مدروسة وممنهجة واضعة الهدف الإنساني العام نصب عينيها، بعيداً عن التناقضات، والحسابات الخاصة الضيقة، لاستطاعت أن تنهض بهذه المجتمعات إنسانياً في كل المجالات الاقتصادية، والتعليمية، والصحية، والحضارية، ولكن هذا لم يتم ولن يتم، ما دامت هذه المساعدات تغفل الهدف الإنساني وسيلةً وغايةً، وما دامت هذه المساعدات تكرس لإغراض ضيقة، بل أن بعض الجهات التي تقدم هذه المساعدات هدفها تخدير الجائعين، وإلهاء المحتاجين، وإستغفال العاطلين، وإبعاد المضطهدين عن الإحساس بكرامتهم، والمطالبة بحريتهم، وراحت تستنزف مواردهم، وتستغل ثرواتهم، وتشيع بينهم الأمية والجهل، وتنشر بينهم الإمراض الفتاكة كالإيدز، وتشيع بينهم العادات والممارسات الخاطئة كإدمان الخمرة والمخدرات، وتفتعل الأزمات بينهم، وتؤجج النزاعات الدموية بين دولهم، أو مكوناتهم.

إننا نقول لهؤلاء الذين اتخذوا تقديم هذه المساعدات الإنسانية وسيلة لتحقيق مخططات سياسية أو أهداف دينية ضيقة: إن عليهم ـ أساساً ـ أن يتجهوا إلى الإنسان ـ كل الإنسان ـ والى تلبية احتياجاته الضرورية التي تحفظ حياته وكرامته وإنسانيته، ثم تأتي بعد ذلك الأهداف الخاصة المرسومة. فالدين قناعات، والإيمان توفيق من رب العالمين، وهدى الناس فضيلة يجب أن تأتي مكملة لغيرها من الفضائل.

وأيضاً نقول لتلك الجماعات الدينية الإسلامية خاصة تلك التي تسلمت السلطة، أو تسعى لتسلمها: إن ظروف العصر متشابكة ومتناقضة، وأعداء الدين أقوياء جبارون، يملكون كل وسائل التدمير والتخريب والقهر والانحراف فإذا أرادوا لأنفسهم النجاح ولدعوتهم الكريمة الفلاح، فما عليهم إلا:

1 - أن يشبعوا حاجات شعوبهم الضرورية من: سكن، وطعام، ودواء، وكساء...

2 - وأن يطلقوا لشعوبهم حرياتهم في التفكير والتعبير في حدود ما يبيحه القانون السائد بين الناس.

3 - وأن يذكروا الناس بالفضائل الإلهيه، والأخلاق الدينية، ويدعوهم إلى الالتزام بها لا على نحو الإجبار والقهر والقسر، وإنما على نحو الاقتناع، والإرشاد، والطواعية والاختيار الحر.

إن العصر الحديث، عصر تغلّبت فيه المادة على حياة الإنسان، وطغت على ألوان تفكيره، وأنماط عيشه، وإشباعها أصبح ضرورة بايولوجية، لا مناص منها، وهي كثيرة متنوعة. والمجتمعات المتخلّفة تنظر بعين الحسد، وتتطلع بروح الطموح إلى المجتمعات الغنيّة التي تحقّق لأفرادها فرصاً للعمل، وضماناً اجتماعياً، ورفاهية، وأمناً غذائياً، ومساحات للتطور والتغيير. فالإنسان المعاصر بدأ يطمح، ويمدّ وجدانه إلى إشباع حاجاته الحياتية ويتجاوز ذلك إلى اقتناء كماليات أسوة بالمجتمعات الغنية. وهذا يعني أن على الجماعات الدينية أن تحسّن التصرف بما لديها من أموال، وثروات، بالتخطيط لانفاقها على مشاريع استثمارية، تكون منتجة تلبّي حاجات الفقراء والمعوزين وتدرّ موارد إضافية لانشاء مشاريع أخرى وهكذا.

ثم إن هناك حاجات إنسانية لها أولوية في جدول المساعدات الإنسانية كالصحة: علاجاً، ودواءً، ووقايةً، ومناعةً. وكالتعليم: تعليماً، وتثقيفاً. وتهذيباً، ووعياً، وتطويراً، وبناءً، وكتهيئة فرص للعمل: تدريباً، وتنميةً.

إنّ المساعدات الإنسانية تصبح عبأً على أصحابها، وعبثاً لا طائل تحته إذا لم تقترن بأمور:

1 - التخطيط لها مجتمعةً بالتعاون من كل من يقدّمها من الجماعات الدينية.

2 - إغناء الطابع الإنساني لهذه المساعدات دون الالتفات إلى الهدف الضيّق.

3 - مراعاة التوازن بين إشباع الحاجات الضرورية السريعة الآنية كالطعام والدواء والكساء وبين المشاريع ذات الصفة الدائمة والمستمرة كالمزارع والمصالح والمدارس التي تصنع المؤهلات، وتنتج الكفاءات.

4- إبعاد السياسة ولمخططاتها وأهدافها المشبوهة عن أي عمل إنساني يستهدف إسناد القيمة الأساسية للإنسان، وإثراءها بكل ما هو فاعل مؤثر في عملية التنمية والتطوير، والارتقاء بالفعل الإنساني النبيل.

وبهذا يمكن للدين أن يحقق جزأ عظيماً من أهدافه و (ما لا يدرك كله، لا يترك جله).

الحرية الدينية والاستقرار والديمقراطية

تعدّدت الأديان بتعدّد الرسل والأنبياء ﷺ، وبتعدد الأجيال البشريّة، وعلى الرغم من أن جوهر الدين، واحد ـ لأنه فيض من نبع واحد ـ لكنّه يختلف من جيل إلى جيل في تفاصيل الأحكام التشريعية. وعلى هذا كان التعدّد الديني، واختلاف المؤمنين في جزئيات الإيمان، وتفاصيله مع وحدتهم واتفاقهم على الإيمان بالله، واليوم الآخر، والالتزام بالفضائل الإلهية.

هذا الاختلاف في تفاصيل الشرائع السماوية ـ وهو أمر طبيعي ـ يجب ألا يكون مدعاة للصراع والاقتتال، لأن نقاط اللقاء أكثر، والأهداف واحدة، وسبل الوصول إليها مشتركة. وليس على المؤمنين ـ على اختلاف أديانهم ـ إلّا التبصّر، والتفكّر قبل الإقدام على أي عمل يثير البغضاء والفرقة، والصراع.

وإذا استعرضنا التاريخ البشري، لرأينا أنّ هناك صراعات قامت بين أتباع الأديان ـ لا بين الأديان ذاتها ـ بدأت من الصراع الكلامي وانتهت إلى الصراع الدموي، وراح ضحيّتها كثير من السذّج والبسطاء، والمتعصّبين الجهلاء، وكثيراً ما كانت السياسة، والرغبة في التوسع الإقليمي سبباً من أسباب قيام هذه النزاعات، فكان الصراع بين اليهودية ـ التي تدّعي التفرّد بدين الله ـ وبين المسيحية الدين اللاحق لها، وكثيراً ما نرى النزاع يقع بين أتباع الدين الواحد بحكم التعدد المذهبي، كما رأينا ذلك في الصراع بين أتباع: الكاثوليكية، والارثذوكسية، والبروتستانتية. وحين جاء الإسلام، كانت دعوته للناس كافّة، لكنّه لم يبدأ حربه على الآخر إلّا بعد أن بلّغه بدعوته، وعرض عليه مفاهيمه ولكنه كان مضطراً لخوض حرب هي ردٌّ على عدوان عليه، أو خوض حرب ضد من يقف بقوة السلاح في وجه انسياح دعوته إلى الناس كافة.

فالإسلام وحّد الدعوة إلى الله، وإلى إتّباع الأنبياء جميعاً، وإلى الإيمان بكتبه ورسله لا يفرّق بين أحد منهم. وهكذا جاء الإسلام بدعوة التوحيد بين

الأديان جميعاً التي تقوم على الدعوة إلى توحيد الله ـ سبحانه ـ ومعنى ذلك أنه ألغى كل أسباب الاختلاف، والنزاع والصراع. أما ما فهم من صراعات ونزاعات، فهو أمر سلبي لا يقع مسؤوليته على الأديان بقدر ما يقع على عاتق الفهم الخاطئ للدين وعلى أتباع الأديان وقادتهم الذين يوجهونهم في فهم الدين فهماً دنيوياً مجدداً عن مقاصده الدنيوية والأخروية.

وعلى الرغم من ذلك كله كان الإسلام ومعتنقوه يؤمنون بحق الآخر بالإيمان بأي عقيدة، أو دين يشاء، وأن يمارس شعائره ويدعو إلى دينه، ويعمل بأحكامه ما دام لم يعلن الحرب والعدوان على المسلمين، وبلادهم.

وبهذا أثبت الإسلام أنه دين السلام الإنساني ودين الوحدة الإيمانية، ودين احترام الآخر: عقيدة، وموقفاً، وشعائر، وهذا الموقف المنفتح للإسلام متأتٍ من الالتزام بكتاب الله، وسنّة نبيه ﷺ، والدارس للمفاهيم التي أفاضها أهل البيت عليهم السلام بتوجيهاتهم، وسلوكهم، يدرك عمق الفهم الإسلامي، ووضوحه، وواقعيته، وإنسانيته. فالإنسان الآخر إن لم يكن أخ لك في الدين فهو نظير لك في الخلق ـ على حد قول الإمام علي عليه السلام ـ.

وهكذا قرّر الإسلام الحرية الدينية.. فلو تصفّحنا التاريخ الإسلامي لرأينا ذلك الانسجام التام بين المسلمين وبين اتباع الديانات الأخرى فكانت بينهم علاقات اجتماعية وديّة، ومصالح اقتصادية مشتركة. ومشاريع علمية مبدعة، وكانوا يشكلون نسيجاً اجتماعياً موحداً رغم تنوعه الفسيفسائي الجميل، فنرى الجامع مجاوراً للكنيسة، متناغماً مع بِيَعْ اليهود، ونرى التشكيل الجميل بين أزياء المسلمين، واليهود، والنصارى، ونرى بعض أهل الكتاب قد تسنّم أرقى المناصب وأخطرها في الدولة الإسلامية حتى نكاد نعترف أن ما كان بين المسلمين وأهل الكتاب من تعارف وتآلف أكثر مما كان بين المسلمين لمذاهبهم المختلفة.

هذا التجاوز المكاني في مؤسسات العبادة أدى إلى تداخل المصالح، وتمازج الأفكار والمشاعر، وتوحّد الرؤى، وزوايا النظر، فكان التلاقي، والتآلف والتعايش، وقد عاصرنا في حياتنا هذه وفي بلدنا العراق تمازج أتباع الديانات المختلفة إلى درجة الذوبان بعضهم في بعضهم الآخر، فهم يتشاركون

في أفراحهم، وأتراحهم. ويتوحّدون في السرّاء والضرّاء، ويحملون همّاً واحداً هو همّ الإنسان، وسعادته ومصيره في هذا الوطن الواحد، وما ذلك إلّا تعبير عن سماحة الأديان بعيداً عن الجدول الآيدلوجي العقيم.

إنّ إقرار التعدديّة الدينية يعني الاعتراف بالآخر، والاعتراف بالآخر يولّد التفاهم والتآلف، والتصالح الاجتماعي الذي يعني الاستقرار الاجتماعي الذي هو أساس العيش السليم الكريم، وأساس أي نشاط إنساني مبدع، فلا حياة بلا تفاهم، ولا حياة بلا استقرار وتآلف، ولا تطور ولا نموّ ولا إبداع من دون استقرار وسلام.

أما إذا لم نعترف بواقع التعددية الدينية، وحرصنا على إلغاء الآخر، وحقّه في التفكير الحرّ، والتعبير السليم عن موقفه، وإقامة شعائره الدينية بكل حرية وسماحة، فإننا بذلك نحل التعصب محل السماح، والتشدد بدلاً من المرونة والانتاج، والعنف، بديلاً عن الحوار، فتكون الكارثة حينئذ ـ ويكون الاحتراب، والدماء، وتقويض البنى الأساسية في المجتمع الإنساني ـ بما في ذلك البنى التحتية التي تقوم عليها حياة الإنسان الاجتماعية والاقتصادية، ونفقد النمو والتطور لفقدان الاستقرار الذي هو أساس كل ذلك.

وعلى هذا فإن على مجتمعاتنا وقادتها الدينيين والاجتماعيين والسياسيين أن يلتفتوا إلى هذه الناحية الحساسة ويشيعوا روح المحبّة والتسامح، ويزرعوا في العقول الإيمان بالحريّة وخاصة حرية العقيدة، ويغرسوا في النفوس الاعتراف بالآخر، واحترام عقيدته وشعائره والالتزام بالقول المشهور: إن حريّتي تنتهي عند حدود حريّة الآخرين.

ولنا في تجربة المجتمعات الغربية الحديثة خير تجربة وعبرة، فهي تعيش حياة مستقرة، خالية من الصراع الديني، تتعايش كل أديانه السماوية، ومذاهبه الفكرية المذهبية ـ على تناقضها ـ متجاورة، متحاورة، نبذت الانغلاق، والعنف، واتخذت الحوار وسيلة للتعايش، وكأنها استفادت من تجربتها المريرة في العصور الوسطى، فقد كانت الكنيسة المسيحية تشن حرباً على اليهود وتلاحقهم، وكانت المذاهب الكنسية المسيحية. تتقاتل بدافع العصبية والجهل، لتحقيق أهداف ضيّقة لبعض رجال الدين أو رجال السياسة من الملوك والأباطرة

والدوقات فتسيل الدماء وتنتهك كرامة الإنسان، وتضيع الحقوق. وكذلك موقف بعض رجال الدين من بعض المفكرين الذي اقترحوا أفكاراً لا ترتضيها الكنيسة، فنصبوا محاكم التفتيش، وادانتهم، وأعدمتهم. مما أدى إلى ردود فعل قوية تمثّلت في الثورات والتمردات ـ وأشهرها الثورة الفرنسية ـ مما افقد هذه المجتمعات الاستقرار، والتطور، والتكيف الإنساني مع الآخر.

ولعل من انضج التجارب السياسية ـ على مر العصور ـ تجربة الديمقراطية التي أفرزها العصر الحديث، فقد دعت إلى الحرية: حرية العقيدة والتفكير حرية العمل، حرية السكن... وبذلك منحت الإنسان حياة جديدة كريمة، لا قهر فيها، ولا تعسّف، ولا اضطهاد، وهذا ما دعت إليه أديان السماء، فهذا الإسلام يسعى إلى بناء الإنسان بناءً سليماً، ولا يتمّ ذلك إلّا في وضعه في جوّ من الحريّة الكاملة تتكامل فيه شخصيته، وبناؤه النفسي، وعقله الاجتماعي، ويتحسّس كرامته، ومصلحته، ومسؤوليته تجاه الآخرين. إنّ الإسلام يرفض العبودية بشتى أصنافها، وخاصّة عبودية التفكير والروح (لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرّاً)[1]، ودعا إلى عبادة الأحرار فإنها أسمى أنواع العبادات لأنها تحرّر الإنسان من رقّ الآخرين، ومن رقّ الغرائز، وتجعله يتسامى على غرائزه، وضروراته الماديّة، وهو بذلك يمارس الحرية في حياته، والاختيار في أداء واجباته.

إننا ـ كمسلمين ـ لا نرفض الديمقراطية نظاماً سياسياً، خاصة أنها لا تتقاطع مع عقيدتنا. والتزاماتنا الدينية، واخلاقياتنا الإسلامية، فهي آلية للحكم، وتبادل للسلطة سلمياً، والتشاور في حل مشاكلنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية، واعتماد مبدأ الأكثرية والأغلبية آلية في اختياراتنا مع احترام رأي الأقلية ومصالحها.

كل ذلك نقبله ـ نحن المسلمين ـ شرط ألا يتعارض مع جوهر عقيدتنا، وثوابتنا الدينية والفكرية، وإلّا تمسّ مقدّساتنا: رموزاً، وشعائر. وبذلك نعمّق تجاربنا، وننفتح على الآخر، فنقبله، ويقبلنا، ونوصل إليه أفكارنا بموضوعية وحيادية وشفافية، وسوف يقتنع بنا، وبعقيدتنا، لأنها تلامس فطرته، وتشبع تطلعاته الإنسانية في تفسير كثير من ظواهر الكون المغلقة.

---

(1) نهج البلاغة: شرح الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبدة/ 3، 51.

المحور الثالث

حوار الحضارات

الإسلام... وحوار الحضارات

الحوار الهادف ضرورة إنسانية.. فلابد من أجل تعميق التفاهم بين الأمم والشعوب أن نجعل الحوار ظاهرة حضارية تستحق منا أن نشيعها ونهيأ الأجواء المناسبة لنموها حتى نعزز ثقافة التعايش الذي يقودنا للالتزام بالقيم الحضارية ومبادئ القانون الدولي ونستغل الفرصة لإشاعة روح الحضارات والثقافات الانسانية على مر العصور.

إن الحوار بين الحضارات، حالة إنسانية متطورة تاريخياً وحضارياً، وهو اختيار العقلاء المدركين لمسؤولياتهم اتجاه مصير الإنسانية، التي عانت في خلال سيرها التكاملي من الصراع الدموي لفرض حالة واحدة قسرياً، وإلغاء التطلعات المشروعة لكل مشروع حضاري متنوع، ومتعدد. فـ (الحوار بين الحضارات) هو البديل عن النزاعات التي تؤدي إلى خلق الأزمات، وتقود إلى تدمير إنسانية الإنسان، وبالتالي تدمير أية حضارة تفرزها هذه الإنسانية، لتحل محلها شريعة الغاب.

إن الحوار بين الحضارات من الضرورات المؤكدة لاستكمال شروط الحياة الكريمة، المبنية على احترام إنسانية الإنسان، وإعلاء قيمه التي تقوم على مبدأ الاختلاف، والمغايرة والتعددية داخل إطار وحدة المجتمع الإنساني. والحوار ـ هنا ـ وسيلة من وسائل التعبير لوجهات النظر المتعددة، والرؤية المغايرة التي هدفها اجتراح أسلوب آخر، لا يتناقض مع الأساليب الأخرى بل يكون معها في حالة تفاعل، وتمازج، وتكامل وصولاً إلى نظرة كلية شاملة، تضم كل ما يمكن طرحه من وجهات نظر، ورؤى مختلفة، لكنها غير متقاطعة لأنه يجمعها هدف واحد.

إن مسؤولية قيام حوار مشترك، ـ مسؤولية ـ إنسانية مشتركة يتحملها ـ بصورة خاصة ـ صانعوا القرار السياسي والثقافي، وتتحملها النخب المثقفة،

والطليعة من المفكرين المبدعين المؤثرين، فإنهم ـ وحدهم ـ القادرون على توجيه العقول، وخلق الضروف المناسبة لقيام حوار جاد ومثمر ومسئول وتعزيز هذا الحوار ـ كما قلنا ـ مسؤولية إنسانية مشتركة، لا يمكن لطرف واعٍ، وغيور أن يتنصل منها، ويتخلى عن حملها ولو بنسبة ضئيلة.

إن البشرية في سيرها المديد عانت من صراعات دموية استنزفت طاقاتها، واستنفذت إمكاناتها، وشوهت صورتها، وانحرفت بها عن هدفها الأساس، وهو خلافة الإنسان لله على هذه الأرض. وعلة هذا الصراع هو التمييز العنصري، والاستعلاء العرقي، والتطرف الديني. والحوار ـ وحده ـ هو القادر على حل هذه الإشكالات من خلال القواسم المشتركة بين المجتمعات البشرية، وبتوجيه الأفكار والعقول إلى حقائق الكون والوجود، وإلى طبيعة الخلق بدايةً وأهدافاً.

وحين يستبصر المتحاورون بهذه الحقائق ويقفون على طبيعتها فإنهم يعكسون تصوراتهم الجديدة ـ الناشئة عن الحوار ـ على المجتمع البشري، فيبصرونه بالوقائع الجديدة، ويوجهونه ذلك التوجيه السليم الذي يؤمن بأن الإنسان هو الإنسان في كل زمان ومكان، وأنه من أصل واحد لا تمايز، ولا استعلاء بينهم، وأن الدين مصدر إشعاع فكري وروحي ووسيلة حب وتآخٍ، وتعايش. فعلى هذا يكون الحوار بين الأديان والحضارات وسيلة فعّالة للقضاء على كل ما يفرق البشرية ويخلق حالة من النزاع والصراع المدمر فيها.

إن كثيراً من الصراعات التي تؤدي إلى هدم القيم، وتقويض المجتمعات، ناشيء عن سوء الفهم بين البشر، وعن سوء الأفكار المسبّقة، وعن التجارب المتراكمة. التي ينقلها مغرضون لا يؤمنون بوحدة الجنس البشري، ووحدة طريقه، وأهدافه. وهذا كله يقود إلى انعزال المجتمعات البشرية بعضها عن بعض، وانكماشها، بل انغلاقها على نفسها مما يؤدي بها إلى نشوء أفكار وتجارب، وممارسات خاصة بها، تعمّق عزلتها، وتقطع صلاتها بغيرها من المجتمعات. إذن لابد من وسيلة تكسر بها القوقعة التي يعيش بها هذا المجتمع أو ذاك وإعادته إلى التفاعل والتمازج مع المجتمع البشري الواسع. والحوار هو هذه الوسيلة الوحيدة، فهو يساهم بدرجة كبيرة في التقارب بين الشعوب، والأمم، وفي إزالة الحواجز النفسية والفكرية بين المجتمعات البشرية مما يؤدي إلى إزالة سوء

الفهم، الناتج عن أحكام مسبّقة، أو تجارب تاريخية مريرة، أو جهل مطبق بالآخر.

ولكي يكون الحوار مثمراً ومجدياً فلا بد من توجيهه إلى الاهتمام بموضوعات واقعية ومسائل تشغل الإنسانية وإيجاد الحلول الناجحة لها لا أن يوجه الحوار إلى معالجة مسائل عقيمة لا تنفع الإنسان في حياته اليومية وهي غير قادرة على حل مشاكله الأزلية.

وبهذا يمكن الاستفادة من التجارب الحضارية العميقة للأمم والشعوب ونستفيد ـ مثلاً ـ من التوجه العقلي، والفلسفي لأمة مثل اليونان ونستفيد من القيم الروحية والأخلاقية لحضارة الصين التي هي نتاج البوذية، ونستفيد من التكامل الروحي والفكري والأخلاقي التي أفرزتها الأديان السماوية. ونستفيد أخيراً من الانجازات المادية العلمية والتكنولوجية للحضارة الغربية الحديثة.

إن هذا التكامل الحضاري بين الشعوب والأمم يجب أن يكرس لخدمة الإنسان وبناء شخصيته السليمة، وحل مشاكله الأزلية: فرداً، أو مجتمعاً، والإجابة عن أسئلته الحائرة.

لا يمكن إشعار الآخر بقيمة نفسه ولا ثقل شخصه ولا جدوى عطائه إن لم تحترم شخصيته، ويقدر عطاؤه، وكذلك العلاقة بين الأمم والشعوب والحضارات ينبغي أن تقوم على الاحترام: احترام كينونتها، واحترام انجازاتها، واحترام خصوصيتها، وعند ذلك فإنها ـ الأمم والشعوب والحضارات ـ تكون قادرة على الأخذ والعطاء والتبادل والإقناع، والإفادة والتكامل. فإن قيام الحوار بين الأديان والثقافات على قاعدة الاحترام المتبادل بين المنتمين لهذه الثقافات ولهذه الحضارات جميعاً.

لهذا كله آمن الإسلام بحوار الحضارات، لا بصدام الحضارات، ولا بصراع الحضارات الذي قال به بعض المفكرين الغربيين.

إن التنظير الغربي للعلاقة بين الثقافات على أساس الصراع، يأتي منسجماً مع المكوّنات الفلسفية للعقل الغربي، فهو ـ أساساً ـ يجعل الدافع للرقي والتقدّم دافع صراعي، يتجسّد ذلك مثلاً في:

أ - نظريات أجمع عليها الغرب حول الصراع بين الإنسان والطبيعة.

ب - صراع النزعة الفردية مع النزعة الجماعية في نظريات إدارة المجتمع.

جـ - صراع الشمال والجنوب على الثروة والأسواق وموجبات النموّ الاقتصادي.

هذا الصراع دفع اليمين الغربي المتأثر بالمسيحية المتأثرة بالصهيونية إلى طرح مفهوم صراع الحضارات مقابل أطروحة الإسلام: **أطروحة التكامل**:

1 - بين الإسلام والطبيعة.

2 - بين الإنسان والله.

3 - بين الفرد والمجتمع.

4 - بين التجمعات البشرية.

5 - بين الأديان والثقافات.

لذلك فإن نظرية صراع الحضارات لا تخدم مستقبل الإنسانية، ولا تنسجم مع التاريخ وتطور الثقافة، لأن المروّجين لها ينطلقون من تصور متطرّف مفرط في إيمانه بالتفوّق الغربي خطاباً وفكراً ومادة، لهذا فهم ينظرون لهذه الحضارات الأخرى على أنها مصدر تهديد مستقبلي لسيادة الغرب على العالم.

لقد حقن (هنتنغون) الممثّل لاتجاه اليمين المتطرف عقول مثقفي نهايات القرن العشرين بما يمكن تسميته بـ (فيروس الصراع الحضاري) فعمّ الوباء شتى بقاع الأرض، وقد أسهم في هذه الهستريا الثقافية العامة المتفاعلة حال القلق الغربي من الفراغ الاستراتيجي الذي خلّفه انهيار الاتحاد السوفيتي وتصاعد المد الإسلامي[1]. هذا التوجه شكّل حافزاً من الحوافز لجهات متطرفة، فقدت الوعي التاريخي للأهداف الإنسانية للإسلام أن تقابل العنصرية الصراعية للغرب بعنصرية صراعية إسلامية، واستعانت بالسلفية القتالية تمثلت بالنزعات المتعصبة في التاريخ، وحقنت العالم الإسلامي بكراهية الغرب بكل ما فيه.

---

(1) لاحظ مفصلاً الدكتور سمير سليمان: العلاقات بين الحضا ات/ رسالة التقريب، العدد 25.

إن التصور الذي يقدمه (هنتنغون) مؤسّس على مفهوم معيّن للحضارة، فهو يرى أن لكل حضارة رؤية معيّنة للكون والإنسان وللإله، وللأخلاق، وللسلطة وللأسرة، وللدولة، وللصراع، ولمصادر التهديد. وهذه الرؤية متجذّرة في كل مجتمع ومنها ينبع تمايز المجتمعات بعضها من بعض. وإذا كانت اللغة والتاريخ المشترك ووحدة المصير تمثّل بالنسبة إلى كل مجتمع أبرز عناصر التمييز، فإن (هنتنغون) يرى أن الدين يمثّل العامل الأبرز من بين عوامل الاختلاف والصراع، لأنه المكوّن الذي تلتئم حوله وتصبّ فيه جميع الروافد الثقافية والحضارية ولكن ما دام (هنتنغون)، يزعم أن لكل حضارة أساساً دينياً يقوم عليه، ويمثّل المحرّك الأساس لها نحو فضاء الحوار والصراع، فما هو يا ترى الاتجاه الديني الذي تأسس عليه الحضارة الغربية؟

إن هذا الاتجاه ـ في نظره ـ يتمثّل في قيم متعددة الألوان، لكنّها تصب في هدف واحد، هو رفاهية الإنسان، وأهم هذه القيم في البنية الفوقية هي: الديمقراطية والعلمانية والليبرالية، والاقتصاد الحر، وحقوق الإنسان. أما البنية التحتية، فهي المسيحية البروتستانتية.

إنه جعل كفّة (الآنا) الغربي المادي العلماني راجحةً بكل ما سواها، كما أن عليها أن تصارع لتؤكد هذا التفوّق. وبالتالي: فالصراع الحتمي القادم في نظره، ليس ذا طبيعة أيديولوجية سياسية، أو اقتصادية، ولكنه حضاري، سيُعمل من خلاله على تحريك كل مسبّبات الصراع، ثم توظيفها لإعادة رسم الخريطة الكونية.

إن التجارب التاريخية للإنسانية، أثبتت بما لا يقبل الشك بطلان القول: إن الصراع بين الحضارات يمكن أن يحسم عسكرياً، أو بالقوة الغاشمة: قوة السلاح،ففي أرضنا الإسلامية التي غزت من أقوام شتى وعلى مدى عقود وقرون، حسم الصراع لصالح الإسلام، قد فُلّت القوة العسكرية واضمحلت، بينما بقي الإسلام بكل قيمه وانجازاته، الحضارية قائماً، ومشعاً، ومتطاولاً، بل أكثر من هذا: إن القوة العسكرية التي غزت أرض الإسلام بهدف القضاء عليه وعلى المسلمين وحضارتهم، سرعان ما ذابت بالإسلام، وأصبحت جزءاً منه فآمنت به ودعت إليه، ودافعت عنه.

إذن: فإن الصراع حسم إسلامياً ـ بحسب المفاهيم الإسلامية ـ للطرف

الذي يفهم طبيعة الخلق، وسنن الكون، ويهتم بإعلاء إنسانية الإنسان، ويجعله جزءاً من حركة الكون المحركة بقوانين إلهية لا تخطأ، ولا تحيد. وإذا توهم البعض واغتر بانتصارات وهمية، وانخدع بمظاهر كاذبة، فإنها حالة طارئة سرعان ماتزول وتندثر، وتبقى سنن الله في أرضه وخلقه هي الفاعلة ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: 62]

إن مقولة (الحوار بين الحضارات) تتضمن الكثير من مواصفات الرغبة في التقارب، وإبداء حسن النية اتجاه الأخر والانفتاح عليه، لكنها تخلو من كثير من الشروط الواجب توافرها في الحوار، وأهمها: فهم الأخر، واحترام كينونته. فإن الحضارة الغربية القائمة الآن ـ التي تطرح فكرة حوار الحضارات، وصراع الحضارات ـ هي غير راغبة في فهم الطرف الأخر المحاور، وإذا أرادت أن تفهمه فإنها تفهمه بمقاييسها الخاصة، وهي مقاييس قاصرة لأنها تمثل خصائص الحضارة الغربية المادية القائمة على الصراع والغلبة واحتواء الآخر. كما أن هذه الحضارة الغربية ـ التي تحاول التسيّد على العالم بقيمها ومفاهيمها ومعاييرها ـ لا تحترم الطرف الآخر المحاور، وتنتقص منه ومن انجازاته الحضارية، فهي تستعلي عليه. وبهذا يفقد الحوار شرط التوازن والتكافؤ، ومن ثم يفقد الحوار جديته وجدواه. إن إلغاء الآخر، أو الاستهانة به فضلاً عن كونه يفشل الحوار ويفقده جديته، وجدواه فان له ردود فعل سلبية، ونتائج سيئة، تحول حالة السكون القائمة إلى حالة من رفض الواقع الذي يقود إلى الصراع الدموي الذي يستنزف الإنسانية.

إن المسلمين الواعين بحقائق دينهم الإسلامي، لا يشعرون بالاتضاع تجاه الحضارات الكبرى وخاصة الحضارة الغربية الحديثة وذلك لطبيعة توجههم الإنساني، فهم يؤمنون بأنهم يحملون رسالة الله العلي القدير إلى الإنسانية جمعاء، وهم يعتقدون بأنهم يتحلون بأعظم الفضائل ويبشرون بها، وهم يشعرون بأن حضارتهم التي بنوها، ويسعون إلى بناءها من جديد قائمة على تحقيق التوازن بين متطلبات الروح ومتطلبات الجسد، وهم مقتنعون بأن حياتهم الحضارية التي يعيشونها بالدنيا موصولة بعالم أخروي يعلي من شأن الإيمان، والإنسان، والسلوك المتسامي الذي يوصلهم برضا الله. ومن أجل هذا كله فقد عجزت الحضارة الغربية الحديثة عن فهمه، وتقديره، لهذا فهي تطير بجناح واحد. ومن

يطير بجناح واحد لابد له من أن يسقط ويتهاوى. كما قال بذلك بعض الفلاسفة.

وهكذا فإننا نستطيع القول: إن المسلمين باتوا يعرفون مشروعهم الحضاري الإلهي معرفة صحيحة، ويثقون به ثقة تنزههم عن عقد النقص والانسحاق أمام الأخر، وتوحدهم حول لواءه، وتجعلهم يجيدون تحريك وسائله، وأدواته[1].

إن موضوع الحوار بين الحضارات يُبتنى على أسس، وحقائق، أهمها:

1 - إن الاختلاف والتعدد والتنوع، سنة الخلق، وناموس الكون، هي سر الوجود، وباعث الإلهام، والمحفز على الإبداع والابتكار، ترى الاختلاف بين طبائع البشر وصورهم، والتنوع في صنوف الحيوان ووظائفه، والتعدد في الصنف الواحد والجنس الواحد، كما ترى ذلك في الطبيعة: حجراً، وشجراً، وشمساً، وقمراً، وليلاً، ونهاراً، حراً وبرداً، وظيفةً وأداءً وهذا الاختلاف والتنوع لابد من أن ينعكس على الإنسان، وصور حياته اختلافاً وتنوعاً.

فالتعددية مكسب كبير وعلى البشرية أن تستثمرها في التطور والتقدم والإثراء والإبداع، وهي أفضل ضمانة لقدرة الإنسان على إعطاء أجوبة مناسبة للتحديات المختلفة.

2 - إن أي محاولة لإنشاء حوار للحضارات يجب أن ينظر إلى الإنسان وفق نسق طبيعي. فالإنسان جزء من هذا الكون، ويخضع لسننه، وقوانينه، وهو لا يقف وحيداً في هذا الكون وأنه يرتبط بالله خالقه برباط الرحمة والرعاية، والالتزام بشرائعه وهو يرتبط مع أبناء جنسه من بني الإنسان بروابط الإنسانية والألفة والمصلحة وفق ناموس اجتماعي. وأن كل ما أنجزه من حضارات ومدنيات هو إفراز لوجوده الإنساني، وأن أي انحراف عن طبيعة الإنسانية ـ التي ركبها الله فيه ـ يعني انهيار ما بناه وأسسه، لأنه قائم على شفا جرف هاوٍ.

3 - إن الدارس لتاريخ الإنسان يكتشف خطاً متميزاً، وواضحا في حياة الإنسان، يشكل ملمحاً من ملامح تحضره متمثلاً بالحوار. فالحوار تقليد ثقافي قديم. وهو أسلوب مارسته كل الحضارات سواء من حيث التأثر بغيرها أو التأثير

(1) يلاحظ لذلك مفصلاً: الدكتور سمير سليمان: العلاقات بين الحضارات/ رسالة التقريب، العدد 25.

فيها. وما الحياة الفكرية في اليونان إلا نتاج حوارات فكرية عميقة بدءاً من سقراط، وصولاً بأرسطو مروراً بأفلاطون، وما المناظرات الفكرية في البيئات العقلية في العالم الإسلامي كالبصرة، والكوفة، وبغداد، والتي كانت تموج بمفكري الشيعة والمعتزلة، وبفلسفات صاخبة إلا نموذج آخر من أساليب الحوار المستند إلى تقاليد إسلامية رصينة وثابتة. ولنا في رسول الله ﷺ مثل كريم حين دخل مع رهبان نجران في حوار كريم. ولنا في الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام مثل آخر حين حاور أحبار اليهود ورهبان النصارى في مسائل دقيقة راع فيها أصول الحوار وآدابه كما أثبتها الشيخ الصدوق (ت 981هـ) في كتابه (عيون أخبار الرضا). وامتدت الحوارات على مساحه زمنية واسعة في تاريخ الحضارة الإسلامية بين المسلمين و من خالفهم في المعتقد فكانت نصوصاً غنية بالفكر، ناطقة بالبحث عن الحقيقة.

4 - إن الانتقال الحضاري أمر مألوف في تاريخ البشرية وحياتها فحين تضمحل حضارة هنا لعوامل وأسباب تنشأ حضارة أخرى لدواع وأسباب. وقد تختلف حضارة عن حضارة في الخصائص والأهداف، ولكن ذلك لا يعني غلبة حضارة على حضارة، وطغيان حضارة على أخرى لدرجة انطماس معالمها. فحين قامت الحضارة الإسلامية بمفاهيمها، تراجعت حضارات أخرى كالهندية والفارسية والرومانية، وذلك لعوامل انبعاث الحضارة الإسلامية المتمثلة بالدين الجديد الذي كتب الله لحامليه النصر والتأييد والإنسياح في الأرض. ولكن الحضارة الإسلامية لم تحكم على غيرها من الحضارات بالاندراس والأنطماس، بل أنها استفادت من كل الميراث العلمي لهذه الحضارات وصهرتها في بوتقه الحضارة الإسلامية، وطبعتها بطابعها. وهذا لون من ألوان التكامل الحضاري الذي لا يلغي غيره وإنما يبحث عن ايجابيات الغير، فيجعلها جزءاً من النسيج الحضاري مع الحفاظ على الهوية الخاصة.

5 - إن الدين جزءاً من شخصية الإنسان وتركيبته النفسية ولا يمكن للإنسان والمجتمعات البشرية حتى البدائية منها أن تستغني عن الدين في بناء حياتها، فهو غريزة متأصلة في حياة الإنسان، وتركيبته النفسية، وبنائه الاجتماعي ولهذا قامت حضارات على الدين وباسم الدين. فالحضارة الغربية الحديثة على الرغم من علمانيتها وابتعادها عن المسيحية، مازالت تفتخر بكونها مسيحية، وتجعل الديانة

المسيحية جزءاً مهماً من تكوينها. وكذلك الحضارة الإسلامية قامت على الإسلام وانطبعت بمفاهيمه وقيمه، وأخلاقياته. لهذا كان الحوار الديني جزءاً من الحوار الحضاري، وحوار الحضارات قائم في جزءٍ أساس منه على حوار الأديان فضلاً عن أن الدين ـ بحد ذاته ـ مظهر من مظاهر التحضر لما يفرضه على الإنسان من تسامٍ في التفكير، وترفع في التعامل واستقامة في السلوك.

والحوار وسيلة ناجعة لعلاج مشكلة الاختلاف، ولا شك أن أفضل الأسس اللازمة للحوار، هي ما جاءت به الأديان التي قدّمت للبشرية مفاهيم الاخوّة والتعاون والتسامح، والحرية والعدالة والمساواة، وربطت كل المفاهيم بالإيمان بوحدانية الله، ووحدة الجنس البشري.

إن وحدة الجنس البشري التي رسختها الأديان، استلزمت توسيع دائرة التعارف والتفاهم والتعاون، ولا سبيل إلى ذلك إلّا بالحوار المستمر. وعلى هذا الأساس فإنه لا محرّمات في الحوار من حيث الأفكار، ولا من حيث الاسلوب في طرحها، فلكل من الطرفين المتحاورين التزام الحوار العلمي بعيداً عن الجدل الباطل. فإن التزام العلم يسع الناس جميعاً.

6 - لابد لكل عملية حوار من أهداف مرسومة، ومناهج واضحة، وخطط مدروسة، لكي يأتي الحوار ثماره، ولكي يصل إلى نتائجه. وبخلاف ذلك يكون الحوار لغواً، وعبثاً لا طائل تحته، وربما يكون الحوار وسيلة لتحقيق مصالح خاصة، أو يكرس لتحقيق أهداف مبيتة، أو غامضة، أو لتنفيذ خطط ومشروعات مشبوهة، أو ذريعة لإحداث فتنة أو تصدع في البناء الاجتماعي، أو قناة لإيصال أفكار شاذة، فعلينا إن نتعامل مع عملية الحوار بوعي، ويقضه، وتنبه،حتى نحقق من الحوار هدفه، وحتى نفوت الفرصة على المغرضين الذين يريدون تحقيق أهداف ضيقة من الحوار.

7 - قد يجري الحوار بين طرفين غير متكافئين: ثقافةً، أو فكراً، أو سلطةً، أو قوة مادية أو معنوية. ومعنى ذلك: إن الحوار لا يجري في مناخ مناسب، فيكون طرف هو الأقوى والطرف الأخر، هو الأضعف، فتفرض عليه أمور ليست في صالحه، كما في حال الشعوب المستعمرة مع الاستعمار، فإنهما طرفان غير متكافئين، حاكم ومحكوم، غالب ومغلوب. فيفرض الطرف الأول ما

يشاء من أفكار ومفاهيم ومشاريع على الطرف الآخر، فيتقبلها مستسلماً ليس له الحول لردها، ومعارضتها. ومن هنا يأتي اختراق السيادة الثقافية بالتدخل في منهاج تعليمها ـ مثلاً ـ وتوجيه منظومتها الأعلاميه، وترتيب علاقتها بفئات المجتمع، وتحديد نمط معيشتها، والتدخل في وضع قوانينها.

إن اطروحة (حوار الحضارات) لم تخلُ من جدل، ونقد من جانب المفكرين المسلمين لكنهم لم يتّفقوا على موقف موحّد: فمن رافض للفكرة من أساسها لعدم واقعيتها، ومن مؤيد للفكرة بغضّ النظر عن الواقع الحالي للأمة، وهناك فريق ثالث لا يستوعب المعنى المقصود من حوار الحضارات.. وبدون وجود قاعدة مشتركة بين المتحاورين من: الإيمان بالتعددية، وعدم هيمنة حضارة على أخرى، بحيث يمكن لكل طرف من تفهم الطرف الآخر والتعايش معه بدلاً من الصراع، لا يمكننا الحكم على هذه النظرية ـ أي نظرية الحوار بين الحضارات ـ سلباً أو إيجاباً.

إن الصراع الحضاري هو صراع هويات ثقافية في محتواه، وبما أن رسالتنا الإسلامية قادرة على خوض غمار الصراع الحضاري فإن علينا نحن أولاً أن نسقط من هويتنا الإسلامية جميع ما لحقها من تزمّت وتعصّب، وسوء فهم من قبلنا، أو من قِبَل الأطراف الأخرى، وأن نعيد إليها وهجها الإنساني الحضاري الذي ساهم في صنع الحضارة البشرية ومدّها بعناصر البقاء والديمومة والاستمرار، ولا يأتي هذا إلّا من خلال إشاعة التسامح والحوار بيننا ـ أولاً ـ كمسلمين قبل أن ننطلق في حوارنا نحو الآخر.

إننا حين نقول بالحوار الحضاري، إنما نعني الانفتاح الحضاري، ومن ثم التكامل الحضاري بين الأمم والشعوب. فإن القرن الواحد والعشرين بما تهيأ له من قوة اتصال بين شعوبه، وسرعة تلقي المعلومة وما يبشر به من تعددية وحرية دينية وسياسية كفيل بقيام حوار حضاري يكون بديلاً عن الصراع الحضاري الذي عانت منه الأمم والشعوب طيلة حقب عديدة. والإسلام الواثق من نفسه، والمتحضر في ذاته والقادر على الأخذ والعطاء، والمؤمن بحرية الرأي والعقيدة، لابد أن يستجيب لهذا الحوار الحضاري لكي يحقق التكامل الحضاري لمصلحة البشرية جميعاً خاصة أن هذه البشرية أحوج ما تكون لأخلاقياته، وعقلانياته.

الحوار وصدام الحضارات

التاريخ البشري، هو مجموع الحضارات المتزامنة، والمتعاقبة على الأرض. هذه الحضارات نشأت في ظروف متباينة، وفي بيئات مختلفة، وفق قوانين التطور البشري عقلياً، وقيمياً، ومادياً، فلابد من أن تنشأ مختلفة، متباينة تبعاً لذلك. لكنّ الجامع بينها أنها حضارات إنسانية. أي: من صنع الإنسان. وبما أن جوهر الإنسان واحد. وتطلعاته مشتركة، فلابد من أن يكون هناك عناصر مشتركة بين هذه الحضارات ومما عزّز الشراكة بينها أنها تستقي من قيم واحدة مشتركة هي قيم السماء المتمثّلة بالأديان السماوية الصادرة من نبع واحد، وفيض واحد. هو الله سبحانه وتعالى.

ولكن جنوح الإنسان نحو الاختلاف، جعلها حضارات تتصادم أحياناً مع بعضها في: القيم والمفاهيم، والآليات والتطلعات مع كونها يأخذ بعضها من بعضها الآخر، ويقبس من نوره، ويرث لاحقها سابقها، وينمّيه، ويطوّره، ويضيف إليه، كما في حضارات بلاد الرافدين، وحضارات وادي النيل، والحضارة اليونانية، ووارثتها الحضارة الرومانية، والحضارة الإسلامية، ولاحقتها الحضارة الأوربية.

وربما يكون الصدام بين هذه الحضارات ـ أحياناً ـ صداماً بين القيم والمفاهيم، والتطلعات والرغبة في الانسياح. وقد يكون هذا الصدام مباشراً لأسباب سياسية، أو اقتصادية، أو حبّ الملوك والرؤساء لتوسيع ممالكهم والرغبة في الغلبة والسيطرة.

وعلى الرغم من كل ذلك تبقى الحضارات الإنسانية في تفاعل مستمر، فيأخذ بعضها من بعض، وكذلك تبقى في صدام مستمر ويكون البقاء للأصلح. وهذه سنن الله في الأرض. وهذه قوانين التاريخ تنطق بذلك.

الدعوة إلى الحوار مع الآخر في مقابلة صدام الحضارات

(صدام الحضارات) مصطلح حديث، يعبِّر عن حالة سياسية أكثر مما يعبِّر عن حالة حضارية. ذلك أن بعض الدول الكبرى تريد أن تفرض هيمنتها السياسية على الدول الأخرى، فعمدت إلى هذا المفهوم لالغائها حضارياً بعد أن عجزت عن الغائها واقعياً. فكما أن الحضارات تتصادم قيمياً، فإنها تلتقي إنسانياً. فوجود عناصر الاختلاف لا يعني الصدام والالغاء، فإن عناصر الالتقاء أكثر، وأعمق، وأدوم. وما مفهوم العولمة في بعض جوانبه أو تفسيراته إلّا دعوة لالغاء الآخر سياسياً، واقتصادياً، وفكرياً، وبالتالي حضارياً. وهذا غير ممكن، ولا مقبول، فإن لكل أمة من أمم الأرض شخصيتها الخاصة بما تحمل من قيم، ومفاهيم، وعادات وتقاليد، وأهداف وتطلعات، لا يمكن محوها والغاؤها بحالٍ، ولكن يمكن لأمة من الأمم أن تستفيد من إنجاز حضارات الأمم الأخرى، وتستعيد بعض ما تراه صالحاً لها، موافقاً لقيمها، غير متعارض مع قناعاتها. وهذا ما نراه في العصر الحديث فيما حدث للأمم الإسلامية حينما احتكّت بالحضارة الغربية. فقد انقسم المسلمون ثلاثة أقسام: منهم من يرفض الحضارة الغربية جملةً وتفصيلاً لأنها تتعارض في بعض مظاهرها مع جوهر العقيدة الإسلامية، وما تفرضه من سلوك إنساني متميِّز.

ومنهم من قبل الحضارة الغربية جملة وتفصيلاً، وألغى شخصيته، وذابت في مفاهيم الغرب وقيمه وانجازاته الفكرية والعلمية والتطبيقية.

وقسم ثالث وقف موقفاً توفيقياً انتقائياً، فحافظ على شخصيته الإنسانية الحضارية معتزاً بعقيدته الإسلامية، وبما تستلزمه من قناعات وسلوك، آخذاً من الحضارة الغربية ما يفيده، ويثري حضارته، ويضيف إلى ما عنده من انجازات فكرية، ومنهجية وعلمية، وتقنية. فهو لا يعيش حالة الانغلاق على الذات إلى درجة الجمود، ولا يعيش حالة الانفتاح على الآخر إلى درجة الذوبان فيه، وإنما يعيش حالة الأخذ والعطاء، والقبول والرفض بوعي كامل، وبصيرة نافذة محافظاً على الخير الذي عنده، مضيفاً إليه الخير الذي عند الآخرين.

ففي مواجهة (صدام الحضارات) يكون هنا (لقاء الحضارات) وتكاملها. فكيف يكون ذلك؟

يكون ذلك بالحوار مع الآخر، حواراً متكافِئاً، إيجابياً في آلياته وأهدافه، ليحقّق النتائج المرجوّة منه. ذلك أن مفهوم (صدام الحضارات) يراد منه إلغاء الآخر حضارياً، وهذا الآخر ـ في رأي الآخر ـ ضعيف متهالك، متخلّف متداع، فلابد ـ إذن ـ من أن ينتهي ويموت، وينقرض. وهذا ما ترفضه سنن الكون، ومنطق الأشياء، بينما يكرس (لقاء الحضارات) الابقاء على ما هو صالح ومفيد وأصيل. وإيجابي، وإنساني.

وتاريخ البشرية يحدّثنا بذلك فكثير من مكوّنات الحضارة الغربية الحديثة يعتمد أساساً على الحضارات الأخرى: اليونانية، والرومانية والديانة المسيحية، والحضارة الإسلامية. وكثير من إشراقات الحضارة الإسلامية ـ في عهدها الذهبي ـ هو من فيض الأمم التي دخلت الإسلام، وآمنت به، فاصطبغت انجازاتها الحضارية بصبغة الإسلام، فأضيفت إليه.

إذن ليس هناك تقاطع بين الحضارات، وإنما تواصل وانسجام لكونها حضارات إنسانية تنبع من طبيعة الإنسان، وتلبي احتياجاته العقلية والروحية والمادية.

فالانفتاح على الآخر، واحترام قناعاته، والحوار معه ـ على هذا الأساس ـ هو السبيل الوحيد للتعايش معه، والأخذ منه، ومبادلته العطاء، وإغناء الحضارة الإنسانية بكل قيم الخير، والجمال، والحرية، والإبداع. فالحضارة الغربية الحديثة ـ التي تمثّل أرقى ما وصلت إليه الحضارات في الانجازات المادية ـ ما هي إلّا نتاج الإنسان، وحضاراته السابقة، وتراكمات إنجازاته. وإبداعاته، فأرسطو ما زال حاضراً فيها، وابن سينا ما زال حاضراً فيها، ونيوتن ما زال حاضراً فيها، وكذلك فيثاغورس، وجابر بن حيّان، والخوارزمي، وابن رشد، وغيرهم من أفذاذ حضارات الأمم، والآن كل العقول الكبيرة من مختلف الأمم والشعوب تساهم في بناء حضارة الإنسان الحديثة، وإغناء حياته، وتيسيرها.

وحين اضمحلّت وضعفت الحضارة الإسلامية بغلبة الطابع العسكري عليها، وضعف الجانب العقلي الابداعي، انبثقت الحضارة الغربية بديلاً عنها.

إننا لا نقول بموت الحضارات، وإنما نقول بذوبانها في حضارة جديدة وبقاء عناصرها الذاتية، وغلبة الطابع العام للحضارة الجديدة، وصبغتها. كما

حين تضمحل قوى (الجدّ) ولكن صفاته تمتد، وتستمر بالأبناء، والأحفاد، وتنتقل إلى الآخرين من خلال التلاقح والتزاوج والاتصال.

فالذي يطرح مفهوم العولمة. لابد من أن يتنبّه إلى هذه الحقيقة، وأن يدرك بأن حضارته المتغلبة ـ اليوم ـ بمفاهيمها، وقيمها، وانجازاتها المادية، ما هي إلّا وريثة الحضارات السابقة منذ أن وطأ الإنسان الأرض إلى يومنا هذا.

كما عليه أن يدرك أن حضارته المتغلبة بمناهجها، وعلومها، وتقنيتها، هي بحاجة إلى بعض ما في الحضارات الأخرى، وحتى البدائية منها، فمكتشفوا العالم الجديد (أمريكا) استفادوا من حضارة ساكنيه الأصليين (الهنود الحمر)، ومستعمرو (افريقيا) تعلّموا من شعوبها البدائية الشيء الكثير. وغزاة (العالم الإسلامي) أخذوا عنه كثيراً من القيم والمفاهيم الإنسانية التي هي خصيصة من خصائص الامم الإسلامية.

وأمر آخر لابد من أن يدركه هؤلاء ـ دعاة العولمة ـ وهو أن لكل أمة حضارة تنطبع بطابعها المحلي الخاص: زماناً، ومكاناً، وإنساناً. وهذا الطابع المحلي لا يمكن أن ينمحي أو يزول، مهما كانت عناصر الحضارة الغازية قوية ومؤثّر ونضرب مثلاً لذلك باليابان، وماليزيا، والصين، فقد حافظت هذه على محليتها في عاداتها وتقاليدها وقيمها، ونسيجها الاجتماعي، وتطلعاتها الروحيّة.

والذي يدرس تاريخ الحضارات الإنسانية، يرى ظاهرة عجيبة، وهي ظاهرة النمو الدوري للحضارات، فحين تضمحل حضارة هنا، تنبثق حضارة هناك تكون بديلاً عنها، تختلف معها في القيم والمفاهيم، والتطلعات مع الحفاظ على الجوهر الإنساني العام.

والمتأمل بتاريخ الإنسان وحضارته، يكتشف أن الحضارة ـ أي حضارة ـ لا تموت، ولا تنقرض، وإنما تضمحل تدريجياً ـ لأسباب ذاتية وموضوعية ـ وتذوب في الحضارة الجديدة المنبثقة عنها وعن غيرها، كما يذوب الملح في الماء، فيكون جزءاً منه، ويمنحه طبيعته الخاصة. كما نرى ذلك في حضارات وادي الرافدين، والحضارات المصرية، والحضارة اليونانية التي أعقبتها الحضارة الرومانية. وكما في الحضارة الإسلامية، التي أندمجت فيها كل حضارات الأمم التي دخلت الإسلام، وذابت فيها، فأعطتها تلك الأطياف المتنوعة الجميلة.

إن على البعض أن يدركوا كلّ ذلك، وأن عليهم أن يتنازلوا عن فلسفة (صدام الحضارات) ويستعيضوا عنها بفلسفة (لقاء الحضارات) وأن ينبذوا مفهوم (الصدام) لأنه يوحي بالعنف والتسلّط، ويؤمنوا بمفهوم (اللقاء) الذي يوحي بالتعارف والتآلف والتعايش. وليكن السبيل إلى ذلك هو الحوار الإنساني الجاد المثمر، الذي يوصل إلى نتائج ايجابية أهمها الإيمان بأن حضارة الإنسان واحدة في جوهرها لأنها صادرة عن الجوهر الإنساني، وهي باقية ومستمرة وممتدة بالحفاظ على وحدتها ما دامت محافظة على جوهرها الإنساني مع الأخذ بالاعتبار طبيعة التغيرات العميقة في مظاهر الحياة، وأشكالها، وأساليب تشكّلها والتعبير عنها.

عوائق الحوار مع الآخر

إن لكل عمل حوافز، تدفع إليه، وبه، كما أن لكل عمل عوائق تقعد به، وتمنع عنه. والحوار عمل حيوي حساس ذو غايات نبيلة فعلى هذا فإن حوافزه نبيلة، ودوافعه إنسانية حضارية. ولكنه ككل عمل جادّ تقف في وجهه موانع وعقبات، وتبطئ به وعنه عوائق حقيقية، ومفتعلة منها:

1 - الانغلاق على الذات، والتعصّب للفكرة التي يؤمن بها طرف من أطراف الحوار، وإيمانه أنه على حق، وغيره على باطل، فلا يستجيب ـ على هذا ـ لأي لون من ألوان الحوار، كما نرى هذا في بعض الجماعات الدينية المتشددة في عالمنا الإسلامي.

والتعصب آفة تقتل صاحبها، ويتعدى أثرها إلى الآخرين، ومن مسبّباته الجهل: الجهل العلمي، والجهل باسلوب التعامل، والجهل بما يترتّب عليه من نتائج وخيمة تؤدي بإنسانية الإنسان وبصيرته إلى الهاوية، والجهالة الأخلاقية...

2 - إلغاء الآخر تماماً، وعدم الاعتراف به، وبأفكاره حقاً كانت أو باطلاً، وعلى هذا فلا وجود للطرف الآخر، ولا احترام لما يؤمن به، وتجاهله تماماً. وهذا الإلغاء نقيض للوجود الإنساني الواعي. فوعي الإنسان بوجوده، يترتب عليه الوعي بوجود الآخر، والوعي بوجود الآخر هو دليل على وعي الإنسان بوجوده. فهما أمران متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر. إذن إلغاء

الآخر إلغاء للذات، والغاء الذات يعني الموت الحقيقي: موت الأفكار، وموت الاحساس، وفناء الغاية من الوجود، والكينونة.

3 - التعالي على الآخر، والاستهانة به، وبعقائده ومواقفه مما يجعل الحوار ـ إن حدث ـ غير متكافئ، ولا متوازن، فلا يوصل ـ على هذا ـ إلى نتائج ايجابية مثمرة. كما نرى ذلك في عالم السياسة بين الأقوياء والضعفاء.

والتعالي على الآخر ـ في حقيقته ـ مرضٌ مستعصٍ، متجذّر للشعور بالنقص، وبعدم إدراك المرء حقيقته، والإحاطة بغاية وجوده، وإنما هو يعبّر عن فقدان الوعي، وقصور الإدراك، وسطحية التفكير، وظلامية المشاعر، وضبابية الرؤية التي تحجب عن الإنسان حقيقته قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: 13].

4 - افتقاد آليات الحوار الجاد بين المتحاورين، أو عدم تحديد الهدف من الحوار، أو انعدام الظروف الكفيلة بإنجاح الحوار عند انعقاده. ولكل عمل آلياته، فإن توافرت أنجز العمل على خير صورة، وحقّ الهدف منه وكذلك الحوار. فإن آلياته ضرورية لتحقيق الهدف منه. وهدف الحوار هدف متسامٍ لأنه يتعلق بحياته، ومقدّساته، وصيرورته، وإغناء وجوده، فلابد ـ إذن ـ من توفير كل الآليات الضرورية لانجاحه، وذلك يعني تحديد مصيره الدنيوي، ومصيره الأخروي، وهما ما يطلبه الإنسان في كل مكان وزمان وعمل.

5 - عدم اعتماد المناهج العقلية في الحوار، وتقديم الحجة والبرهان والدليل في الحوار بين الطرفين، واعتماد المغالطة والغوغائية بدلاً من ذلك، مما يجعل الحوار عملية عبثية، لا يوصل إلى نتيجة بأي حال من الأحوال. وكما نراه اليوم في بعض الفضائيات التي تدير حواراً مذهبياً بين طرفين، غير متكافئين، فتعتمد التجريح والتهريج، واغفال الحقيقة التاريخية، وإسقاط الحجة العقلية، وإحلال التضليل والتدليس محلها. ذلك أنها لا تؤمن بالحوار وسيلة للتواصل والاقناع، وإنما تفتعله لكي يكون وسيلة للتضليل والتجريح وهذا ما يخرج بالحوار عن هدفه وهي الحقيقة.

6 - عدم الإيمان بأن الحوار ضرورة حتمية في عصرنا. فإن عوامل الصراع، والاحتكاك كثيرة، فلابد من إجراء الحوار بين الطرفين المختلفين، أو

الأطراف المختلفة. وإلّا يكن البديل عنه، النزاع، والصراع، والاقتتال، التي تؤدي جميعها إلى استنزاف القوى الإنسانية، وتدمير البنى المادية، وتخريب الضمائر، والعقول.

إن الذين لا يؤمنون بضرورة الحوار، يتجاهلون المخاطر التي تترتب على ذلك فالحوار تعبير عن الحالة الإنسانية المتقدّمة، وتجاهلها نكوص بالانسانية إلى حياة الغاب وصراع كائناتها المتوحشة. وهذا ما لا يرضاه أحد لنفسه، ولا لغيره. فعلى هذا يجب أن يكون الحوار وسيلتنا لحل مشاكلنا أو على الأقل التخفيف من حالة الاحتقان النفسي التي نعانيها.

هذه أهم عوائق الحوار، ويمكن معالجتها ـ أو معالجة بعضها ـ ببث الوعي الإنساني، والاحساس بالمصلحة العامة، أو باصطناع المناهج العلمية الحديثة في البحث والاستقصاء أو باستمالة النفس الإنسانية عاطفياً وسيلة لاختراق ما استعصى من قناعات عند الآخرين، أو العمل على تغيير البيئات الاجتماعية أو الطبيعية، وانماط المعيشة مما يساعد على تغيير القناعات، أو استحداث المرونة في التعامل.

تذليل العقبات أمام الحوار مع الآخرين

العقبات موجودة أمام الحوار مع الآخر شئنا أم أبينا، ولا يعني ذلك أن نقف مكتوفي الأيدي إزاء ذلك. ولا يعني ذلك أن يصيبنا الاحباط جرّاء ذلك، وإنما علينا أن نتأمل في هذه العقبات، ونتبصّر في سبل تذليلها، وذلك يكون:

* ببث الوعي بضرورة الحوار بين بني الإنسان، فهو الطريق الموصل إلى الحقيقة، وإلى السلام. وإلى التعايش مع الآخر، وإلّا فالبديل عنه الصراع والاحتراب والاقتتال، وما الحروب التي نشبت وتنشب كل يوم إلّا بسبب انعدام الحوار بين أطرافها.

ولعل هذا الأمر الحيوي من أهم الوسائل التي تُزال به عوائق الحوار، وتذلّل به العقبات ويكون ذلك بتربية الناس على احترام عقول الآخرين وآرائهم وتوجهاتهم وتثقيفهم في هذا الاتجاه. وقد عاش الإنسان في عصور تاريخية ممتدة، لا يعرف الرأي الآخر، ولا يملك حرية الاختيار، ولا القدرة على التعبير

عن رأيه وموقفه بل هو موقف الحاكم ورأيه فقط، والناس تبع لذلك، فهو الرأي الواحد، والنظرة الواحدية. كل ذلك لا يسمح بقيام رأي آخر. فعلينا تربية الناس. وتثقيفهم وهذا يتطلب وقتاً قد يمتد إلى أجيال، ويحتاج إلى جهود عظيمة وإلى صبر ومصابرة.

* تنمية الشعور بالإحساس بالآخر، وتعميق الإيمان بوجوب احترامه، عقيدة، وموقفاً، وإن خالفنا في الرأي والموقف، فيمكن أن يكون هو على صواب ونحن على خطأ، ويمكن أن يكون العكس.

والاحساس بالآخر أمر ضروري لابد منه لتحقيق إنسانية الإنسان والوصول إلى مبدأ التعارف ثم التآلف (من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم، ومن سمع رجلاً ينادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم)[1]، وعن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: (ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع)[2]، فالتعاطف الإنساني أمر مطلوب وهو طريق لقيام أي حوار ايجابي بنّاء يكرّس بناء علاقات إنسانية قائمة على احترام الآخر فكراً، وعقيدة، ورأياً، وموقفاً لصناعة رأي ناضج يعمّق الاحساس بالآخر، ويساعد على فهمه واستيعابه واحتوائه.

* تهيئة المناخ المناسب، وخلق الأجواء الصحية التي يجري الحوار بها، فلا قهر، ولا تسلط، ولا استعلاء، ولا عدوان، ولا إساءة للأدب، ولا تجاوز على حرية الآخر، وحقوقه. ولعلّ كثيراً من الصراعات القائمة اليوم هو نتيجة لفقدان الجو المناسب لإجراء أي حوار. وقد عمدت الدول المعادية للإسلام والشعوب إلى خلق أزمات وافتعال مشكلات أدّت إلى فقدان الثقة بين الأطراف ودفعها إلى الاحتراب بخلق حواجز نفسية، وتعميق اختلافات فكرية لتعطيل عملية الحوار، والتفاعل، والاندماج كما يحدث بين الحين والآخر بين شعوب الهند، أو اتباع الديانات في أفريقيا، فتسيل الدماء أنهاراً تعيق العبور إلى الجانب الآخر، والتوحّد إنسانياً.

* التوسع في استعمال الإجراءات العقلية، المتفق عليها، والسائدة بين

---

(1) محمد بن الحسن الحر العاملي: وسائل الشيعة/ 16، 327.

(2) الشيخ الكليني: الكافي/ 2، 668.

الناس القائمة على البديهيات. والحجة. والبرهان العقلي، والدليل المادي المحسوس، أي: استخدام المنهج العقلي في البحث والاستدلال، إضافة إلى أدوات المنهج التجريبي، وبذلك تكتمل الحجة ويكون الاقتناع. والعصر الحديث هيّأ من وسائل الاتصال، ومنافذ الرأي، ومناهج المعرفة ما قرّب وجهات النظر، وأثّر في طبيعة عرضها، وبحثها، وسلوك المنهج العلمي في مدارستها. فعلينا الاستفادة من كل الانجازات العلمية، ووجهات النظر الفكرية، والقدرات العقلية التي أطلقها هذا العصر للوصول إلى الحقيقة، وصواب الموقف، ومرونته، والتعايش معه. والأخذ باحتمالية الصواب والخطأ.

* الالتزام بالخلق الإنساني الإسلامي الكريم في التعامل مع الآخر وعدم الاساءة إليه، وعدم استفزازه وتجريحه، وخدش مشاعره والتشكيك في عقيدته وشخصيته وقدراته النفسية والعقلية.

فالإسلام بكل أخلاقياته الكريمة يهيء مواقف إنسانية كريمة تحترم الإنسان قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: 70]، وقال ﷺ: (الآدميّ بنيان الربّ، ملعون من هدم بنيان الربّ)[1]، وقال أمير البيان والبلاغة والفصاحة الإمام علي عليه السلام: (فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق)[2]، هذا الموقف الإسلامي من الإنسان، يخلق التعاطف والتفاهم، والتآلف والمشاعر النبيلة، وردود الفعل الايجابية التي تفسح الساحة لكل حوار ايجابي بنّاء.

* كسب ثقة الطرف الآخر في الحوار، واستمالته عاطفياً، وبناء علاقات إنسانية معه، والتواصل معه معنوياً ومادياً، وإشعاره بأن الهدف معه ـ ليس لغرض الانتقاص منه ومن عقيدته، وسلامة موقفه ـ إنما الهدف هو الوصول إلى الحقيقة التي هي مطلب الجميع، وإن اختلفت سبل الوصول إليها فطرق الوصول إليها بعدد أنفاس الخلائق ـ كما يقولون ـ.

وحينما نقول: الحقيقة، إنما نعني الحقيقة التي يسعى إليها الإنسان، ويسلّم

---

(1) مير سيد علي الحائري الطهراني: تفسير مقتنيات الدرر/ 6، 235.

(2) نهج البلاغة: 2، 83.

بها، وتكون جزءاً من حياته العملية، وقناعاته العقلية، واطمئنانه النفسي. فهي ليست حقيقة مجرّدة، ولا عابرة، وإنما هي جوهر وجوده، وصيرورته. لهذا يجب الوصول إليها بأساليب شريفة. ولعلّ الحوار أهمها وأشرفها.

* وأخيراً: إفهام الناس جميعاً إن الحوار هو عمل إنساني يصيب نفعه الناس جميعاً، وتعم نتائجه البشرية كافّة، فإذا انعدم، أو اختلّ، أو سار بغير طريقه السليم، فالنتائج تكون وخيمة وبيلة على الناس كافة، فهو عمل حضاري يرقى بالإنسانية في مدارج العلم والحرية والكرامة.

فعلى هذا.. يجب أن يتخلى أطراف الحوار عن أنانياتهم ومصالحهم الضيّقة، وغاياتهم النفعيّة، ومشاعرهم المنحرفة، وأن يكبحوا كل نزعة إلى التسلّط، والتغلّب، والمماراة وأن يجنحوا إلى العمل الإنساني الكريم الذي يعم نفعه الناس جميعاً، ويجنّبهم ويلات الصراع، وآثار الاحتراب. وهذا لا يكون إلّا بالحوار الذي يرى الناس بمستوى واحد ولا يجد الناس حرجاً في اتخاذه وسيلة تفاهم وتعايش وائتلاف وتوحّد.

تحالف الحضارات

بداية لابد من معرفة مفهوم التحالف. . . ويراد به اتفاق بين فاعلين اثنين أو أكثر. وعادة يتم ذلك بين الدول لغرض تعاون البعض مع البعض الآخر بشأن قضايا أمنية مشتركة. ومن خلال هذا التحالف يتوقع ازدياد الأمن بينهم.

وغالباً ما يكون التحالف عسكرياً وسياسياً في مواجهة عدوّ مشترك، أو خطر داهم متوقّع. وهذا النوع من التحالف يحدث في حالات الصراع الكبرى بين الأمم. ويحدث كذلك ـ هذا التحالف ـ بين مشتركين فكراً وأنظمة، أو بين مختلفين فكراً وأنظمة لمواجهة عدوّ مشترك. وغالباً ما يكون هذا التحالف مرحلياً، كما في الصراعات الأوربية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، أو في القرن العشرين في الحربين العالميتين: الأولى والثانية.

من خلال الانضمام الى التحالف يتم إرساء قواعد أو تعزيز نظام من الردع. كما يتم تطبيق حلف دفاعي في حالة الحرب. كما ويمنح بعض أو جميع الفاعلين الانضمام إلى تحالفات أخرى. وقد تكون التحالفات سرية أو علنية، ثنائية أو متعددة الأطراف.

ويحتاج هذا التحالف إلى أرضية مشتركة فكرية (فلسفية) أو سياسية، أو مصلحية، بحيث تتكامل الجهود في مواجهة خطر مشترك، أو ظرف طارئ، وقد تدوم التحالفات أعواماً، وعقوداً، وقد تتبدّل وتتغير، تبعاً لتغير السياسات، والمواقف، والمصالح كما حدث ذلك بعد انحلال وتفكّك الاتحاد السوفيتي، والتغيرات التي طرأت على أوربا الشرقية.

أما التحالف من جهة أخرى. . . فيراد به قيام منظمتين أو أكثر بالمشاركة بالموارد والنشاطات لأغراض ستراتيجية. وهنا يتخذ معنى التحالف طابعاً إدارياً وطابعاً ستراتيجياً.

إذن يمكن القول.. إن التحالف ينطوي على مجموعة من العلاقات التعاقدية بين مؤسسات متنامية في دول مختلفة ومتعددة يحقق هدفاً محدداً. ويحتوي التحالف على معلومات متواصلة للمعارف المشتركة.

وقد تتسع التحالفات فتشمل كلّ شيء بين المتحالفين كما هو حاصل في الاتحاد الأوربي حالياً، وقد تضيق التحالفات فتكون بين مؤسستين، أو هيئتين لهما نشاط مشترك، وأهداف مشتركة.

في أطار البحث في (موضوع تحالف الحضارات)..

نجد أن هذا المصطلح يقترب بشكل كبير من موضوع حوار الحضارات. فإن التحالف الحضاري هو أحد الأسس التي ينطلق منها (موضوع الحوار). وأن الحوار هو المدخل الأساس إلى التقارب والتفاهم والاحترام المتبادل. كما وأن التحالف بين الحضارات يتأسس على الحوار بين الثقافات وتقاربها. ثم التحالف في اتجاه واحد هو إغناء التنوع الثقافي بمدلولاته ومفاهيمه العميقة ومجالاته الواسعة .

إن التحالف بين الأمم والشعوب لابد من أن يستند إلى عناصر مشتركة، وهذا يقود إلى نشأة لغة الحوار بينها، والحوار بطبيعته يؤدي إلى التفاهم وتبادل الرأي والتقارب والاحترام، وهو لون حضاري ونوع من التواصل. فالتحالف في قضايا محددة، وفي مرحلة محدّدة يؤدي بالضرورة إلى تحالف حضاري قد يطول أمدُه وتأثيره.

إن التنوع الثقافي يوفر الأسباب المهمة للتعاون الدولي من خلال الحوار والتقارب بين الثقافات الذي ينتهي الى التحالف بين الحضارات. فإن الثقافة عنصر حيوي في التقارب بين الأمم، ووحدة الحضارات كونها تشكّل القواعد الأساسية لتكوّن أي حضارة تقوم على سيادة العقل المتنوّر، وأسلوب الحوار، والتسامي الإنساني.

وعليه.. ـ كما نرى ـ فإن التحالف ينصب في كافة مجالات الحياة. فلا يتحدد في الفكر العسكري فحسب، بل الفكر السياسي والديني وحتى الاجتماعي .

نعم إذا اطلق لفظ التحالف فإنّ الذهن، ينصرف إلى التحالف العسكري وعلى الرغم من ذلك فإن التحالف العسكري يقوم على بنى تحتية: اقتصادية وسياسية، واجتماعية، وبالضرورة فكرية وثقافية وحتى دينية ومذهبية، وهذا ما يجعل أي تحالف عسكري يقوم على مقوّمات حضارية متعدّدة ومتنوعة متوازنة تحقّق التحالف الحضاري في مجالات الحياة عامة كما نرى ذلك في التحالف العسكري الغربي الذي يسمّى بـ (الناتو) الذي يمثّل الوجه العسكري الغربي القائم على مفاهيم ومصالح غربية مشتركة.

إن الدين الإسلامي بطبيعته ورسالته يقر بالتنوع الثقافي ويعترف بالإختلاف. كما ويقر التفاهم بين الشعوب وإسهامه في اقرار السلام والأمن ويقترن في ذلك تشجيع الحوار بين الحضارات والثقافات والأديان.

وربّما يكون عنصر القوّة في الإسلام كونه يثق بنفسه ومواقفه وعقائده لهذا جعل الحوار وسيلة للتواصل، واحترام الآخر جزءً من عقيدته ومفاهيمه، والاعتراف بحقوق الغير سبيلاً للوئام، والتفاهم، والتعايش، وتقديس الإنسان هدفاً من أهدافه وبذلك كسب معركة الحياة، بايجابيته، وحيويته، واقراره بحقوق (الغير) في الحياة، والحرية، واختيار العقيدة التي يرتضونها.

إن التنوع الثقافي عامل أساس من عوامل التنمية والفهم المتبادل والتعايش السلمي كما هو حق من حقوق الشعوب وفطرة في الإنسان وطبيعة في الحياة وسنة في الكون.

كما وأن التنوّع الثقافي أمر ايجابي في حياة الأمم والشعوب خاصة إذا كان قائماً على العقلية، وتبادل الخبرات، والفهم المشترك للظواهر الإنسانية والاجتماعية ما يكرّس حشد الطاقات والخبرات لبناء مجتمع إنساني متحضّر يتعايش مع بعضه، ويتعاون لخلق حالات جديدة يعيش الإنسان بظلّها في أمن ورخاء. أما إذا كان التنوع الثقافي مصدراً من مصادر الاختلاف والاصطراع والاحتراب وفرض القسرية في العقيدة والحياة فإنه يكون هادماً للحضارة، وقاتلاً للنزعات الإنسانية في الحياة.

إن التقارب بين الثقافات بحكم التنوع يقتضي أن يكون مدعاة للتقارب

بعكس الإنغلاق الذي هو سبيل إلى الإنكماش المفضي إلى ظمور الثقافات وسقوط الحضارات .

إن الانفتاح الثقافي بالضدّ من الانغلاق الثقافي، فهو يؤدي إلى التقارب بوسيلة لغة الحوار، والتقارب يعني الفهم المشترك الذي يؤسس للتعايش السلمي الذي تبنى عليه الحضارات وتقوم المدنيات، وتعلى فيه قيم الإنسانية، ومفاهيمها الكريمة.

إن التحالف يكون مسبوقاً بمرحلة التقارب المؤدّي إلى نظرة متقاربة لفهم الحياة، وحلّ إشكالاتها، وفكّ رموزها، وتوجيه حقائقها بما يخدم الإنسان بالانفتاح على الآخر، والتحرّك لفهمه وتحقيق المصالح المشتركة لكل الأطراف.

كما أن هناك ضرورة الإقرار.. بغنى جميع الحضارات واحترامها. وبهذا.. فإن تحالف الحضارات هو مبدأ من مبادئ القانون الدولي، وأساس من الأسس التي تقوم على العلاقات الدولية، وهو يساهم بدرجة كبيرة في التقارب بين الشعوب والأمم، وفي إزالة الحواجز المتراكمة من سوء الفهم، ويمثل أحد الخيارات المثلى لمعالجة الانعكاسات السلبية لظواهر عديدة، ومنها.. ظاهرة العولمة، وتنشيط القانون، والتضامن بين الشعوب، ونبذ كافة أشكال المفاضلة والثنائيات التي تؤدي إلى عدم تحقيق التحالف الحضاري.

إنّ التنوع الثقافي، وتنوع البيئات، مساعد على نشوء حضارات تحمل كلٌ منها سمات خاصة، أو خصوصية، تجعلها متميّزة عن غيرها من الحضارات فالحضارة الصينية تختلف عن الحضارة الهندية وهي بدورها تختلف عن الحضارة المصرية القديمة والحضارة الفارسية. والحضارة اليونانية تختلف عن هذه جميعاً وهكذا. والحضارات الحديثة كالحضارة الغربية الحديثة تختلف عن الحضارات القديمة في سماتها ونزوعها المادّي. وهذا لا يعني تقاطعاً بين الحضارات، بل هناك عناصر إنسانية مشتركة بينها جميعاً، وكذلك هذا لا يعني تفاوتاً بين مستوى الحضارات وتأثيراتها، وقدرتها على بناء الإنسان، والإضافة الحضارية في أحد مجالات الحياة، بل هذا التفاوت والتنوع يدعو إلى التكامل، والتلاقح، والتنوّع. وانتاج كل ما هو جديد ومفيد وطريف وأصيل وإنساني.

(ولضمان فاعلية الحوار لابد من ضرورة التحاور مع الحضارة الغربية)

وجدوى استيعابها والدخول في جدوى الحوار بقدر كبير من الثقة والمسؤولية ليقوم الحوار وينشا على أساس الواقعية والموضوعية ويحقق كل من التبادلية والمنفعة المشتركة المتعددة .

وحين نخصّ بالذكر الحضارة الغربية، فلأنها أهم ـ وأعظم ـ ما أنتجه الإنسان من حضارة بشرية على مرّ العصور، بل هي خلاصة الحضارات الإنسانية مع كثير من الإبداع والإضافة، مع المؤاخذة عليها كونها أوغلت في المادية، ونزعت إلى إشباع النوازع المادية للإنسان وإهمال الجانب الروحي، ومحاربة الأديان السماوية، والتحلّل من الفضائل الاخلاقية التي تسمو بالإنسان على مرحلة الحيوانية.

وعلى الرغم من كل ذلك.. فعلينا أن ننفتح عليها، ونجعل الحوار وسيلة للتواصل معها، ونقوم بفعل انتقائي نأخذ ما ينفعنا وينسجم مع قيمنا وأخلاقنا ونطرح جانباً كل ما هو متعارض مع مفاهيمنا وقيمنا وأخلاقنا. وبهذا نحقق التوازن الحضاري والانساني في شخصياتنا الإنسانية.

واستناداً إلى كل ما تقدم...

فإن الحوار فعل حضاري، لابدّ من اعتماده وسيلة لتحقيق التحالف الحضاري. وللحوار شروطه: ولعلّ من أهمها توفّر النوايا الحسنة بهدف الوصول إلى الحقيقة، واعتمادها أساساً لكل عمل، وكذلك تبنّي مبدأ احترام الآخر: رأياً وموقفاً، ومصلحةً، وتقدير مبدأ التكافل بين المتحاورين، وعدم الانتقاص من رأيه أو عقيدته. كما يجب تحديد القضايا التي هي في صدد عرضها والمحاورة فيها. وبذلك نصل إلى قناعة فكرية بأن حوارنا هو عمل حضاري يوصل إلى موقف حضاري لتحقيق تحالف حضاري في كل جوانبه الإنسانية يتميّز بالوضوح والتحديد بعيد عن كل فعل قسري أو قهري أو منشدّ إلى استقطاب سلبي.

ووفقاً للرؤية الإسلامية..

فإن هناك مجموعة من القواعد الإسلامية للحوار والتعايش بين الأمم والشعوب المختلفة منها باختصار.

1 - تمايز الأمم والشعوب واختلافها أمر طبيعي نصّت عليه آيات القرآن الكريم، وهذا الاختلاف لا يكون سبباً للتمايز والافتراق وإنما يكون سبباً للاتحاد والتوافق والتعارف قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحُجرَات: 13].

2 - عدم الاكراه في الدين. فالانسان حرّ في اختيار دينه وعقيدته وممارسة شعائره بحرية، والدعوة إلى عقيدته بما لا يمسّ عقائد غيره وأمنهم، ولا يؤثر على وحدة النسيج الاجتماعي قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ﴾ [البَقَرَة: 256]، وقال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يُونس: 99]، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغَاشِيَة: 21-22].

3 - الحوار يهدف للوصول إلى الحق وأن رسالة الإسلام رسالة عالمية وأن الإنسان بطبعه ميّال إلى التزام الحق ويسعى بطبعه للوصول إليه، والاسلام دين يحض الناس على التزام الحق والعمل به والدفاع عنه، فهو دين الحق، الذي أنزل من الله الحق قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يُونس: 32]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [يُونس: 94].

4 - أن يكون للحوار أسس مشتركة... ومجالات واسعة...

إنّ انفتاح الإسلام على الحضارات الأخرى: ديناً، ومدنيةً، وعمراناً وعلماً ومعرفةً، وسلوكاً، ونمطَ عيشٍ، معروف، ومسجّل تاريخياً، ومشهود له، وهذا الانفتاح هو الذي كفل للإسلام الانتشار والانسياح في الأرض، ودخول الناس فيه أفواجاً، ولعل القوى المعادية للإسلام هي التي تفتعل الأزمات والصراعات بين المسلمين وغيرهم لكي تضع الحواجز والموانع بين الإسلام وأهله وبين غير المسلمين لينفّروا الناس منهم وينغلقوا عنه، وقد نجحت خطتهم هذه في بقاع شتى من الأرض والمسلمون غافلون ينساقون مع خطط أعدائهم.

ولابد من القول أيضاً..

إن البحث في العلاقات التاريخية بين الحضارات الكبرى يؤكد أنها تتميز بالانفتاح والتواصل وليس بالصدام والتنافر وهنا ينبثق سؤال مفاده.. أية مبادئ يستند إليها الحوار؟ وما هي سبل نجاح هذا الحوار؟

للإجابة عن السؤال نجد:

أولاً: أن العالم الآن تمتد فيه الحدود السياسية للدول إلى مناطق سلام وتبادل للمصالح وتتداخل فيه الثقافات الوطنية، فقد أصبح العالم اليوم قرية صغيرة، ينتقل فيه الناس والأفكار بسرعة باهرة، وتتشابك فيه المصالح، أما الحضارات فإنها تتلاقى وتتصادم فيه قيمها، ويأخذ بعضها من بعض ويؤثر فيه، فلم تعد ثقافاته تعبّر عن خصوصية مطلقة، ولا ذاتية منغلقة، وإنما هو التزاوج والتلاقح بين الأفكار والتيارات الفلسفية والمناهج العلمية.

ثانياً: الدعوة لتكريس ثقافة الحوار بين المتحاورين... وهذا أمر حيوي لكي يحقّق الحوار نتائجه الايجابية من دون قهر أو قسر أو تعالي أو إلغاء.

ثالثاً: الدعوة إلى ثقافة اللاعنف في العالم أجمع... فالحوار بديل عن العنف، والحوار قائم على احترام الآخر، والعنف إلغاء للآخر وتصفيته، وتدمير للقيم والمفاهيم والحياة، ولا تقوم الحضارات إلّا على القيم والمفاهيم الصائبة، واستمرار الحياة، وتفاعلها مع الاحياء لانتاج حياة جديدة، وحضارات جديدة، وفتح آفاق رحبة جديدة.

رابعاً: حوار الحضارات أصبح مشروع حياة البشرية ومستقبلها، وعليه يتوقّف مستقبل الإنسان المتحضّر، فالحضارات تتعاقب وتتداخل ويؤثر بعضها ببعض ووسيلة ذلك هو الحوار والانفتاح. أما إذا انعدم الحوار فليس هناك إلّا الانغلاق والكبت الذي يؤدي إلى الانفجار والصراع الذي يذهب بالحضارات وبصانعها الإنسان.

إن الحوار الحقيقي يتطلّب مجموعة من العناصر أهمّها:

قبول أطراف الحوار بالاختلاف وإدراكهم أن للحوار مستويين:

الأول: داخلي ضمن الحضارة الواحدة للوصول إلى معالم الخطاب المعتمد، ولا شك في أن داخل الحضارة الواحدة مجموعة من التناقضات والاختلافات، وهذه - وإن كانت تشكل عنصر التنوع - فهي مصدر وجهات نظر متعددة، ورؤى فكرية متجدّدة، والحوار وحده هو الذي يقرّب بينها، أو يوحّد بينها حتى تبدو جزءاً من النسيج الحضاري المتجانس.

الثاني: خارجي موجّه إلى الأطراف الأخرى أو الحضارات الأخرى المتقابلة والمتضادّة، وهذا النوع من الحوار ضروري لتلافي كثير من الاحتكاكات المدمّرة، أو الصدامات القاتلة، فإن عناصر الاختلاف إذا تغلّبت على عناصر الاتفاق فإنها تقود إلى صراع حضاري غير مجدٍ، ولا مبدعٍ، ولا مفيدٍ، وبالتالي تكون النتيجة سقوط الحضارتين أو الحضارات جميعاً في هوّة العقم والانغلاق، والتحجّر، أو التطرّف والعصبية فلا يكون هناك فعل مثمر، وإنما رد فعل مدمّر على فعل مدمّر. فلابد من أن يتخذ الحوار الخارجي (بين الحضارات) مساراً علمياً مدروساً ليصل إلى نتائج تغني كل الحضارات وتدفع بها إلى التطور والتجديد والإضافة لمصلحة الإنسان.

وكلا المستويين: الداخلي والخارجي متعدّد الأبعاد لاسيما أن الثقافات تقوم على الإبداع وتختلف مساراتها باختلاف الشعوب، وباختلاف البيئات الطبيعية والثقافية التي انتجتها، وباختلاف العوامل والحوافز التي خلقتها.

إنّ الأمور المتقدمة شرط أساس لقيام أي حوار مجد، ومفيد، خاصة إذا تعمقنا فيها فتعرّف كل طرف على الطرف الآخر يزيد من وعي المتحاورين ووضوح القصد، والقدرة على التعامل السليم معه وفق ثقافة تحترم الرأي الآخر مما يقود إلى احترام الذات الإنسانية وتقديسها وصولاً بها إلى تفاهم مشترك، وتعاون قائم على العيش المشترك وفق مبادئ التعايش السلمي والتكافل الاجتماعي، والتواصل الإنساني.

ولضمان فاعلية الحوار ضرورة الحفاظ على الخصوصيات الثقافية مع وجود المشتركات الإنسانية العامة. فإن لكل بيئة إنسانية خصوصية فاعلة تميّزها عن البيئات الإنسانية الأخرى. وهذه الخصوصية هي التي تمنح الحضارة طابعها الخاص، وقدرتها الابداعية المتميّزة، وسماتها الإنسانية المرتبطة بالتاريخ واللغة والطبيعة، والثقافة والعادات والتقاليد، والممارسات الاجتماعية العامة والخاصة.

كل ذلك يشكّل الملامح الأساسية لكل خصوصية حضارية تشكل مع غيرها من الخصوصيات حضارة إنسانية تقوم على التنوّع والاختلاف الجميل.

إنّ للدين تأثيراً كبيراً في تشكيل هويّة أي فرد أو ايّ أمة، أو أيّ حضارة. وخاصة إذا كان الدين هو الإسلام بقيمه، ومفاهيمه، وأخلاقياته، وشعائره

التعبّدية، وأحكامه التشريعية. فإن هذا الدين يملك منظومة فكرية وسلوكية تستطيع أن تشكّل الهوية المتميّزة للمرء المسلم، ولأمة الإسلام، ولحضارته، وعلى الرغم من الشوائب الكثيرة التي التصقت بالحضارة الإسلامية، فإنها بقيت تحمل صفة الإسلام وسماته في كثيرٍ من خصائصها وتصوراتها، وأهدافها النبيلة، وافرازاتها الإنسانية الجليلة وخاصة في إيمانها بالحوار وبالآخر وبالسلم الاجتماعي، والتعايش البشري ضمن مشتركات إنسانية وأخلاقية ثابتة ثبات الثوابت المبدئية الإسلامية.

وحينما نفهم التحالف بمعنى الشراكة فإن ذلك يعني التزاماً أولاً، ومصالح مشتركة ثانياً، ويتسع مفهوم الشراكة ليشمل مجالات الحياة كافّة. وهنا يكون التحالف فاعلاً ومؤثراً وآخذاً ومعطياً ومحققاً لشروط كثيرة لها دور في البناء الحضاري للإنسان.

ونستطيع القول: إنّ التعاون وجه من وجوه التحالف فهو يقترن بتضامن الارادات ويتخذ أشكالاً في المجالات كافّة. والتعاون ـ كما قلنا ـ يشكل الحدّ الأدنى من العلاقات، لذا فهو يختلف عن الاندماج التام بين المؤسسات، ولكنه يبقى عاملاً مساعداً في تحقيق التحالف وخاصة في مجالات الاقتصاد، وهو بهذا يعدّ المحرك الفعلي لعجلة النموّ الاقتصادي، والتنمية البشرية اللذان هما أساس كل حضارة.

إن هناك من طرح فكرة (تحالف الحضارات) في مقابل (صراع الحضارات) الذي شاع في العقود الأخيرة من القرن العشرين، إن الصراع بين الحضارات حقيقة واقعة على مرّ العصور بإيجابياته، وسلبياته، ولكنّه كثيراً ما يفرز حقائق جديدة، وظواهر حضارية مفيدة. وحين طرح مبدأ (تحالف الحضارات) فإنه لم يكن مجرّداً من السلبيات، ولكنه نزع لفتيل الصراع، وإحلال الانسجام بدلاً منه. وهذا من ايجابياته، فإن ذلك وفّر جهوداً كثيرة، وطاقات عميقة لمباشرة البناء المشترك للحضارة الإنسانية، كما أن التحالف الحضاري عمّق بعض الوسائل الحضارية، ومنها الحوار الذي هو ظاهرة حضارية فاعلة.

ويبقى التحالف الحضاري وسيلة وغاية، سبيلاً وهدفاً، فهو وسيلة لتقارب الإنسان، وسبيلاً لايصال مفاهيمه وقيمه الخيّرة، وغاية لبناء حضارة إنسانية تلغى

فيها كل الفوارق والامتيازات العنصرية والجنسية والدينية والمذهبية، وهدفاً كريماً يسعى إليه الإنسان في كل زمان ومكان ليؤكّد وحدة الإنسان في المبدأ والمصير، وفي سعيه لتحقيق نوع من التسامي الإنساني، والتوازن الاجتماعي من خلال بناء حضاري قائم على احترام إنسانية الإنسان، واحترام عقيدته وآرائه ومواقفه وتوجهاته، وهذا ما شرّعه الإسلام وقدّرته مفاهيمه، ودعت إليه آيات القرآن وسنن نبيّه وخلفائه.

النزوع إلى وحدة أنماط الحياة خطوة نحو التحالف الحضاري

هناك أرضية صالحة في الفكر الإسلامي تدعو إلى التعاون والتعاضد ضد أي انحراف يؤدي بالإنسانية إلى الدمار والتشرذم وإشاعة الفواحش.. فالإسلام بجوهره وحقيقته دين المحبّة والتسامح، والتكافل والتعاون والاعتراف بالآخر، واحترام رأيه وعقيدته وموقفه. وعلى هذا الأساس فهو يستنكر ويرفض كل انحراف فكري أو سلوكي عن الطبيعة الإنسانية السليمة، والتوجّه الإنساني القويم الذي يهدف أساساً إلى بناء الإنسان السليم عقيدة وموقفاً وسلوكاً ومشاعر وتوجّهات كريمة لخلق مجتمع إنساني يقوم على المحبّة والتوادّ ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحُجرَات: 13] وعلى التعاون، والتكافل قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المَائدة: 2]، والإحسان (أحسن كما أحسن الله إليك)[1]، والرحمة قال تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفَتْح: 29]، وعن رسول الله ﷺ: (ارحم مَن في الأرض يرحمك من في السماء)[2]، والأخوّة الصادقة المجرّدة من كل مقياس إلّا مقياس الإنسانية قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: (ـ الناس ـ فإنهم صنفان إما ا خ لك في الدين أو نظير لك في الخلق)[3]. كما أن موقفه من أي انحراف يؤدّي إلى شيوع الفاحشة والرذيلة ما ينافي فطرة الإنسان، ويشوّه صورته، ويحطّ من قيمته ويسيء إلى إنسانيته وينزع بهم نزعاً يؤدّي به إلى الانحراف والفناء.

فالإسلام ـ على هذا ـ قوة فكرية مغيرة نحو الأفضل، وطاقة نفسية تبعث الشعور بالأمن والاطمئنان، وإرادة إنسانية فاعلة تصنع الحياة المثلى للإنسان،

---

(1) العلامة المجلسي: مرآة العقول في شرح اخبار آل الرسول/ 12، 240.
(2) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ 74، 167.
(3) نهج البلاغة: شرح الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبدة/ 3، 84.

وحراك ايجابي لصياغة إنسان هذه الأرض. كل ذلك محكوم بمبادئ ثابتة خيّرة، ومفاهيم متجذّرة نيّرة، وممارسات سلوكية فردية أو اجتماعية تفصيلية ترسم طريق الإنسان، وتحدّد دوره الاجتماعي بوعي وإدراك وإيجابية وإيمان وتوقّع لجزاء أفضل في الدنيا والآخرة. فالإسلام ليس مجموعة تهديمات فكرية، أو تحليقات نظرية، أو أشواق روحية، أو تطلعات مثالية ليس لها علاقة بواقع الإنسان. وإنما هو تلاحم بين الفكر والواقع، والنظر والسلوك، والفرد والجماعة والمصلحة الفردية والصالح العام، وفعل الخير وتوقّع الثواب، وحركة الحياة المتطابقة مع إرادة السماء، هذا الانشداد المتوازن بين جزئيات الحياة وتفصيلاتها في إطار السنن الكونية، والحركة الإنسانية تبعث في الحياة دفئاً وحركة موثقة واطمئناناً وايجابية وهادفية تجعل منها رحماً خصباً لميلاد حضارات تقدّس الإنسان وتضعه في مركز الكون، مرتبطاً بخالقه: مبادئ ومفاهيم وفضائل وإرادة خيّرة لصنع الأفضل على هذه الأرض التي مهّدها الله لقيام حضارات إنسانية متكافلة.

السعي من أجل تحقيق العدالة بكافة أقسامها وأنحائها هو الهدف الأشمل والأعم الذي يسعى إليه في هذا التحالف، وهذا يقتضي بنا أن نسعى لتحديد معنى عام للعدالة خصوصاً أن الجميع يسعى إليها كل بمنظاره.

اختلف مفهوم (العدالة) باختلاف زوايا النظر. والتوجّه العام لإقرارها، ولكن يمكن أن نستخلص مفهوماً عاماً للعدالة هو (كونها المساواة أمام القانون)، و (المساواة في فرص الحياة: العمل، التعليم، العلاج). مع مراعاة الكفاءة الشخصية، والقدرات الذاتية، والمستوى العلمي، والعملي. والعدالة عنصر مهم من عناصر الاستقرار الاجتماعي الذي هو أهم عنصر من عناصر قيام حضارات إنسانية مبدعة. فإن فقدت العدالة في مجتمع ما اختلت القيم والموازين، واضطربت أحواله ونشأ صراع اجتماعي بوجه سياسي، بدعوى تحقيق العدالة الاجتماعية يؤدي إلى احتراب واقتتال، وعنف دموي يدمّر القيم والمبادئ والإنسان التي هي الأرضية الصلبة لقيام أي حضارة، ومن ثمّ قيام تعايش بين الحضارات المتعدّدة، وهكذا يفقد الإنسان توازنه، وقدرته على التعايش السليم مع الواقع، ومع الآخر، إنساناً، وفكراً، وحضارةً، وعمراناً، فلا يكون هناك تحالف وتعايش بين الحضارات المتعددة، وبفقدان العدالة يفقد الإنسان قدرته على التفكير الصحيح، والتقويم السليم لما حوله.

ولو إننا تقصينا حركة الإنسان عبر العصور، وحركة التاريخ في مراحله المتعددة، لرأينا دأب الإنسان المتواصل للبحث عن العدالة وتحقيقها في مختلف الوسائل والسبل. والإنسان بلا عدالة اجتماعية، لا يمكن أن يكون إنساناً يتمتع بكل خصائص وامتيازات الإنسان. وقد اتخذ البحث عن العدالة وإرادة تحقيقها عدة مستويات منها: نظري فلسفي يقوم على التجريد الفكري. ومنها: فلسفي اجتماعي يتخذ التنظير خلفية فلسفية لانطلاق أي خطوات عملية فاعلة لتحقيق مبدأ العدالة: ومنها: حراك فردي أو اجتماعي لا يستند إلى نظرية محددة أو فكرة سائدة، وإنما هو رد فعل لواقع اجتماعي فقد العدالة، واستبدله بالظلم وإضاعة الحقوق. وما الثورات الكبرى في التاريخ والتمردات العنيفة، والصراعات الدامية إلّا لون من ألوان البحث عن العدالة ومحاولة تحقيقها أصابت أم اخطأت، صدقت نواياها أم كذبت. ولعل الأديان السماوية وآخرها الإسلام تعدّ أهم داعية للعدالة الاجتماعية ورفع الظلم والغبن عن بني الإنسان، وإعادة التوازن الحيوي إلى حياته ومساره ليس على مستوى التنظير والتفكير وإنما على مستوى العمل والواقع والوسيلة والآليات، فزرع الإسلام - على سبيل المثال - قيم العدالة ومفاهيمها في عقله، وتشربتها روحه، وانقادت إليها نفسه في حركة الحياة اليومية الواقعية بدءً من ممارسته العبادية الروحية الفردية إلى سلوكه اليومي الاجتماعي في إطار حركته لكسب رزقه وضمان عيشه، وكفالة استقراره. وهذا الاستقرار أمر ضروري وحيوي لحياة الإنسان ولقيام حضارة إنسانية مبدعة خلّاقة تلتحم فيها قيم السماء ومفاهيمها بحركة الإنسان الأرضية وواقعه فتنتج حضارة إنسانية ذات مضمون سماوي يشرق بالخير والعدل والأمن والاطمئنان على واقع الإنسان فيزيده نماءً وخصباً وإبداعاً وأملاً في بناء حياة إنسانية كريمة. وليس أفجع لبني الإنسان من شعورهم بالغبن والظلم والاستلاب، وليس أخطر على استقرار الحياة الاجتماعية من تحوّل إلى الشعور إلى إرادة فاعلة وقوّة قاهرة تحاول إعادة التوازن إلى الحياة الاجتماعية، وليس أضر شيء بالحياة الاجتماعية واستقرارها من اصطناع العنف وسيلة لتحقيق هذا التوازن وإقامة ميزان العدل. فعلى المصلحين والمفكرين والدعاة المبادرة إلى تحقيق العدالة الاجتماعية بكافة مستوياتها وبكل الوسائل الممكنة قبل أن يفقدوا السيطرة والقدرة على تسيير الأمور وإدارتها بما يضمن تحقيق العدالة مع شيء من الاستقرار والتوازن، ومنع كل خرق اجتماعي يحدث نتيجة لذلك.

الفكر التكفيري بكل الحضارات معول هدام يؤدي إلى هدم كل بناء خير، ولذا يجب محاربته من خلال قطع الدعم المالي له، وتنبيه المذاهب والنظريات التي قد تؤدي إليه بضرورة التغير في أفكارها ورؤاها.

فلو تقصّينا أسباب نشوء الفكر التكفيري واتساع دائرته لوجدنا أن الجهل ـ بمعناه العام والخاص ـ أحد أهم اسبابه، وكذلك النزعة النفسية المزاجية المرضية في الإنسان التي تجعله يميل إلى اتخاذ المواقف المتطرّفة والمتشنّجة، ولا ننسى الفهم السقيم أو الاحادي النظرة إلى الدين الذي يفهم الدين عنفاً وتطرفاً وصراعاً وقتالاً بينما الدين رحمة وتوادّ، وتكافل وتعاون وسماح واحترام للرأي الآخر. وكذلك يجب ألا نغفل دور السياسة في ترويج النزاعات المتطرفة، والمواقف المتشددة بما يخدم أهدافها ومخططاتها بما في ذلك شراء الذمم وتجنيد مرتزقة الفكر والمواقف. كل ذلك وغيره جعل الفكر التكفيري تتسع دائرته، ويكثر انصاره ودعاته، ويزداد تأثيره في حياة الناس، ويكون وبالاً على الدين وأهله ومدعاةً لتنفير الناس عنه. فعلينا ـ والحال هذه ـ أن نكرس الجهود، ونحشد الطاقات لبيان خطره وسدّ كل المنافذ المؤدية إليه لأنه فكر مناقض لطبائع الأشياء ومتقاطع مع إنسانية الإنسان المبنية على التسامح وقبول الآخر، وبنائه حضارياً وبناء حضارته على هذا الأساس.

الكف عن الأفعال الإستفزازية، والعمل على احترام الآراء، وأنه الأساس في بناء الثقة بين الشعوب والدول... وهذا يعني اصدار قوانين بالكف عن الإساءة للأنبياء والديانات والرموز المقدسة... فإن احترام الآخر وقبوله مبدأ حضاري إنساني، وتجاهله، أو التجاوز عليه يخلّ بالبناء الفكري والحضاري للإنسان، ويقود إلى الصدام مع الآخر ومعنى ذلك القيام بفعل تدميري للآخر، وردّ فعله ـ حتماً ـ سيقود إلى فعل تدميري مضاد. وهذا يعني هدم الحضارات وتقاطعها.

إن الاختلاف مع الآخر فكراً أو موقفاً أو فهماً أو عقيدة لا يقود بالضرورة إلى الحالة التصادمية بل يقود أحياناً إلى التوافق عند النقاط المشتركة، أو عند الفهم الإنساني المشترك لضرورات الحياة ومتطلباتها. إن الاساءة بأي شكل لرموز ومقدّسات الآخر يعني حالة استفزازية لا يمكن السكوت عنها، لأنها ـ وفق أقل

التقديرات ـ هي إساءة للآخر، وجرح مشاعره، واستفزازه، وهو مرفوض أخلاقياً حتى لو كان ذلك في دائرة إنسانية ضيِّقة، فكيف يكون ردّ فعل ذلك إذا استهدف مشاعر مئات الملايين من الناس. إن ذلك سيكون أمراً كارثياً على مستوى المشاعر والافكار والمواقف. إن خير ما يعبّر به الإنسان عن فكره هو الحوار الجاد المثمر الذي يحترم الآخر رأياً وموقفاً ويحاول كسبه عاطفياً أولاً وفكرياً ثانياً وموقفاً ثالثاً. وبهذا يعزّز فكره ويعمق تأثيره، ويؤكد مصداقيته وحضوره.

إن كل المجتمعات ـ قديماً وحديثاً ـ أفرزت تيارات عنفيّة، وهذا الإفراز جاء نتيجة لمخاضات غذّتها عوامل سلبية مغايرة لحركة التاريخ، ومعادية للبناء الحضاري للإنسان، وقد خلّفت هذه التيارات العنفيّة تراكمات من الخراب النفسي والاجتماعي وشروخ من التدمير في المجتمعات الإنسانية كثورة الزنج[1].

---

(1) ثورة الزنج: قامت حركة الزنج في عام 255هـ، وأنهكت دولة الخلافة العباسية قبل أن تقضي عليها، وكان عماد هذه الحركة في بادىء الأمر بعض العرب المغامرين من المهالبة والهمدانيين وغيرهم، أما الفئات التي شاركت فيها فهي متنوعة: الزنج، أهل القرى، العرب، عشائر عربية ثائرة على السلطة.. أما فيما يتعلق بالشخصية التي قادت هذا الجمع، فهو فارسي الأصل من أهل الري يُدعى "بهبوذ" وتسمى بعلي بن محمد وادعى انتسابه إلى عبد القيس ثم إلى زيد بن علي بن الحسين بن علي، وهو شخصية محيّرة فعلاً حيث يلاقي الباحث صعوبات جمة في معرفة نسبه، وذلك بفعل تقلباته السريعة، تبعًا للظروف التي كان يمر بها. ويبدو أن حياته كانت غير طبيعية فقد بدأها كشاعر في بلاط الخليفة بسامراء، ثم حاول القيام بحركة ضد النظام في البحرين للوصول إلى الحكم، إلا أنه أخفق في تحقيق مبتغاه، فسلك نهجًا جديدًا، وظهر كقائد ديني ومتنبيء، فادعى نسبًا علويًا محاولاً أن يستثمر ما للشيعة من عطف وتأييد بين الناس، وقد أحلّه أتباعه من أنفسهم محل النبي حتى جُبِي له الخراج. ويبدو أن جماعة كثيرة العدد في البحرين قد تنكرت له، مما دفعه إلى مغادرتها إلى البادية ليستقطب الأعراب، وادعى فيها النسب الشيعي على أنه يحيى بن عمر أبو الحسين، فالتف حوله بعض الأعراب استغلهم بإعادة السيطرة على البحرين، إلا أنه هزم وفر إلى البصرة. ووقف أثناء إقامته القصيرة فيها على أوضاعها الداخلية السياسية والاجتماعية حيث كان المجتمع البصري منقسمًا على نفسه، فحاول أن يستغل هذه الخلافات لصالحه إلا أنه فشل، وفي الوقت نفسه رأى في حياة العبيد فيها الذين يعملون في المستنقعات المجاورة فرصة لتحقيق طموحاته لكنه طُرِدَ منها فذهب إلى بغداد، وفي بغداد استنبط نسبًا علويًا جديدًا فانتسب إلى أحمد بن عيسى بن زيد، ثم حاول الوثوب إلى السلطة مستغلاً الأوضاع المضطربة في حاضرة الخلافة، ولكنه لم يتمكن من ذلك بفعل إحكام الأتراك قبضتهم على الوضع، فعاد إلى البصرة =

وحركات القرامطة[1]، وما شابهها في تاريخنا الإسلامي كحركات

= في عام 255هـ ليتزعم حركة ثورية مدعيًا أن الله أرسله لتحرير العبيد وإنقاذهم مما كانوا يعانونه من بؤس كما ادعى العلم بالغيب، وانتحل النبوة.. والواقع أن فكرة المهدي المنتظر رافقت علي بن محمد في جميع مراحل حياته السياسية؛ فاستغلها بذكاء، وهو بادعائه المهدية، كان يضرب على وتر حساس في نفوذ جماعة العلويين الذين برح بهم الشقاء، فكانوا يأملون في ظهور مهدي منقذ يزيل عنهم الغمة، ويفرج عن أيامهم كربتها، وركز كثيرًا على عراقة أصله وكتبها على نقوده وسمي نفسه "المهدي علي بن محمد" المنقذ.. وجهر علي بن محمد في إحدى مراحل حياته بمذهب الخوارج الذين يلائم مبدأهم ميل أصحابه الشورية، فحارب من أجل العدالة الاجتماعية والمساواة، وكتب شعاراته على الرايات باللونين الأخضر والأحمر وهما لون العلويين ولون الخوارج.. لقد تعارضت أفكار علي بن محمد عن الخلافة مع مفهوم الشيعة لها التي تؤكد على الوراثة، وتبنى رأي الخوارج القائم على الشورى، مما نفَّر منه الأعراب البسطاء، وعرب البصرة والأهواز وواسط والمناطق المحيطة بها، كما رفض قرمط أن يرتبط معه بعوامل دينية، أما شدته وقسوته تجاه أعدائه فقد جعلته خارجيًا متطرفًا، يُضَاف إلى ذلك أنه عامل أسرى الحرب معاملة الرقيق، ووعد أتباعه بأنه سيملكهم المنازل والعبيد، وهذا يعني تحويل حياة الزنج من أرقاء إلى ملاك للعبيد. والواضح أن هذا التناقض في عقيدة الحركة يفرغها من أي صبغة عقائدية، ويجعلها حركة مسلحة ضد النظام ليس إلا، كما يجعل من قائدها رجلاً مغامرًا طموحًا إلى السلطة..

(1) القرامطة: بعد وفاة الامام جعفر الصادق ﷺ الامام السادس للشيعة الإمامية حدث انشقاق في الصف الشيعي فهناك من اعتبر إسماعيل بن جعفر هو الامام وعرفوا فيما بعد بالإسماعيلية وهناك من أعتبر موسى بن جعفر الامام السابع وهم يمثلون الأغلبية الساحقة للشيعة اليوم ويسمون بالإثنا عشرية لتمييزهم عن الإسماعيلية. بايع الإسماعيليون محمد بن إسماعيل أماما لهم ونتيجة لملاحقة الدولة العباسية له اضطر للخروج من الحجاز واختفى لتبدأ حملة سرية وواسعة لنشر العقيدة الإسماعيلية وكانت الدعوة تجري باسم محمد بن إسماعيل الغائب والذي قيل انه هو المهدي المنتظر وعند عودته سوف تملأ الأرض عدلا. في عام 873 م وحين كانت الدولة العباسية قد بدأت بالتفكك والضعف ظهرت أعداد كبيرة من الدعاة في اليمن والعراق وشرقي شبه الجزيرة العربية، وأجزاء من بلاد فارس ينشرون المذهب الإسماعيلي مما أثار غضب الدولة العباسية. وكانت الدعوة الإسماعيلة في العراق تقاد من قبل حمدان قرمط الذي تمكن من تحقيق نجاح كبير واجتذاب الكثير للدعوة الإسماعيلية في العراق.وقد بعث حمدان بابي سعيد الجنابي إلى البحرين لنشر الدعوة هناك لتنتشر هناك بشكل كبير.كما نتشرت الدعوة في اليمن والمغرب ووسط وشمال فارس. لقد مثلت الإسماعيلية في الفترة من منتصف القرن التاسع حتى عام 899 م حركة موحده تدعو إلى محمد بن إسماعيل على انه امام غائب سيعود وكانت القيادة المركزية للدعوة تقيم في سلمية /سورية وكانت هوية القادة المركزيين سرية. =

. . . .

= في عام 899م أعلن عبيد الله المهدي ـ الخليفة الفاطمي فيما بعد ـ بأنه إمام وانه يتناسل من سلاله محمد بن إسماعيل والذي لم يكن المهدي المنتظر وانما اشاع الإسماعيليين ذلك خشية النيل من أبناءه وسلالته التي استمرت وهم (الوافي أحمد بن محمد بن إسماعيل ثم التقي محمد بن أحمد المستور ثم الزكي عبد الله بن محمد) والذي لم يعلنوا انفسهم كائمة بشكل علني خشية بطش الدولة العباسية. وبالتالي اعلن عبيد الله المهدي انه الامام الحادي عشر للمسلمين وأمر جميع الدعاة في مختلف الأمصار باعلان ذلك ونشر الدعوة باسمه الخاص بدلا من مهدية محمد بن إسماعيل. إلا أن الإسماعيلية في العراق والبحرين وخرسان رفضوا الاعتراف بامامة عبيد الله وكان على راسهم حمدان قرمط وواصلوا تمسكهم بأيمانهم الأصلي بشأن مهدية محمد بن أسماعيل ليقيموا سنة 899 م دولة في البحرين ويعلنوا عن قطع علاقتهم بعبيد الله فعرفوا فيما بعد بالقرامطة. بدأت العلاقة بين القرامطة والفاطميين بهجرة بعض القبائل العربية التي إتبعت دعوة القرامطة إلى مصر، بدأ الفاطميون بمحاربة القرامطة وذلك مذكور في رسائل الحكمة عند الموحدين الدروز، التي تتضمن الرسالة التي بعثها الحاكم بأمر الله الفاطمي. للقرامطة. بعد أن انتزع القرامطة الحجر الأسود من الكعبة. وأرسل الخليفة الفاطمى المهدي العلوي رسالة تهديد إلى أبو طاهر القرمطى يأمره برد الحجر الأسود إلى الكعبة وكتب عبيدالله المهدي في رسالته إلى أبوطاهر القرمطي يحذره أنّه إن لم يَرُد أموال أهل مكّة التي سرقها وإرجاع الحجر الأسود إلى مكانه ووضع ستار الكعبة عليها مجدّداً فإنّه سيأتيه بجيش لاقِبَلَ له بهم.أذعن القرامطة للتهديد، وأعاد موسم الحج، بعد تعطيله لمدة تقارب الأثنين وعشرين سنة. في عام 931 م سلم أبو طاهر الجنابي -وهو قائد القرامطة في البحرين- زمام الدولة في البحرين إلى شاب فارسي كان قد رأى فيه المهدي المنتظر.لكن ثبت ان ذلك القرار كان مدمرا بالنسبة للحركة القرمطية فقد أقدم ذلك الشاب على اعدام بعض أعيان دولة البحرين حتى وصل الامر إلى سب محمد والانبياء الاخرين الامر الذي هز القرامطة والمجتمع الإسلامي ككل مما أضطر أبو طاهر بالاعتراف انه قد خدع وان هذا الشخص دجال وامر بقتله. لم تدم زعامه الشاب الفارسي الا 80 يوم الا انها اضعفت نفوذ القرامطة وكانت ايذانا في بداية نهاية دولتهم.

تحولت الاعمال العدائية بين قرامطة البحرين والفاطميين إلى حرب معلنة ابان عهد الامام المعز وذلك في أعقاب الفتح الفاطمي لمصر سنة 969 م.وبحلول نهاية القرن العاشر كان قرامطة البحرين قد تقلصوا إلى قوة محلية وبحلول منتصف القرن الحادي عشر كانت الجماعات القرمطية في العراق وفارس وماوراء النهر قد انحازت إلى جانب الدعوة الفاطمية. بدأ الضعف يسري في بنيان دولة القرامطة منذ نهاية القرن الرابع هجري، فاستغلت قبائل إقليم البحرين هذه الفرصة وأخذوا ينازعونهم السيادة. وذكر ابن خلدون في تاريخه: أن الأصغر أبا الحسن الثعلبي زعيم بني ثعلب في الإحساء قد تحالف مع بني مكرم رؤساء عمان لطرد القرامطة، فاستولى بنو مكرم على عمان والأصغر على =

الخوارج[1]. وقد يحلو لبعض الباحثين أن يسبغ على هذه الحركات ثوباً من الثورية، والإنسانية، والبحث عن العدالة الاجتماعية والثورة من أجل الحرية،

= الأحساء وخطب فيها للخليفة العباسي. وادى ضعف القرامطة إلى ظهور ثلاث تكتلات في إقليم البحرين وهي: بنو الزجاج في جزيرة أوال: ويقودها أبو بهلول الزجاجي من عبد القيس. كان ضامنا للمكوس في جزيرة أوال. وإمارة آل عياش في القطيف: من بني عبد القيس، قضوا على حكم البهلول في جزيرة أوال، مما مكنهم من توحيدها مع القطيف. العيونيون: بزعامة عبد الله بن علي العيوني. وهي أقوى وأخطر تلك التكتلات. عندما هزم القرامطة أمام نفوذ آل البهلول المتنامي في أوال بالبحرين وفقد العديد من جنود وسفن القرامطة غرقا. أدى ذلك إلى تدهورهم، وتخلت عنهم العديد من القبائل، فتعاهدت بعض بطون ربيعة بن نزار على التخلص من نفوذ القرامطة، فأمروا عليهم عبد الله بن علي العيوني زعيم آل إبراهيم ومؤسس دولة العيونيون.

(1) الخوارج: فرقة إسلامية، نشأت في نهاية عهد الخليفة عثمان بن عفان وبداية عهد الإمام علي بن أبي طالب ﷺ، نتيجة الخلافات السياسية التي بدأت في عهده. كان أغلب الخوارج من (القراء) أي حفظة القرآن الكريم، وقد بايعوا علي بن أبي طالب ﷺ بعد مقتل عثمان بن عفان. ثم خرج معاوية في جيش لملاقاة الإمام علي ﷺ وكانت موقعة صفين. بعد انهزام جيش معاوية القادم من الشام أمام جيش الإمام علي ﷺ القادم من العراق وقبل أن يفنى جيش الشام أمام جيش العراق، أمر عمرو بن العاص أحد قادة الجيش الشامي برفع المصاحف على أسنة الرماح دراً للهزيمة المحققة ثم طلبوا التحكيم لكتاب الله. شعر الإمام علي بن أبي طالب ﷺ أن هذه خدعة لكنه قبل وقف القتال احتراما للقرآن الكريم وأيضا نتيجة رغبته في حقن الدماء وذلك رغم أنتصار جيشه، وبعد توقف القتال والتفاهم على أن يمثل أبو موسى الأشعري الإمام علي بن أبي طالب ﷺ ويمثل عمرو بن العاص معاوية بن أبي سفيان، وحددوا موعداً للتحكيم وفي طريق عودتهم إلى العراق خرج إثنا عشرألف رجل من جيش الإمام علي ﷺ يرفضون فكرة التحكيم بينه وبين معاوية بن أبي سفيان في النزاع. لقد رأوا أن كتاب الله قد (حكم) في أمر هؤلاء (البغاة) (يقصدون معاوية وأنصاره) ومن ثم فلا يجوز تحكيم الرجال ـ عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري ـ فيما (حكم) فيه (الله) صاحوا قائلين: (لا حكم إلا لله). ومن هنا أطلق عليهم (المُحَكِّمة). ما كان من الإمام علي ﷺ إلا أن علق على عبارتهم تلك قائلا: (إنها كلمة حق يراد بها باطل). بعد اجتماع عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري نتج عنه تضعيف لشرعية الإمام علي ﷺ وتعزيز لموقف معاوية، ازداد المُحَكِّمة يقيناً بسلامة موقفهم وطالبوا الإمام علي ﷺ بـ: رفض التحكيم ونتائجة والتحلل من شروطها. والنهوض لقتال معاوية. ولكن ألإمام علي ﷺ رفض ذلك قائلا: (ويحكم! أبعد الرضا والعهد والميثاق أرجع؟ أبعد أن كتبناه ننقضه؟ إن هذا لا يحل). وهنا انشق المُحَكِّمة عن الإمام علي ﷺ، واختاروا لهم أميرا من الأزد وهو عبد الله بن وهب الراسبي. أطلقوا على أنفسهم: المؤمنين ـ جماعة المؤمنين ـ الجماعة المؤمنة.

وغير ذلك، ولكن حين ندقّق في حقيقتها فإننا نستكشف انحرافاً في عقائدها، وخللاً في ظروف نشأتها، وخطلاً في التعبير عن نفسها، وضلال اسلوبها في تحقيق أهدافها.

إن العنف حالة مرضية، والتعبير عنه بعمل عنفي مظهر من هذه الحالة المرضية، وينبغي لنا أن نعالجه وفق أسلوب علمي بمعالجة أسبابه ودوافعه وغاياته ومقاصده، فنشخّص الحالة أولاً، ونبحث عن أسباب قيامها ثانياً، ثم - ثالثاً - نحدّد علاجها بصورة متكاملة، لا تنفصل عن الحالات المرضية للمجتمع الإنساني، فنعالج الجانب النفسي، ونعالج الجانب الفكري، ونعالج الجانب الاجتماعي ككل متكامل ملتحم مع حركة الحياة والمجتمع. وأهم من كل ذلك هو أن نعي عملنا، ونوحّد مقاييسنا فنحكم على الخطأ بأنه خطأ والصواب بأنه صواب وفق معايير ثابتة لا تتغير لأنها الحق، والحق لا يتغيّر ولا يتبدّل ولا يتحوّل. وهكذا يمكن معالجة العنف وأسبابه ودواعيه وتداعياته بحسم وصرامه وحرية لا تقبل المساومة أو المهادنة. وعندئذ نحكم على كثير من الحركات العنفية التاريخية والمعاصرة وفق نشوئها وأهدافها وأساليبها بأنها على حق أو على ضلال ولا نستبعد في ذلك كثيراً من الحركات التي تمظهرت بمظهر الحق، وتدثّرت بشعاراته، والتفّ حولها الانصار والاتباع لكنها اخطأت طريقها، ولم تحقّق أهدافها المعلنة.

وفي العصر الحديث والمعاصر برزت بعض التيارات العنيفة المتطرفة كالقاعدة، وحركة طالبان اللتين تبنيتا ما سمّوه بالإسلام الجهادي. وفهموا الإسلام بعيداً عن جوهره الإنساني، واسلوبه القائم على الحكمة والموعظة والجدل بالتي هي أحسن وقدّموا أنفسهم كمدافعين عنه مجرّداً من ظروفه العامة والخاصّة، وقاموا بعمليات أضرّت بسمعة الإسلام ومصلحة المسلمين، أدّت إلى فرض فهم مغلوط له، فنفّرت الناس عنه، وجعلت بينه وبين الناس جداراً من سوء الفهم له. لذا وجب على المسلمين التحرّك باتجاهين:

الأول: تقديم الإسلام كما هو حقيقته ديناً للتسامح، والمحبّة والدعوة إلى الخير والوحدة والتعاون والتكافل واحترام الآخر، والتواصل معه شعورياً وفكرياً ومصلحياً جزءاً من حالة صحية يريدها الإسلام لخلق حضارة إسلامية إنسانية ترفد الحضارات الأخرى بقيم الإيمان والخير والنماء، والتطور والإبداع.

والاتجاه الثاني: هو التحرّك لكشف جذور هذه الحركات، والشبهات التي أحاطت بها، وكونها غريبة عن الإسلام، وتهدف إلى توجهات سياسية ضيّقة تخدم جهات معادية للإسلام. وتنبيه الناس إلى خطرها وأن الإسلام على النقيض منها، وهو جوهر حضاري متجذّر في حياة الناس ومتطلع إلى بناء حضارة إنسانية كريمة.

إن التحرك في هذين الاتجاهين أمر ضروري وحيوي لابقاء الإسلام الحقيقي قائماً وفاعلاً في حياة الناس، فينفتح على الناس، وينفتح الناس عليه. وبذلك تتحقق الغاية من إنزاله رحمة للعالمين. أما هؤلاء المتشددون الذين اتخذوا العنف وسيلة لفرض قناعاتهم على الآخرين: مسلمين، وغير مسلمين، فعلينا أن نبصّرهم بعاقبة أفعالهم، وما تجرّه من انعكاسات سلبية على الإسلام والمسلمين ـ كما هو حادث فعلاً ـ وذلك عن جرّهم إلى الحوار وتوريطهم فيه، ليعلموا أن عاقبة أمرهم إلى ثبات، وأن فهمهم المغلوط للإسلام، لا يجري نفعاً ولا يؤدي إلى خير، وأن عليهم أن يراجعوا أنفسهم، وآليات بحثهم، ومناهج تفكيرهم ليصلوا إلى قناعات جديدة توحّد المسلمين، وتنفتح على غير المسلمين حباً وسماحة وتعاوناً على البر والتقوى وبذلك تقوم حضارة إنسانية تصطبغ بصبغة الإسلام الكريمة ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البَقَرَة: 138]، حضارة تقوم على ما أنجزه الإنسان ـ شرقاً وغرباً ـ من مكاسب عمرانية، وابتداعات تكنولوجية يمدّه الدين بما يملك من قيم وفضائل وغايات نبيلة ومقاصد شريفة وآليات سليمة كريمة نابعة من العمق الإنساني للدين.

إنّ هذه الحركات العنفية قامت على الاستفزاز، والاستهانة بالآخرين، وتسفيه عقائدهم، وتكفيرهم، وسلب صفة الإيمان عنهم، فكأنّهم قيّمون على الناس يصنّفونهم كما يشاؤون وفق معايير ضيّقة وخاطئة وواهمة. وهذا ما لا يقوله الإسلام ولا يقرّره ولا يسمح به، فالإسلام ذلك الفكر المشرق، يدعو إلى الانفتاح على الآخر، واحترام عقيدته وموقفه واسلوبه في العيش، وخصوصيته الحياتية. وقد يفيدنا في ذلك إصدار قوانين تحرّم الإساءة إلى العقائد والمذاهب والرموز الدينية، ولكن ما يفيد أكثر هو تربية الناس على احترام الآخر، والتعايش معه، بل ومشاركته في مشاعره وشعائره، وإشعاره أنه قريب منه في إنسانيته، واخوّته، وفي مصالحة المادية، واعماقه الروحية. وبهذا ـ وحده ـ نكبح نزعة

الظلم والتسلط وإلغاء الآخر ومصادرة حرياته، وسلب حقوقه في الحياة. وبهذا يبنى المجتمع الإنساني متفاعلاً مع بعضه كما كان العراق يعيش في النصف الأول من القرن العشرين.

إن البلاد الإسلامية كانت إلى وقت قريب تعيش حالةً من الأمن والاطمئنان والتكافل والتفاهم بين المسلمين ـ على اختلاف مذاهبهم ـ بينهم وبين غير المسلمين يتحرّكون وفق مسارات إنسانية ينفتح بعضها على البعض الآخر بعيداً عن الانغلاق المذهبي أو الديني فنرى المسلم يشارك غير المسلم آلامه وآماله في إطار وحدة إنسانية تكفل للجميع الأمن والسلام والاستقرار إلى أن نجمت الفتن الطائفية ببروز الفهم المتشدد للدين الذي جاءت به الحركات المتطرفة والتي ازدادت قوةً واتساعاً بتمويل دول واحتضان الغرب لقواعدها، ومخططاتها التي تلتقي مع أهدافه ومصالحه في إحداث شرخ عميق في الحياة الإسلامية التي نشهد حالات الانقسام والاصطراع فيها ونزيف الدم والثروة والطاقات الروحية والنفسية بسبب قناعات زائفة لا تحمل للإنسان أملاً في الحياة، ولا تفاؤلاً في المستقبل ولا رحمة بين الإنسان.

يمكننا القول بأن المواطنة.. تمثل الأرضية الصالحة للبدء في هذا التحالف، خصوصاً بعد تحولين أساسيين:

أ: قبول الإسلاميين لفكرة المواطنة في العديد من الدول الإسلامية.. وليست المواطنة غريبة عن الإسلام. فهي تعني: حق الحياة، وحرية العقيدة، وحرية العمل، وحقّ السكن... وهذه كلها مبادئ لا تتناقض مع الإسلام، بل هي من جوهره. فالإسلام منح الإنسان حق الحياة وجعله مقدّساً لا يجوز المساس به وهدمه قال تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المَائدة: 32]، وقل مثل ذلك في حرمة العقيدة: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البَقَرَة: 256]، وقال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: 29]، وقال ﷺ: (الآدمي بنيان الرب ملعون من هدمه)[1]، وقل مثل ذلك في سائر حقوق المواطنة.

---

(1) محمد بن سليمان الحلي الريحاوي: نخبة اللآلي لشرح بدأ الأمالي/ 36.

ب: تراجع الفكر القومي العربي الذي كان يقوم على أساس فكرة التمييز العربي، بل أن تراجع الأفكار التي تميز القوميات عن الأعراق الأخرى، هي من الأمور المساعدة على إنجاح مثل هذا التحالف. . .

وعلى الرغم من كون الفكر القومي العربي ـ في أغلبه ـ ليس شوفينياً، فإن الفكر القومي ـ مهما كان انتماؤه وصفته ـ مصدر من مصادر التمييز بين إنسان وآخر، وأمة وأخرى، ومن عوامل الفصل، وموانع الاندماج، والتفاعل الحر، هذا التراجع أضاف عنصراً جديداً إلى معادلة التحالف الحضاري وجعله أممياً، وجعله سهل التداخل والتفاعل، والتشكل بصورة عفوية.

إن القبول بالمواطنة يخلق أرضية صالحة لمثل هذا التحالف. وهذا أمر ما زال في عالمنا العربي والإسلامي على نحو العموم من الأمور التي يرفضها القادة السياسيون. لكنها أمر ضروري في عالم يسهل فيه التواصل والهجرة والعودة بعد الهجرة. كما أنه يؤدي إلى الاستفادة من الآلاف من الكوادر التي هاجرت وطورت أنفسها في الخارج. .

إن شيوع مفهوم المواطنة ـ وهو مفهوم غريب حديث ـ في عالم اليوم ومنه العالم الإسلامي جعل الإنسان يتمتع بحقوق كان محروماً منها وخاصة أن مفهوم المواطنة ـ بمفهومه الغربي ـ لا يتعارض مع مبادئ الأديان، ومفاهيمها ومقاصدها الخيّرة التي جعلت للإنسان قدسية، ومنحته حق الحياة، وحق التفكير، والاختيار في شتى مجالات الحياة، كما أن العصر الحاضر في البلاد الإسلامية شهد سقوط كثير من الحواجز الفكرية والنفسية بين الناس وبين الأمم، فلا تمايز عنصري أو طبقي أو ديني وإنما كلهم عباد الله اخواناً يجمعهم المبدأ الأول وينتهي بهم المصير الأخير على حدٍّ سواء.

إن شيوع مبدأ المواطنة والإيمان به وصيرورته من القناعات الأساسية في حياة الأمم والشعوب قرّب بينها ووحّد في تطلعاتها واتجاهاتها، وساقها في طريق التحالف الحضاري المبني على وحدة الإنسان والأديان مع اختلاف خصوصيات كل منها. وهذا لا يقدح في أساس الفكرة، ولا يضر بالتماسك الاجتماعي المبني على قناعات ثابتة وتحميه مبادئ قائمة وقوانين فاعلة.

وتشهد بعض دول الغرب لوناً من هذا التحالف الحضاري القائم على

وحدة المفاهيم والمبادئ والأهداف ما ألغى كثيراً من التناقضات وأسقط كثيراً من الحواجز المفتعلة التي أضافتها الأزمات المفتعلة، فعاد الإنسان أخاً للإنسان أحب أم كره، وإن ظهرت بعض السحب السوداء في الأفق فهي زائلة لا محالة بحكم تجارب الإنسان وخبراته الحياتية وبحكم المصالح المشتركة لبني الإنسان.

إنّ الأنظمة الدكتاتورية وشبه الدكتاتورية التي تحكم أجزاء واسعة من العالمين العربي والإسلامي تحرم مواطنيها من التمتع بحقوق المواطنة كأنهم لم ينتموا إلى الإسلام ولم يعوا حقائقه ومفاهيمه، وكأنهم لم يعيشوا عصرهم ويدركوا المنجزات الكبيرة التي حققتها الأمم في مجال المواطنة وحقوق الإنسان، وكأنهم لم يتّعظوا من أحداث التاريخ وتطوراته، وكيف دفع برموز الدكتاتورية، وعتاة الحكام إلى مزبلته، بعد أن أوقع بهم الهزيمة والذلّ والهوان فإن طريقتهم هي الاستهانة بكرامة الإنسان ومصادرة حريته وسلب حقوقه وتجريده من حقوق المواطنة. نجد العالم منفتحاً بعضه على بعض قد شرعت أبوابه، والناس في تواصل معرفي وثقافي. وفي تبادل الخبرات والمنجزات، وفي الاستفادة من كل ما تحقّق شرقاً وغرباً، وهو مسخر لخدمة بني الإنسان في كل زمان، ومكان، وأجهزة التواصل والاتصالات جعلت العالم قرية صغيرة كالفضائيات، والانترنت، وأجهزة الاتصال (الموبايل).

كلّ هذه الظروف الجديدة والحديثة صنعت إنساناً جديداً.

إن بشر اليوم مطالب بحقوقه، فإنه سيثور غداً ـ لا محالة ـ لاسترجاعها.

نعم: إنّ هناك معوّقات تمنع إنسيابية قيام تحالفات حضارية هذه المعوّقات موجودة أساساً في المجتمعات البشرية ويمكن تذليلها، والتخفيف منها، وتجاوزها كاختلاف الأديان في القارة الهندية واصطراعها في وسط جاهل متعصب، وبشيء من المرونة والتثقيف وزيادة الوعي، والشعور بالآخر واحترام رأيه كفيل باذابتها وإزالتها. وهناك معوّقات مصطنعة بمن صنع عوامل خارجية معادية للإنسان واستقراره.

إن الإنسانية ـ اليوم ـ تسعى لإقامة نظام سياسي واجتماعي جديد يقوم على التحضّر الذي يجمع بني الإنسان في طريق واحد. لهذا فإن انهيار الأنظمة الدكتاتورية تعبير عن إرادة الناس في الحرية والعدالة الاجتماعية، كما أن حواجز

اللغة والتقاليد الصارمة بدأت تتغير، فالإنسان اليوم يتكلم بلغة العلم، ويتصرف بتقاليد المصلحة المشتركة التي يحكمها القانون، كما أن نزعة الحرية الكامنة في ضمير الإنسان بدأت تتفجّر مؤذنة بفجر جديد يعترف للإنسان بحرية الفكر والعقيدة والموقف والتعبير، كما أن استخدام الإنسان الأمثل لكل ما أنجزته الحضارة الحديثة وحدّ في أساليب عيشها وأنماط سلوكها كونها وحّد في وسائل حياتها المادية وآليات انجاز شؤونها فاستخدام السيارة والطيارة والهاتف النقّال. والنظام المصرفي الواحد، وارتداء الزي الحديث، واغناء روح الإنسان وعقله بكثير من المثل الحضارية، والمظاهر المتمدنة كل ذلك قرّب بين تفكير الناس وأذواقهم ونمط معايشهم ووحد تطلعاتهم ما ساعد كثيراً في قيام نمط من الحياة الحضارية الواحدة وهذا قرّب في النزوع إلى التحالف الحضاري الذي هو نزوع الإنسان نحو أخيه الإنسان في التفكير والذوق، واسلوب الحياة.

إرادة التغيير طريق إلى تحالف الحضارات

صراع الحضارات. . . مصطلح قديم جديد. قديم لأن هناك واقعاً تاريخياً يقول به، وجديد كونه أثير في الآونة الأخيرة بقوة وتحدٍّ وإثارة وتضخيم وقد أدى اهتمام الكاتب الأمريكي (صموئيل هنتجون) في مقاله (صدام الحضارات) إلى ابرازه، وابراز التداعيات الخطيرة المترتبة عليه إلى اثارة الكثير من الاهتمامات والافكار المتسمة بالمبالغة بل المزايدة والتضليل والتهويل بلا أساس وبلا سند. ويبدو أن اثارة مثل هذا الموضوع بهذا المفصل التاريخي من حياة الأمم والشعوب كان لغرض سياسي، لا علمي، ليكرّس سيطرة حضارة معيّنة ـ وهي الحضارة الغربية المعاصرة ـ على سائر الحضارات الإنسانية بإنجازاتها العلمية والتكنولوجية المادية وليكرّس سيطرة العقل الغربي المادي على مقدرات الحياة الإنسانية واستنزافها لمصلحة الإنسان الغربي لكي يتفرّد بالقرار السياسي والاقتصادي والفكري غافلاً عن كل الانجازات العقلية والروحية للحضارات الإنسانية القائمة الآن والسابقة. فالحضارات لا تتصادم بانجازاتها العلمية، وإنما الذي يبعث على (الصدام) هو القيم التي أفرزتها الحضارة الغربية التي اصطبغت بالنزعة المتعالية والمسيطرة على الأمم والشعوب وقهر الحضارات الأخرى لأهداف سياسية تستند إلى أسس فلسفية واهية.

لقد استغل بعض مفكري الغرب ومخططي سياسته المستقبلية حالة التخبّط التي تعيشها المجتمعات الإسلامية وتمزّقها في الانتماء الحضاري إلى المعاصرة والحداثة أو القدم والسلفية مما ترتب عليه من أعمال عنف وحركات إرهابية تلبّست ثوب (الجهاد) بغير حق ولا يقين كما استغل هؤلاء حالة التخلف الاقتصادي والاجتماعي الذي تعاني منه المجتمعات الإسلامية والتراجع في مجالات العلم والحريات وحقوق الإنسان فخلقوا لهم بعبعاً معادياً لهم ولقيمهم الحضارية وانجازاتهم التكنولوجية، وافتعلوا معه صراعاً وهمياً.. والحقيقة أن الصراع في المجتمعات الإسلامية هي صراع داخلي بين قيم ومفاهيم متقاطعة متعارضة وتوجهات دنيوية واخروية أكثر منه صراعاً خارجياً بين حضارة وأخرى. نعم إذا كان هناك صراع فهو صراع بين قيم روحية ورثتها المجتمعات الإسلامية وقيم مادية جاءت بها الحضارة الغربية وما يترتب على هذه القيم من ممارسات وأخلاق والتزامات. نعم يمكن للحضارة الإسلامية بقيمها الروحية والأخلاقية أن تكون خطراً على الحضارة الغربية بقيمها المادية الدنيوية ولكنه ليس صراعاً على اصطناع المناهج العلمية وما أفرزته من انجازات تكنولوجية.

إن تصور الصدام وتوقع الصراع، وتخيّل عدو وهمي قادم هو تعبير عن حالة الرعب والهلع الذي يمكن أن تقع فيه الحضارة الغربية التي تخشى على مغانمها المادية، كما هو تعبير عن أهداف سياسية خسيسة وظالمة يراد منها عزل التأثيرات الإسلامية في الواقع الاجتماعي الغربي.. ولا عجب أن نرى السياسة الغربية تفتعل الصراع، وتصنع الإرهاب وتنسبه إلى الإسلام كدين، وإلى المسلمين كأمة حتى أصبح مصطلح الإرهاب لصيقاً بالإسلام والمسلمين، وقد انساق بعض المسلمين الذين ينظرون بعين واحدة فتورطوا بأعمال إرهابية تخدم ـ بوعي وبغير وعي ـ مخططات الساسة الغربيين فأساؤوا إلى الإسلام كدين وعزلوه عن حركة الحياة وإلى المسلمين كأمة عاشت النقاء الروحي والفكري وانحازت إلى الحب والرحمة والسماح والتكافل الإنساني. ومن هنا بدأت الحرب الفكرية والسياسية والعسكرية على المسلمين في شتى بقاع المعمورة تكريساً لفكرة العدو اللدود الحتمي للحضارة الغربية. ومن هنا كان رد فعل بعض المسلمين بحرب مضادّة تستهدف الغرب عسكرياً واجتماعياً واقتصادياً. ومن هنا تداعى بعض المسلمين إلى الحفاظ على قيمهم الإسلامية وفضائلهم الخلقية وتماسك مجتمعاتهم تجاه ما يخطط لهم وما يراد بهم.

ولكن هذا لا يعد ـ بحال ـ حرباً حضارية، أو صداماً حضارياً بقدر ما يكون ذلك دفاعاً عن وجود مستقل متكامل تجاه فيروسات تدّعي التحضّر والتمدّن ولكنها تسلك مسلكاً همجياً يهدف إلى قتل إنسانية الإنسان وما تنطوي عليه من قيم مترفعة، ومفاهيم متعففة، وسلوك متسام على صغائر الدنيا وغرائز الحيوان. يحدث كل ذلك ونحن على أعتاب القرن الحادي والعشرين، فكأننا لم نتعلم من تجارب الماضي، ومآسي التاريخ، وحروب القرون الماضية وكوارث الصراع ما يكفي. ثم نتساءل: إلام التدهور والتخلف في عصر التنوير والتقدم والعولمة الذي رفعت فيه رايات القرية الكونية، واختفاء الحدود، وزوال حواجز الزمان والمكان بما أحدثته ثورة المواصلات وتقنيات الاتصالات وغزو الفضاء؟

كيف وصلنا إلى هذا المنعطف الخطير الذي يصور الحياة صداماً وصراعاً؟

هل نسينا تعاقب الحضارات وتكاملها؟ وهل غفلنا عما تنادي به رسالات السماء من وحدة الخلق، ووحدة الهدف؟

إن كلّ ذلك يدعو إلى التصالح، لا إلى التصادم، وإلى التكامل، لا إلى التقاتل، وإلى أنسنة الأشياء من حولنا، لا تدميرها وتسخيرها لغير مصلحة الإنسان.

إن الدين عامة والإسلام خاصة يحارب هذه التوجهات ويشجب هذه الممارسات، ويدعو إلى اللقاء والتعايش ويرفض الصراع والاحتراب فإن دعوة الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى التعاون ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المَائدة: 2]، (وكونوا عباد الله اخواناً)[1]، وقد هيأ آليات التعاون والتآخي ورسم طريقه، ووضع حدوده على مستوى التنظير، والتطبيق. فالإنسان هو الإنسان في كل زمان ومكان، وهو خلق الله وخليفته في أرضه، وحامل رسالاته، والداعي إلى فضائله. فإن حدث انحراف هنا أو هناك في المسيرة الإنسانية على مستوى الفهم والعمل فإن معايير الله الخالق قائمة وقادرة على التصحيح والتقويم. والدارس للحضارة الإسلامية فسيجدها ـ في مختلف مظاهرها ـ حضارة إنسانية تستوعب الإنسان عامة وتتعامل معه بالرفق والحسنى ولا تلغي

---

(1) محمد الريشهري: ميزان الحكمة/ 3، 2004.

خصوصيته بحال، فهو مستقل فكراً وسلوكاً وابداعاً وتعبيراً عن نفسه ولكنه جزء من مجموع متكامل متفاهم وتعايش يشكل المجتمع الإسلامي ومن ثم يشكل المجتمع الإنساني. لهذا نرى مظاهر التنوع والتعدد تطبع الحضارة الإسلامية وتعبّر عن حالات التعايش السلمي بين مكوّنات المجتمع الإسلامي، فلا ترى إلغاءً أو تهميشاً، أو اقصاءً لأي مكون حضاري فإنه يفرض نفسه إبداعاً وانتماءً بقدر ما يتمتع به من قوّة في المواهب والعمق في القابليات والاستعدادات. وإن حدث لون من الصراع بين اتجاهات تبدو متعارضة ومتقاطعة فإنما هو صراع مبدع يحافظ على كل الاتجاهات مع الاحتفاظ والاعتزاز بالجديد المبدع، والعنصر القوي الذي يستحق الحياة والبقاء.

إن الحضارة الإسلامية قد استفادت من تراث وانجازات كل الحضارات السابقة والمعاصرة لها كالحضارة الهندية والصينية والفارسية والرومانية واليونانية في مختلف مجالات الحياة كالطب والهندسة والعمران والمنطق والفلسفة ومناهج البحث، واستفادت منها وجعلتها في صلب تحضّرها ومناهجها دون أن ترى ضيراً في ذلك ومن دون أن تتوقع حدوث صراع أو تداعٍ في الفكر والحياة إلّا ما كان يخدم توجهاتها وأهدافها وانجازاتها فكل صراع لا يخدم الحالة الحضارية القائمة هو صراع مفتعل يفتعله قوم مغرضون لايقاف حركة الحياة، وتشويه حقيقة الإنسان. فدعوى (صدام الحضارات) لا صلة له بالحضارة الإسلامية أو الشعوب الإسلامية، وليس الأمر مرتبطاً كذلك بحوار الحضارات من منظور محدود. فالحوار موجود وفعّال ونلمسه في قراراتنا وأفعالنا.. إننا نعتقد أن تكون الدعوة لتعظيم فعالية الحوار ولتقوية أواصره بإيجاد قواعد وآليات مشتركة لمزيد من الفهم والتفاهم والتأثير والتأثر وإثراء التبادل والتكامل بهدف مضاعفة الجسور وتوسيع الآفاق وتعظيم دور المؤسسات والاطر والآليات، وخلق وسائل وأنظمة أكثر فاعلية وعطاء بهدف تجنب العثرات وتلافي القصور وعبور الأزمات ووصولاً إلى خلق فرص التلاقي واللقاء والتواصل والتفاعل.

إن الأمر يتعلق إذن بتواصل وترابط الحضارات واستمرار رسالة الإنسان في تعمير الأرض، كل جيل يضيف إلى ما عنده لبناء الحضارة الإنسانية أما ما لحظناه من صراعات دموية بين الأمم والشعوب فهو ليس من صراع الحضارات في شيء وإنما هو صراع على الثروة والنفوذ يعمد إليه الحكام والقادة لتوسيع

سيطرتهم وكسب مناطق نفوذ لهم، أو استشعارهم بخطر داهم يهدد سلطانهم، فتكون الحضارات وانجازات الإنسان وحياتهم ضحية لهذا الصراع، فكانت تبيد حضارات كاملة ـ كما حدث في وادي الرافدين ـ نتيجة لابادة دول وأنظمة وشعوب مقهورة لتقوم على أثرها حضارات إنسانية تحمل سمات الحضارة البائدة مع سمات جديدة من حضارة الأقوام المنتصرة، وأحياناً تقوم حضارات أدنى أو لا حضارات اطلاقاً كما حدث في مصر عند مجيء الهكسوس، أو بعد الغزو المغولي للعالم الإسلامي. فالفعل فعل السياسيين والقادة العسكريين في صراعهم الدموي على السلطة والثروة والنفوذ، وما هو من صراعات الحضارات وانجازاتها الإنسانية العظيمة في شيء.

إن آفاق وأطر ومناهج التواصل بين الحضارات يمكن تحفيزها على محورين أساسيين.

الأول: المحور الثقافي والفكري والعلمي والفني (محور اللا ملموسات).. ويتضمن إيجاد الوسائل والآليات والفعاليات التي تحقق الحوار والتفاعل بين الحضارات التي تجمعها وتربطها روابط وعلاقات وتواجد مشترك جغرافي وتاريخي.

والثاني: المحور المادي والتطبيقي (محور الملموسات).. ويتم التركيز من خلاله على النواحي والتفاعل المادي، ويهتم بالأمور السياسية والاقتصادية والتقنية والعلمية والتجارية والسياحية والدينية، والقوى العاملة والمواد الخام والمنتجات الزراعية والصناعية.

إن الاستقرار والسلام والأمن الاجتماعي والسلم الأهلي هو مسؤولية مشتركة تتحمل مسؤوليتها كافة الشعوب والجماعات، وأن أي تداعيات في هذين الأمرين يؤثر على امن واستقرار البشرية.

إن هناك تحديات ومشكلات تواجه البشرية يمكن معالجتها بتحديدها موضوعياً، وتحليلها علمياً وتقييمها واقعياً وتعيين مواضع الوفاق والإكثار منها، والتوسع في الاستفادة منها، وتحديد مواقع الاختلاف والتعامل معها ايجابياً بروح المصلحة المشتركة، وإن التعامل معها جميعاً يتطلب إطاراً عقلانياً وفكرياً منفتحاً يتقبل كل وجهات النظر وكل الحلول الممكنة لمعالجة مشاكل التطوير

والتنمية بغية مواجهة المستقبل المشترك الآمن والواعد للجميع.

وكما أنه يمكن معالجة مواضع الاختلاف بجدية وايجابية والتعامل معها بعقلية المصالح المشتركة. فإن معالجة مواضع الاتفاق والوفاق يكون أسهل لما فيها من مواطن التوحيد، والقواسم المشتركة واللقاء والتفاعل والتفاهم والمشاركة المفيدة نابعة من التاريخ والمصالح المشتركة.

إننا ـ كمجتمع بشري ـ نواجه مسؤولية مشتركة نتحمل تبعاتها سلباً وإيجاباً فينبغي لنا أن نحرّر أنفسنا من كل قيدٍ أناني وأن نحرّر توجهاتنا الاستراتيجية والفكرية والتطبيقية للاكثار من الايجابيات، والاستفادة منها في توسيع الرقعة المشتركة لأي لقاء، وحصر السلبيات وتقويمها وتصحيح مسارها والتفاعل معها من خلال نقدٍ ذاتي هادفٍ وفعّال. يتم ذلك من خلال مؤتمرات وندوات وجلسات علمية وحلقات دراسية من كل نوع وعلى كافة المستويات وفي شتى المجالات، وبهذا يمكن لدوائر التواصل بين الحضارات أن تتسع في حلقات أكبر واشمل على أسس موحّدة من المصالح المشتركة والفوائد المتبادلة. فالجميع يجب أن يتّفقوا على أنهم جميعاً على مستوى واحد من الرؤى والطموح.

وحينما نقول: (على مستوى واحد من الرؤى والطموح) فإنما نعني الوعي الكامل بحقيقة المهمة الجسيمة الملقاة على عاتق الجميع وهي مسؤولية تاريخية حضارية تحدد المفاصل الأساسية لمستقبل الإنسانية، كما أن الطموح يجب أن يكون واسعاً فسيحاً بعيداً كون المستقبل الإنساني ممتداً إلى أقصى تخوم المستقبل المنظور وغير المنظور.

إن الإنسانية اليوم تبحر في سفينة واحدة في بحر لجّي وتواجه مصيراً واحداً مع اختلاف النوايا والتوجّهات، وهي تواجه تحديات المجتمع الإنساني المتطلع إلى حياة كريمة آمنة مستقرة في ظل حضارات متشابكة متآلفة من أجل تحقيق تنمية بشرية متواصلة لمصلحة الأجيال القادمة.

إن الإنسان ينطوي على قدرات هائلة وطاقات جسيمة لم يستغل إلّا أقلها، ولم يستثمر إلّا القليل منها وأنه لو حاول تفجيره جدياً لتمكّن من خلق المعجزات وانجاز المستحيلات. وهذا الأمر لا يكون إلّا في ظل أمن اجتماعي واستقرار حياتي وبناء حضاري متين رصين عند ذاك يكون الإنسان هو القوة الوحيدة

الواعية والفاعلة في هذه الأرض يصرفها كيف يشاء خاصة وقد امتلك مفاتيح العلم وولج أبواب المعرفة.

إن عجلة التطور التكنولوجي وثورة المعلومات واكتشافات الفضاء الخارجي تسير بمعدّل أسرع بكثير من استيعابنا لها، بل تقبلها، ولا يوجد هناك خيار في قبولها والتعامل معها، فقد أصبحت جزءاً من الواقع الذي يعيشه الإنسان، وفرضت نفسها على أسلوب تفكيره ونمط عيشه فلابد له من أن يتقبّلها، وخاصة عنصر الشباب الذي بات متحمساً لها مندفعاً في تسخيرها والسيطرة على قوانينها، فقبوله لها أمر مفروغ منه، ولصيق بحياته، وهو جزء من قناعاته وغاياته، فأجيال الشباب الصاعدة تعي هذه التطورات والتغيرات الجذرية في مجال الاتصالات والمعلومات والتطور التكنولوجي ولا يمكن خداعها أو إقناعها بما هو أقل وعداً أو أضيق نطاقاً.

إنّ رغبتنا في تطوير قدراتنا وتنمية استعداداتنا النفسية والفكرية هو الكفيل بتفجير كل الطاقات الكامنة في أعماقنا وتحويلها إلى فعل إنساني ناجز مفيد. وأهم من كل ذلك تعميق وعينا بذواتنا وإمكاناتنا وقدرتنا على التغيير. إن من الواجب علينا من منطلق قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرّعد: 11] أن نغيّر ما بأنفسنا بوعينا، وصبرنا ودأبنا.. أن نغير من رؤانا ومناهجنا وتوجهاتنا واستراتيجيتنا وأدائنا كي نواكب تيار التغيير السريع الجارف ولكي نتجنّب الخطر الداهم أو الوقوف أمامه بلا مناص من التعامل معه والانبحار مع اتجاهه.

وأعظم ما في آية التغيير هذه أن الله جعل إرادة التغيير بيد الإنسان وهذا يتطلّب وعياً وإدراكاً وتخطيطاً وهادفية وحرصاً على سلوك السبيل الأقوم وتصحيح كل المسارات المعوجّة والمنحرفة فإرادة الإنسان أولاً ثم إرادة الله الذي يصنع التغيير تالية لها، وهذا تكريم للإنسان واعتراف بطاقاته، وثقة بامكاناته، واستجابة من خالقه الله سبحانه بإرادته الحرة القادرة على التغيير والتطوير. وهذا عين ما تقوم عليه الحضارات الإنسانية من اصطفاء الخير والجيد والحسن ونبذ السيء، ونفي الرديء والمنحرف وبذلك تكون مقاييس الحضارات واحدة، ومعايير الحكم واحدة، فيتوحّد الإنسان في حضارة إنسانية واحدة.

التواصل الحضاري

خلق الإنسان مفكراً، وفي دواخله بذرة السعي إلى التطوّر والتحضّر، فأبدع من خلال خبراته الحياتية، وتفاعله مع مفردات الوجود من حوله كثيراً من الحالات الحضارية التي تنمّ على حقيقة وجوده، وهادفية دوره. والثقافة لون من ألوان إبداعه جاء بها بعداً عميقاً عريضاً لاكمال أبعاد شخصيته الإنسانية.

وقد عرفت الإنسانية على امتداد مسيرتها الطويلة أنماطاً من الثقافات منها: ما جاء في فترات متعاقبة. ومنها: ما كان معاصراً لبعضها. ومنها: ما تآلف مع غيره أو تنافر معه. والملاحظ أن التعاقب الحضاري أصبح ظاهرة تاريخية، أشبه ما تكون بالسنن الكونية الثابتة. فما أن تضمر حضارة وتنطوي إلّا قامت حضارة بديلة عنها تحمل بعض بذورها، وبذوراً أخرى متمايزة عنها، فتشكل حضارة جديدة فيها من التشابه والتمايز مع ما سبقها من حضارات.

وجاء الإسلام بمفاهيمه الإلهية، فأقام حضارته على أساس التوحيد، ثم على أساس المفاهيم والفضائل الإلهية فكانت حضارة متميّزة تقوم على موضوعية العلم، وحيادية المعرفة، وعمق الأفكار، وشمولية الطبيعة الإنسانية، فكان إبداع الحضارة الإسلامية مصطبغاً بالفكر التوحيدي البعيد عن كلّ عبودية لغيره، والنزعة الإنسانية التي تكرم الإنسان وتسعى لاسعاده.

لقد أقام الإسلام كياناً مدنياً جديداً قوامه العلم والمعرفة فنسخ الكيانات السابقة وحارب خرافات الجهالة والتيه السائد في أفق العالم، وابتعثت حضارته بخصائص اجتماعية وثقافية وسياسية فريدة، ونظّر فكراً تنويرياً، فاستطاع أن يصوغ دستوراً واضحاً لمسيرة المجتمع الإنساني، وبهذا بدأ المجتمع الإنساني بخطوات واثقة متوازنة في درب الحياة، لا يخشى خطأً أو زللاً بحكم المفاهيم والتشريعات التي اجترحها وجعلها قانوناً ينظم حياة الأفراد والجماعات.

وهكذا دأبت منهجية العمل المتبع في صيرورة الثقافة الإسلامية إلى تجميع الرؤى والتصورات التأسيسية لإقامة المجتمع الإنساني المتناسق، والمتناغم مع منظومة التصور العقدي الجديد، فهو منتظم في سياق تصورات محددة واضحة لا يمكن اغفالها وتجاوزها والانقلاب عليها، فهي جزء من فطرته أو طبعه البشري، وهي متناسقة مع حركة الكون وسنن الوجود، وهي لصيقة بحاجاته الإنسانية المتشعّبة المتعدّدة. كما أصبح للعقل البشري وعاء عقائدي يحدّد مساره ويوائم بين معطيات المادة والروح.

إن الإسلام بمفاهيمه وتصوراته العقائدية وجّه العقل البشري وجهة هادفة يسلك فيها مسلك البحث والتنقيب، والكشف، والإثارة بما يخدم مصلحة الإنسان ويطوّر امكاناته وقدراته الابداعية مستفيداً من الميراث الحضاري الإنساني السابق عليه، والمعاصر له. وقد شكّك بعض الباحثين في طبيعة تعامل الإسلام مع ميراث الحضارات السابقة عليه والمعاصر له، ويزعمون أن الإسلام سعى إلى اقصاء بقية الشعوب والحضارات، وألغى وجودها، وصادر انجازاتها، لكونها تتقاطع مع مفاهيمه واعتقاداته وتوجهاته، إلّا أن الحقيقة ليست كما يدّعي هؤلاء.

إن الإسلام بأتباعه المسلمين واثق من نفسه، مطمئن إلى صلابة موقفه العلمي والعقيدي فهو لا يخشى من مزاحمة عقيدة له، أو نقض منهج لمنهجه فتراه منفتحاً على كل الحضارات والاتجاهات والتيارات غير خائف ولا وجل، فانفتح على حضارات: الهند، وفارس، والروم، واليونان، وأخذ عنها معارفها ومناهجها إلّا ما يتقاطع مع عقائده ومفاهيمه ومنهجه في الحياة.

إننا نستطيع القول: إن علماء الإسلام من الأوائل الذين كانوا ينشدون الحكمة والمعرفة في أي مكان، فأقبلوا على حركة المعرفة المتداولة على الساحة الإنسانية بروح الرغبة في نشدان الحق، وتقبل رفد الحضارات والثقافات الأخرى والإفادة منها. وهذا ما سار عليه عدد من كبار العلماء. فهذا الفيلسوف الكندي (ت252) يقول منوّهاً بضرورة التعاطي مع معارف الشعوب غير المسلمة: (ينبغي ألا نستحي من استحسان الحق واقتفاء الحق من أين أتى من الأجناس القاصية عنا والأمم المتباينة معنا، فإنه لا شيء أولى بطالب الحق من الحق). ومن هنا

فقد انفتح علماء الإسلام ومفكروه وحكماؤه على الحضارات الأخرى، فأخذوا منها ما ينفعهم ويعزّز موقف عقيدتهم، ويثري فكرهم وحياتهم، وذلك في كل مجالات الحياة والعلم والمعرفة، وقد تم ذلك بصورة انتقائية أحياناً وتوفيقية أحياناً. وعلى ذلك لم يشعر بناة صرح الحضارة الإسلامية بعقدة (النقص) عندما استثمروا الفكر الإنساني للحضارات المجاورة لهم أو السابقة، بل كانوا السبّاقين للتبادل المعرفي، والاقتباس الفكري واستعارة المنهج العلمي كما فعلوا ذلك مع الفكر اليوناني والتراث اليوناني عامة كالمنطق والفلسفة والطب، والرياضة، وعلم الهيأة، وكان لهم من الملكة العلمية، والقوّة النفسية والعقدية ما استطاعوا به احتواء منظومات الفكر اليوناني والفارسي الذي كان يئن من وطأة التردد والتيه لفساد المصادر الدينية وانحراف علاقة الإنسان بخالق الأكوان.

إن الإسلام ـ بمصدريته الإلهية وحركته الحياتية ـ تمكن من استيعاب الكثير من حقائق الحياة الحضارية للأمم الأخرى التي فتح بلادها وانفتح عليها وتفاعل معها، وأخذ عنها أسلوب تفكيرها ونمط عيشها ما دام لا يتقاطع ذلك مع قواعده وأسسه وتوجهاته، فإن المصدرية الإلهية تحدد إطار الحركة الإنسانية ولا تلغيها، وتعترف بدور العقل في التفسير والتجديد، ولا تتجاهل أثره في الاغناء والاثراء والعطاء، فالعقل مقدّس في المنظور الإسلامي فبه يثيب الله، وبه يعاقب، وهو مصدر الاعتقادات الحقّة، ومرجع الأحكام، والحياة مقارنة للإسلام، فهو دين الحياة، ودين الحركة الإنسانية المثمرة الهادفة التي تتحرّك في إطار الإسلام المحكوم بطبيعة الإنسان وخلقه.

وكان من دأب الإسلام ـ فكراً وأتباعاً ـ أن ينفتحوا على الإنسان وعلى حضارته من كل لون وجنس، ويتفاعلوا معه، ويتواصلوا معه بكل الطرق والأساليب وصولاً إلى هدف عام يتعلّق بالإنسان ـ مطلق الإنسان ـ وتطوير حياته، وإغناء حضارته، وتوجيه سلوكه توجيهاً إنسانياً سليماً، ولم يلغ الإسلام ـ في تاريخه الطويل ـ أية عملية تواصل مع الآخرين الذي يختلفون معه في صلب العقيدة، بل كان سبّاقاً إلى تكوين (حلقة وصل) بين المجموعات البشرية انطلاقاً من معرفة غاية الإنسان في الكون وضرورة توظيف العقل الذي يمثّل أداة راقية للتفاهم بين الكيانات البشرية. فكان الإسلام بذلك سبّاقاً على مستوى المفاهيم والممارسات لكل الاتجاهات الحضارية ـ حتى الحديثة منها ـ باحترامه

لمفرداتها، وإقراره بخصوصيتها، وحرصه على التعامل معها تعاملاً إيجابياً بنّاء يقوم على التفاعل والتبادل والتكامل. وهذا ما تفتقر إليه أي أمة من الأمم، واي عقيدة من العقائد، وهذه ميزة للإسلام على غيره.

وسعت الثقافة الإسلامية إلى تنظيم الحياة الإنسانية وفق منهج علمي واضح يوازن بين طموحات الفرد وتطلعات المجتمع ـ والتوازن سمة من سمات الإسلام الثابتة الخلّاقة ـ ويوائم بين المتغيرات في عالم الاقتصاد والاجتماع على أساس العدل وإحقاق الحق، وهذه سمة أخرى من سمات الإسلام كونه قادر على التكيف مع المتغيرات الحادثة في مختلف جوانب الحياة الإنسانية وذلك لمرونة فيه وقدرة على اجواء المتناقضات وصهرها في بوتقة معالجاته الحكيمة، لهذا نرى أن الحضارة الإسلامية هي نتاج التجارب الإنسانية، والخبرات المتراكمة للأجيال البشرية عامة لا يُطرح منها إلّا الفاسد، والرديء، والوبيء، ويستخلص منها النافع، والمفيد، والجليل، كي يكون لبنة في بناء حضارة الإنسان وفق رؤية إلهية.

وميزة أخرى للحضارة الإسلامية أو للثقافة الإسلامية كونها شمولية عامة وليست احادية النظرة، أو مزدوجة الرؤية، فإنها تنظر إلى الإنسان ككل متكامل: جسداً، وروحاً، وفكراً وعقلاً، ومشاعر نفسية جيّاشة، وأهدافاً إنسانية كريمة، ورؤية إلهية سليمة، وهي تنظر إلى الإنسان جزءاً من خليّة اجتماعية كبيرة تتشابه في الخلق والتركيب، وتتكامل في العمل والبناء، وتتوحّد في الهدف والاتجاه، هذه النظرة العامة غير التجزيئية منحت للثقافة الإسلامية ـ التي هي أساس الحضارة الإسلامية ـ أفضلية وفاعلية، وقدرة على الإبداع، والخلق والتجديد، فأضفت بهذا صبغة جديدة على مسيرة الفكر الإنساني، وأذابت الفوارق الوهمية بين الكيانات الإنسانية، وكرّست الصفة التكاملية بين مختلف الثقافات، وبسبب هذا التكوين المتميّز، أضحت الثقافة الإسلامية أقدر منظومة فكرية استوعبت مدينة المجتمعات السابقة واستثمرت ثمرات الفكر الإنساني دون تهميش أو إلغاء لهوية الآخرين. فالثقافة الإسلامية لا تعاني من الحساسية تجاه الثقافات الأخرى لأنها الأقدر على التأثير والمعالجة ولا تعاني من شعور بالنقص، كونها تجمع كل أطراف الفكر، ومناهج العلم، ومفاتيح الغيب بيد واحدة دون وقوع في فخ الخرافة والتضليل والقصور. فهي ثقافة قادرة فاعلة مؤثرة مبدعة منتجة في المنهج

وفي الأهداف كونها تتغلغل في أعماق الإنسان فتوجه عقله وتسكن روحه وتستبطن ضميره على الضدّ من غيرها من الثقافات التي لا تملك إلّا بعداً واحداً يسقط عند أول رهان.

والمحصّلة: أن الإسلام سعى إلى إيجاد ثقافة تواصل حضاري، وأرسى مبادئها تحت سقف التعارف الإنساني، وجسّد هذا داخل كينونة الثقافة الإسلامية ذاتها، فلا انقسام ولا صراع ولا تناقض، ولا تقاطع بين من يحملون الثقافة الإسلامية وإن اختلفت التفاصيل وإن تعدّدت الأهداف، فهناك إطار واحد يضمّ الجميع وهو الإطار الإلهي المنبثق من وحدة المبدأ ووحدة المصير الإنساني. ولا جدال في أن هذا التنوّع اللغوي والثقافي الثرّ مما يجب عدّه من مفاخر الإسلام الذي ينكر التفاضل القائم على التعصب القومي، وينحو منحىً استراتيجياً يستوعب آفاق الكون. ونظرة واحدة على المشهد الثقافي الإسلامي، ترينا هذا التنوع الخلاق في اللغة، والفكر والمنهج، مع وحدة الهدف، وصحة التوجّه في كون الثقافة الإسلامية تهدف إلى بناء الإنسان على هذه الأرض وإغناء فكره، وإثراء روحه، وتقوية جسده وصولاً إلى إعانته على بلوغ مرتبة إنسانية سامية للقيام بدوره في اعمار الأرض الذي أوكله الله ـ سبحانه ـ به.

قبول الآخر من أجل تواصل الحضارات

مَنْ هو الآخر. ..؟ الآخر هو إنسان يتمتّع بكل ما يتمتّع به الإنسان من قوى حيّة، وقوى إدراكية، وله قدرة على العمل والتفكير والتمييز، وله استعداد للقبول والرفض، والأخذ والرد، ويتميّز بشخصية إنسانية مستقلة في التفكير والسلوك والتعامل. ومعنى ذلك.. أن له القدرة على إفراز نمط من التفكير خاصّ به، وعلى اجتراح سلوك خاص به. أي: أن له كياناً إنسانياً فردياً أو اجتماعياً مستقلاً. وهذا الاستقلال يعني استقلالية إنسانية تفرض نفسها على الطرف الإنساني الآخر. وهذا يترتب عليه أن نأخذه: فكراً وسلوكاً وموقفاً وتوجّهاً بشيء من الفهم، والتقدير والجديّة ومراعاة خصوصيته. واحترامها، والتعامل معها على هذا النحو من الفَهم.

ووجود هذا الآخر مفروض عليك سواء كنت متوافقاً معه أو مخالفاً، متطابقاً أو متنافراً، فما الموقف منه؟ أهو الاحترام والتقدير والقبول به جملة وتفصيلاً فكراً وموقفاً وسلوكاً وتوجهاً أم الرفض والتشكيك به والانغلاق عنه؟

إنّ الحضارة الحديثة بقيمها ومفاهيمها المتقاطعة والمتعارضة ما زالت عاجزة عن الإجابة عن هذا السؤال وتحديد موقف واضح حاسم. وإن كانت الدعوات ترتفع من هنا وهناك بوجوب الانفتاح على الآخر، وإقامة الحوار معه، لكنها دعوات تفتقر إلى المصداقية والجدية كونها ترتبط بمواقف مصلحية، وتوجّهات متعالية، وأهداف مشكوك في نزاهتها.

ثقافة قبول الآخر..

إنّ قبول الآخر والانفتاح عليه يستند إلى ثقافة وتربية وتنمية عقلية وتوجيه نفسي وتواصل قيمي اجتماعي، وكذلك رفض الآخر والانغلاق عليه هو نتيجة

لثقافة وتربية، وتقاطع قيمي اجتماعي، فالعامل التربوي العائلي له مدخلية حيث تزرع العائلة في نفوس أطفالها الحذر من الاختلاط بالآخرين بشكل مبالغ فيه، وتمارس مع أبنائها أسلوب الأمر والزجر دون اعطائهم فرصة للتفكير والنقاش. كما تعتمد أغلب مناهج التعليم طريقة التلقين وفرض الرأي الواحد، ورفض ما سواه لأنه باطل وكفر وشرك وابتداع.

والتوجيه الديني في مجتمعاتنا ينتهج في معظمه أسلوب الحدية والتطرف تجاه الآخر، ويدفع هذا النمط من التوجيه الديني إلى مقاطعة الآخر المخالف والمختلف. وعلى الصعيد الاجتماعي.. تتمايز التكتلات والانتماءات إلى حدّ القطيعة والتنافر. أما على الصعيد السياسي.. فالأمر أشدّ قتامةً وتعقيداً في ظلّ حكومات الاستبداد، حيث لا مجال للرأي الآخر، ولا فرصة للمعارضة، ولا قيمة لمن يخالف أو يعارض. كما تبالغ بعض الجهات المعارضة في تشدّدها، فتمارس المعارضة حرفةً وشأناً توقيفياً تعبدياً، لا تلوّثه بشيء من الحوار والانفتاح على السلطات.

هذه الاجواء الثقافية والسياسية والأرضية الاجتماعية هي تنتج حالة الركود والجمود، وتكرّس واقع التنافر والتباعد، والخصومة والنزاع بين قوى الأمة وفئاتها الفكرية والاجتماعية. فإذا انغلق الإنسان على رأي وأعرض عن الانفتاح على الآراء الأخرى فإنه سيعزل نفسه عن تطورات الفكر والمعرفة، ويحرم نفسه من إدراك حقائق ومعارف مفيدة، وقد يكون رأيه الذي انطوى عليه خاطئاً، فلا يكشف بطلانه في ظل حالة الانكفاء والانغلاق.

لقد ذمّ القرآن الكريم منهجية الانغلاق الفكري من خلال إدانته لرفض المخالفين للأنبياء الاستماع والانتباه لما يطرحه الأنبياء لموقعهم السابق من رسالاتهم. فهؤلاء قوم نبي الله نوح ﵇ كانوا يرفضون مجرد السماع إلى دعوته حتى شكاهم نوح ﵇ إلى ربّه كما ينقل القرآن الكريم: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: 7]، وكفّار قريش كانوا يظهرون أمام رسول الله ﷺ لا مبالاتهم بسماع دعوته ورفضهم للنظر في شأنها يقول تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ

إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ﴾ [فُصّلَت: 4-5]، ويقول تعالى أيضاً: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فُصّلَت: 26].

ولكن لماذا الانغلاق؟

ولماذا يفرض الإنسان حصاراً على عقله؟

ولماذا يرفض الانفتاح على الرأي الآخر؟

إن لذلك مبررات وأسباباً من أبرزها: الجهل والسذاجة، وقد يكون الانغلاق منطلقاً من حالة اللامبالاة تجاه القضية التي تتعدّد حولها الآراء. وقد يكون دافع الانغلاق الكسل عن البحث والتحقيق، وقد يكون ـ أحياناً ـ ضعف الثقة بالنفس صارفاً عن التعرّف على الرأي الآخر. وقد يتهيّب الإنسان مواجهة الحقيقة في مجالات الحياة لما قد يترتب عليه من تغيير في أوضاعه ومواقفه.

كلّ ما سبق يدخل في ضمن عوامل الامتناع الذاتي عن الانفتاح على الآخر. وهناك عاملان خارجيان يتمثلان في وجود تشويش وإعلام مضاد للرأي الآخر، يخلق عزوفاً عند المتأثرين به من ذلك الرأي. والعامل الثاني الخارجي يتمثل في وجود قوّة تمارس دور الوصاية والقمع الفكري فتحدّ من حرية الفكر، وتمنع نشر ما يخالفها من رأي وتحظر على الناس الاطلاع على الرأي الآخر. وفي عصرنا الحالي ومع تطور وسائل الاتصالات المعلوماتية، وتعدد قنوات الإعلام التي تتجاوز السدود والحدود، فإن محاولات قمع الفكر ومحاصرة الرأي تصبح جهداً ضائعاً، وسعياً فاشلاً.

فلابد من تظافر الجهود الواعية لصناعة أجواء صالحة، ولخلق أرضية صلبة.

نهج قبول الآخر تقبله الفطرة الإنسانية وتقوّضه الانتماءات الموروثة..

والآخر ـ كما أسلفنا ـ إنسان، تجمعه بكل أفراد الجنس البشري خصائص، وميزات، توحّد ما بينه وبين أخيه الإنسان، خصائص خلقية جسمية، وخصائص إدراكية عقلية ونفسية، كما تجمعه معهم وحدة المبدأ والمصير، ووحدة الهدف والطريق ما يجعل وجوده أمراً واقعاً، وقبوله أمراً واجباً، ويكون قبوله بالانفتاح

عليه فكراً وموقفاً وسلوكاً، واحترام توجهاته الفكرية ونزعاته العقلية، وقناعاته الخاصة والعامة التي تصوغ سلوكه وتوجّه خطواته. وهذا يعني أن الإنسان يتعاطف مع الإنسان بطبعه، ويتقبله بفطرته السليمة التي هي صبغة الله، قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البَقَرَة: 138]. وإذا رأينا أن هناك من يستعلي على الآخر، ويرفضه، وينغلق عنه، ويعامله بنفور وإقصاء فما ذلك إلّا انحراف عن الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها كالتعصب العنصري، والتمايز الجنسي، والانغلاق الفكري ديناً أو مذهباً أو فلسفة ما ولّد صراعات دمويّة وانهيارات حضارية وفجوات إنسانية بين الإنسان وأخيه الإنسان.

والقرآن الكريم ـ كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه أو خلفه ـ يدعو الإنسان إلى التفكير فيما يتبنّى من آراء ومعتقدات ـ ولهذا جعل الإيمان بالأصول الاعتقادية أمراً خارجاً عن التقليد ـ فلا يجعل نفسه أمام اتجاه واحد إجباري، ولا ينغلق على موروثاته من آبائه وأسلافه دون دراسة وتمحيص، ولا يرفض الانفتاح على أي فكرة ومحاكمتها في ضوء العقل لقبولها إن كانت أصح وأفضل.

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يبشّر عباده المنفتحين فكرياً والذين يدرسون مختلف الآراء ليتبيّنوا أفضلها وأحسنها بأن منهجية الانفتاح هي التي ستقودهم إلى الهداية، وتمكّنهم من استثمار عقولهم واستخدامها بالشكل الصحيح. يقول تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزُّمَر: 17-18]. فهاتان الآيتان المباركتان اللتان وردتا بمثابة شعار إسلامي بيّنتا حرية الفكر عند المسلمين، وحرية الاختيار في مختلف الأمور، فتصف عباد الله المقرّبين بأنهم أولئك الذين لا يستمعون لقول هذا أو ذاك ما لم يعرفوا خصائص وميزات المتكلّم، والذين ينتخبون أفضل الكلام من خلال قوّة العقل والإدراك إذ لا تعصّب، ولا لجاجة في أعمالهم، ولا تحديد ولا جمود في فكرهم وتفكيرهم، إنهم يبحثون عن الحقيقة، وهم متعطشون لها، فأينما وجدوها استقبلوها بصدور رحبة ليشربوا من نبعها الصافي من دون أي حرج ليرتووا.

إن الكثير من المذاهب الوضعية تنصح أتباعها بعدم مطالعة ومتابعة ومناقشة

مواضيع وآراء بقية المذاهب، إذ أنهم يخافون من أن تكون حجة الآخرين أقوى فتنمو فيها بذور الانفتاح والحوار وقبول الآخر، لتتعارف الإنسانية على بعضها وتكشف نقاط الالتقاء، وموارد الاختلاف ولتثري معارفها وأفكارها من خلال انفتاحها وحوارها مع الآخر، وليأخذ الاختلاف مساره الايجابي في إذكاء حالة التنافس المعرفي، وشحذ الارادات والهمم لتقديم العطاء الأفضل والقيام بالدور الأنفع، ومن خلال إشاعة قيم إنسانية جديدة تنحو بالإنسان منحىً جديداً فيه التعايش والتكافل واحترام الآخر فكراً وموقفاً وقبول ما يصدر عنه بحسن نيّة على أنه خصوصية إنسانية يجب مراعاتها واحترامها وقبولها. فالنظر في الآراء المختلفة، وتمحيص المواقف المتباينة يتيح فرصة البحث عن الرأي الأفضل، ويستكشف الموقف الأمثل، ويوفّر درجة أعلى في فهم ومعرفة الآخر والحكم عليه سلباً أو ايجاباً، وقبوله أو رفضه فكراً وموقفاً.

إنّ ثقافة قبول الآخر لازمة أساسية للتحوّل من موقف إلى موقف آخر، كما أن وعي المرء بحقيقة وجوده الإنساني يجعله يعي الإنسان الآخر مبدأً ومصيراً وتجربةً ومشروعاً، فيزداد اقتراباً منه، وينفي عن نفسه صفة التمايز، والتعالي الذي يدفعه إلى الرفض والانغلاق والتخندق ضد أخيه الإنسان. والثقافة ليست ضخاً للأفكار أو تلقيناً لا وعياً لمفرداتها، بل هي تربية وترويض وتجديد للوعي، وتوسيع للإدراك الإنساني وربط كل ذلك بحقائق الكون والوجود.

وربما تكون الثقافة الدينية أجدى الثقافات في بناء شخصية الإنسان وتجديد قيمه، وتحيد مفاهيمه، وتقريبه من أخيه الإنسان بما تضمنه من قيم العدل والمساواة في المفاهيم والأحكام، والحقوق والواجبات والثواب والعقاب ما يشعر الإنسان ـ في كل زمان ومكان ـ بوحدة الإنسان خلقاً وتكويناً، إرادة وأهدافاً مبدأً ومصيراً. قوةً وضعفاً ما يرفع عنه مشاعر التعالي، والتمايز ويقوّي عنده مشاعر الاخوّة الإنسانية الصميمة المستندة إلى مبادئ ثابتة لا تتبدّل، ولا تتحوّل، فضلاً عن الثقافة العلمية التي جعلت من الإنسان مشروعاً حضارياً يتطلع إلى بلوغه كل أفراد الجنس البشري بوسائل متّحدة، ومناهج متشابهة، وبعقول مدركة واعية.

إن الثقافة أمر حيوي وأساسي في بناء الشخصية الإنسان بكل ما تنطوي

عليه من مثل عليا، وسعي طموح إلى التكامل والتكافل والتعاطف مع الآخر وقبوله بل والاتحاد معه في الهدف والوسيلة ومشاركته آماله وآلامه، وتقاسمه لقمة العيش برغبة ذاتية، وحافز إنساني أصيل. وهذا ما أفرزته كثير من الممارسات العملية والتجارب الإنسانية انطلاقاً من عمق المشاعر الإنسانية ووعي الإنسان بضرورة تكافله وتعاونه مع الإنسان ومشاركته في السراء والضرّاء والنعيم والشقاء، وهنا يكمن دور الثقافة في صياغة الوعي الإنساني القائم على المشاعر النبيلة، والقيم المتسامية في حجتهم، وهذا ما يسبّب فقدان الاتباع الذين قد يلتحق بعضهم بالمذاهب الأخرى الأفضل. إلّا أن الإسلام ينتهج سياسة الأبواب المفتوحة في هذا المجال إذ يعتبر المحققين هم عباد الله الحقيقيين الذين لا يرهبون سماع آراء الآخرين، ولا يستسلمون لشيء من دون قيد أو شرط، ولا يتقبلون كل وسواس.

إن الإسلام الحنيف يبشر الذين يستمعون القول ويتّبعون أحسنه الذين لا يكتفون بترجيح الجيّد على الحسن، وإنما يتّبعون الأحسن ثم الأحسن من كل قول أو رأي فما دام الإنسان يمتلك عقلاً يميّز به الصواب من الخطأ، فلا خوف من الانفتاح الفكري على مختلف الآراء والأفكار.

وفي النصوص المقدّسة توجيه عملي للانفتاح على الآخر والأخذ منه وهذا يعني ضمناً قبوله والاعتراف به كقول رسول الله ﷺ: (اطلبوا العلم ولو بالصين فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم)[1]. وكقوله ﷺ: (الحكمة ضالة المؤمن، فحيثما وجد أحدكم ضالته فليأخذها.)[2]. وعن الإمام علي عليه السلام: (... والحكمة ضالة المؤمن فاطلبوها ولو عند المشرك تكونوا أحق بها وأهلها)[3]. وفي كلمة أخرى قال عليه السلام: (الحكمة ضالة المؤمن فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق)[4]، وعن نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام أنه قال: (خذوا الحق من أهل الباطل، ولا

(1) الحرّ العاملي: وسائل الشيعة/ 27، 27، ح20، باب عدم جواز القضاء والافتاء بغير علم بورود الحكم عن المعصومين عليهم السلام.
(2) الشيخ الكليني: الكافي/ 8، 167.
(3) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ 2، 97.
(4) نهج البلاغة: شرح الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده/ 4، 18، في وصية له بخمسة أشياء.

تأخذوا الباطل من أهل الحق، كونوا نقاد الكلام فكم من ضلالة زخرفت بآية من كتاب الله، كما زخرف الدرهم من نحاس بالفضة المموهة، النظر إلى ذلك سواء، والبصراء به خبراء)[1].

فما دام الإنسان يمتلك عقلاً يميز به الصواب من الخطأ، فلا خوف من الانفتاح الفكري على مختلف الآراء والأفكار، والمهم هو دراسة الرأي والفكرة بغض النظر عن مصدرها، وعن الموقف منه. وهذا عين قبول الآخر، بل ذروته.

أمر آخر.. نودّ التعرض له يتلخص باندفاع بعض أبناء المجتمع نحو الرأي الآخر قبل أن يتعرّفوا جيداً على الرأي الذي بحوزتهم من انتمائه الديني والاجتماعي. فعلى الصعيد الإسلامي ـ مثلاً ـ لا يبذل بعضهم من المنتمين للإسلام جهداً للاطلاع على حقيقة المعارف الإسلامية مكتفين بالمظاهر والموروثات في محيطهم الاجتماعي عن الدين فإذا ما لاح لهم رأي آخر يمتلك جاذبية الطرح، وقوّة الدعاية والاعلام، أقبلوا عليه، وانشدوا إليه. أنه نوع خاطئ من الانفتاح يفتقد الموضوعية والانصاف ويوقع الإنسان في احتمالات الخديعة والتضليل. فالمفروض ـ أولاً ـ أن يتعرّف الإنسان على حقيقة الرأي الذي ينتمي إليه، ويدرك أدلته وبراهينه وأبعاده ومفاهيمه، ثم لينفتح على سائر الآراء والأفكار، ويقوم بدور المقارنة والتقويم.

إن الإسلام يدعو إلى الانفتاح، ويرفض الانغلاق الفكري، والخطوة الأولى في الانفتاح ـ وهو مظهر من مظاهر قبول الآخر ـ هي الانفتاح على الذات. بأن يتعرّف الإنسان على امكاناته وثرواته، ثم يتطلّع إلى الامكانات الأخرى، فإذا رأى ما هو أفضل، أو ما يمكن إضافته إلى ما لديه، فسيكون تقويمه ـ حينئذٍ ـ أقرب إلى الصواب. إذ ليس كل آخر هو أفضل، وليس كل جديد هو أحسن، وينبغي الاعتراف ـ هنا ـ بأن الانفتاح على الرأي الآخر، قد يكون باعثاً للإنسان لمراجعة رأيه، وتفحّصه، وإدراك نقاط قوّته وضعفه وامتيازاته ونقائصه كما حصل ـ بالفعل ـ لبعض أبناء الإسلام، والذين أثارهم إطلاعهم على بعض الآثار الأخرى ودفعتهم لدراسة رأي الإسلام ورؤيته، فأصبحوا أكثر

(1) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ 2، 96.

بصيرة في دينهم، وثقة في عقيدتهم، إن مجرّد الانتماء الاسمي للدين أو المذهب أو ممارسة بعض الشعائر والتقاليد لا تكفي لتوفير معرفة حقيقة تجعل الإنسان قادراً على المقارنة والتقويم.

وربّما يكون الجهل أهم مدعاة لالغاء الآخر، والجهل حالة مرضية تؤدي بصاحبها إلى سلوك يخالف الفطرة الإنسانية السليمة وإلى أحكام تبتعد عن العقل الإنساني السليم. ثم إنّ الجهل يقود إلى التعصّب. فالتعصّب يعبّر عن نوع من الانحياز والدفاع عن مسألة تحت تأثير العواطف دون الاستفادة من الفكر والعقل. فالتعصب يدعو إلى التميّز إلى شيء من الأشياء فكرة ومبدأ أو معتقد أو شخص أما مع أو ضد، وبهذا يكون التعصّب معادلاً للتطرف الذي هو خروج عن الفطرة السليمة وانحياز ضد التعقل والتفكير السليم. وكثيراً ما يكون التعصب انحيازاً للقيم الموروثة التي يحرم المساس بها ولو كانت خاطئة، فهي مقدّسة، وهذا يعني الابتعاد عن الحقيقة، والانحياز إلى الباطل والوهم.

ثقافة الآخر بين الفردي والجماعي

كل أمر يبدأ من الفرد لينتهي ظاهرة جماعية، وكذلك الثقافة تبدأ فردية أي فعلاً يتصف به الأفراد، ثم تتسع قيمها، ومفاهيمها، ومفرداتها، فتنتقل إلى الآخرين، فتصبح فعلاً جماعياً عاماً، والإيمان بالآخر واحترام قناعاته، والقبول بوجوده عنصراً فاعلاً ومستقلاً هو لون من الثقافة لا يأتي عبثاً، وإنما هو حصيلة قيم اجتماعية، ومفاهيم فلسفية، ورؤى فكرية لا تأتي من فراغ وإنما تبعث من تعاليم دينية أو ممارسات اجتماعية، أو خبرات متراكمة، لتكوّن ثقافة تعترف بالآخر فكراً وموقفاً وسلوكاً.

إن التأصيل الثقافي في أي مجتمع من المجتمع ضروري وحيوي، ويعبّر عن عمق الحراك الثقافي وجدواه وأحقيته، ويعبّر عن حالة الطموح اللازم لتطوير القدرات العقلية والاتجاه بها نحو ما ينفع ويفيد ويؤسّس.

إن كل الحركات الاجتماعية الإصلاحية بدأت بتصورات وجهود فردية ثم تطوّرت واتسعت وقامت بدور ايجابي أو سلبي بنائي أو تخريبي. فغالب الحركات المتطرفة بدأت بتصورات فرد واحد خضع لمؤثرات تاريخية وسياسية وانساق

وراء فهم مذهبي أو ديني محدود ثم اتسع نشاطها وتعاظم طموحها وكبر دورها حينما دخلت في تحالفات مع السلطات المدنية والتي وجدت فيها ما يحقّق مطامعها السياسية التوسعية والقيام بدورها التخريبي في حياة الإسلام والمسلمين.

والماركسية ـ مثلاً ـ التي بدأت بفلسفة تنظيرية تفسّر التاريخ تفسيراً مادياً اقتصادياً على يد واضعها (كارل ماركس) ثم وجدت من الظروف المتردّية في أوربا مناخاً للدعوة إليها وتطبيقها واجرائها مجرى الواقع، وكانت أهم تجاربها في روسيا على يد (لينين) الذي أسس الدولة السوفيتية، ثم بعد ذلك في بعض دول أوربا الشرقية التي وقعت تحت سيطرة (روسيا) بعد اندحار ألمانيا الهتلرية. فقامت التجربة الاشتراكية على أسس ماركسية لكنها سرعان ما انهارت ولم تثبت جدارتها في تحقيق العدالة الاجتماعية وتحرير الإنسان من الظلم والاضطهاد والعوز. وغير ذلك من الدعوات والحركات التي بدأت بتصورات وجهود فردية، وقيّض لها أن تتسع لتصير حركات اجتماعية وسياسية تمتد وتتسع ويكون لها من التأثير ما ليس بالحسبان. وهذا يقتضي أساساً الالتفات إلى العناصر الفردية التي تتمتع بالقابليات والاستعداد وقدر كبير من الطموح والتأثير وتثقيفهم ثقافة خاصة ورعايتهم بما يوجّه قابلياتهم وطاقاتهم الفكرية وجهة صحيحة تتساوق مع حركة الحياة السليمة وتنسجم مع قوانين الوجود وسنن الكون الحكيمة وبذلك تكون الثقافة الفردية أساساً صالحاً لقيام ثقافة جماعية بنّاءة ومفيدة.

الآخر وتواصل الحضارات أو تحالفها

إن أعظم ما يهدّد وجود الحضارات هو الصراع الناتج عن الاختلافات، والخلافات بين أبناء هذه الحضارات. فإن الخلاف والاختلاف الذي يلغي الآخر، ويكرّس الانفراد بالقرار والامتيازات يؤدي ـ لا محالة ـ إلى صراع دموي واحتراب مدمّر يؤدي إلى تدمير الإنسان قيماً ووجوداً ووعياً وحياةً. فالحضارات لا تقوم ولا تستمع إلّا مع وجود الاستقرار. والأمن والتعايش الاجتماعي. وانّ الاعتراف بالآخر فكراً وموقفاً وتوجهاً وقناعات هو السبيل الوحيد لتحقيق ذلك، وإلّا فإن الحضارة ـ أي حضارة ـ سوف تتقوّض من داخلها، وتنهار بأسباب موضوعية وذاتية.

والاعتراف بالآخر ليس كلمة تقال، أو شعاراً يرفع، أو قانوناً يسنّ ويشرّع وإنما هو فعل جماعي متّفق عليه نابع من قناعة اجتماعية، وقيم ومفاهيم يقرّها القانون ويحميها، ويحرص على احترامها وتحقيقها، عند ذلك يكون للآخر حضور إنساني، ووجود شرعي، وقوّة مؤثرة في مجريات الحياة العامة وتوجيه حركتها باتجاه ايجابي. وإنّ أفضل ما يمكن أن يجسّده (الآخر) هو العقيدة التي يحملها والتي يجب احترامها، وممارسته لقناعاته العقيدية بحرية واطمئنان، وكذلك عدم شعوره بالغبن والدونية نتيجة ممارسات اجتماعية أو مفاهيم غالبة أو قوانين تميّز وتفرّق بين أبناء المجتمع على أساس العقيدة أو الجنس أو العنصر أو اللون أو المستوى الاجتماعي: غنىً أو فقراً.

وإن أكثر ما يثير الصراع الاجتماعي هو فقدان العدالة في توزيع الثروة وما يترتب على ذلك من فوارق وامتيازات أمام القانون، وما يترتب على ذلك من فوارق اجتماعية. فإن ذلك يثير نوازع الخصومة بسبب مشاعر الغبن والاضطهاد والتهميش، وتحوّل هذه النوازع إلى حراك اجتماعي يتّسع شيئاً فشيئاً حتى يتّخذ شكلاً تنظيمياً يتحرّك جماعياً لانتزاع الحقوق وإعادة التوازن، فينشب الصراع فكرياً، ثم دموياً تدميرياً فتقوّض الحضارات وتهدم المجتمعات، وتضيع القيم، وتهان المقدّسات، ويكون الإنسان ضحيتها الأولى، وتكون حضارته أهم أهداف التدمير. وعلى هذا فإن علينا الاعتراف بالآخر واحترام قناعاته، واختياراته، والنظر إلى ممارساته وطموحاته بكل تقدير واحترام وتفهم لكي نحقق التعايش الاجتماعي، والسلم الأهلي، وبذلك نخلق الأجواء الصالحة القادرة على بناء مجتمع متوافق متوازن قادر على خلق حضارة مبدعة تتواصل مع الحضارات الأخرى في وحدة إنسانية كونية.

وهنا يمكن الإشارة إلى أن خلق مجتمع متوافق متوازن متكافل خالٍ من الصراع والاحتراب يحترم إنسانية الإنسان ويقدّس قناعاته ويحترم اختياراته هو الطريق الوحيد لبناء حضارة إنسانية كريمة تستطيع التواصل مع الحضارات الإنسانية الأخرى التي تتمتّع بنفس القيم والمفاهيم والانجازات تمهيداً لتحالفها، ووصولاً إلى توحّدها وتوحيدها.

لقد عاش العراق في معظم سنوات القرن العشرين وخاصة في ثلثيه الأولين

حالة من التوافق والتكافل الاجتماعي القائم على احترام الآخر وقناعاته، وممارساته، وكان هذا هو الخطوات الأولى للتحضر والدخول إلى رحم الحضارة الحديثة إلى أن غزته بعد ثورة شباط عام (1963م) قيم البداوة، وتقاليدها وممارستها المتوافقة على العنصرية والطائفية، فدمّرت المشروع الحضاري العراقي الوليد وحرّفت مسيرته للاندماج في المجتمعات المتحضرة الحديثة. وما زال العراق يعاني من ممارسات وقيم البداوة عنفاً وقتلاً وتفجيراً وتدميراً انطلاقاً من إلغاء الآخر تماماً وإفنائه وفرض قناعات بربرية وعنصرية وطائفية متخلفة.

إن الاعتراف بالآخر يقود إلى إلغاء كل دواعي الصراع، ويحقّق كل أسباب التوافق والتعايش ما يؤدي إلى قيام مجتمع مسالم وحضارة مسالمة تطمح بالاستفادة من الحضارات الأخرى، والتواصل معها أخذاً وعطاءً تمهيداً للاتحاد معها والاندماج فيها وصولاً إلى بناء حضارة إنسانية كونيّة تحقق للإنسان إنسانيته، وتحفظ كرامته، وتحترم قناعاته.

نحو حضارة جديدة للإنسان

ما زالت نشأة الحضارات وقيامها ثم انحلالها من المسائل الحيوية التي تعالجها أقلام الباحثين، وعقول الدارسين، ولكن مما لا شك فيه أن نشأتها تخضع لظروف ذاتية وموضوعية، ثم انتقالها من بقعة إلى بقعة أخرى من الأرض تمرّ بظروف ذاتية وموضوعية، وكذلك انحلالها. ولكن مما لا شك فيه وجود حضارة أو أكثر في وقت واحد أو في مقطع زمني واحد، يكون فيها من التشابه بقدر ما للإنسان من خصائص وتصورات، ويكون فيها التقاطع بقدر ما في الإنسان من خصوصية الذات وخصوصية البيئة، وخصوصية الحاجة. هذا التقاطع ولّد صراعاً بين القيم والتوجّهات. وهذا التشابه ولّد سبلاً ورغبةً وإرادة للتلاقي والتفاعل والانجذاب. ومن هنا نشأت الحروب والرغبة في الغلبة، ومن هنا ـ أيضاً ـ نشأت الرغبة في التفاعل، والتكامل، والتعايش، ومن هنا جاءت فكرة تحالف الحضارات عند حدٍّ أدنى من القيم والتصوّرات والابداعات والتوجّهات، وكونها تكوّن حضارات إنسانية قامت من أجل الإنسان.

فبعد التراكمات السلبية للصراعات الحضارية ـ وهي صراعات بين القيم والمفاهيم والآليات والتوجّهات ـ أصبحت عند الأمم المتحضرة قناعات فكرية مبنيّة على المصالح الآنية والمستقبلية بوجوب تلاقي الحضارات وتصالحها وتحالفها خاصة أن هناك تقارباً فكرياً وقيمياً، يوجب هذا التصالح والتحالف، فالحضارات الإنسانية السابقة أضحت تصبّ في مجرى الحضارة الحديثة، كما أن غلبة المعايير الموضوعية العلمية أوجب أن تكون آليات البناء واحدة، وأن التوجه لبناء الإنسان عقلياً وجسدياً وحّد الأهداف المعلنة للحضارات المتعدّدة لكي تصبّ في مجرى حياتي واحد.

ولعلّ واحدة من أهم الإثارات المعاصرة.. جدلية حوار الحضارات أو صراع الحضارات. فعلى مرّ العصور التاريخية نشأت حضارات متجاورة امتداداً

من الشرق الأقصى كالحضارة الصينية ومروراً بالحضارة الهندية والفارسية، وانتهاء بالحضارة الفرعونية ثم الحضارة اليونانية ثم الرومانية في عصور متعاقبة ومتقاربة. وهذه الحضارات لكلٍ منها خصوصية حضارية في عالمي الروح والمادة، وفي ساحة الفكر الفلسفي. والانجاز العمراني، مما يجعلها حضارات قائمة بذاتها، مستغنية عن غيرها، وكانت الحروب تعبيراً عن الرغبة في الغلبة والامتداد لهذه الأمة أو تلك. ثم جاءت الحضارة العربية الإسلامية ممتدّة على مساحة واسعة من الأرض. ولتكون لها خصوصيتها وسماتها الذاتية، وأهمها أنها جاءت إفرازاً لقيم الإسلام وتصوراته الفكرية وتوجهاته الروحية، فقد كان الدافع الأساس لقيامها جعل كلمة الإسلام هي العليا، فذابت الأمم التي دخلت الإسلام وانصهرت في بوتقته. وفي مقابلها كانت الحضارة الغربية التي ورثت حضارة اليونان والرومان، واصطبغت بالديانة النصرانية وكان الصراع بينهما الذي اتخذ طابعاً عسكرياً في الغالب، تعبيراً عن الصراع الفكري. وعلى الرغم من كلّ ذلك، فقد كان هناك لغة من الحوار والأخذ والعطاء بين هذه الحضارات. فالحضارة الإسلامية ـ مثلاً ـ أخذت من حضارات الأمم التي دخلت في الإسلام أو صارت في حوزته، فأخذت من الحضارات: الهندية والفارسية، واليونانية والرومانية، مع اختلاف نوع الأخذ ومقداره، فأخذت عن الفارسية أنماط العيش وأساليبه، وعن اليونانية الفلسفة والمنطق والطب، وعن الهندية الآداب كقصص ألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة. وفي العصر الحديث كانت السيطرة للحضارة الغربية ـ وهي حضارة أنتجها الإنسان في تاريخه ـ أفاضت قيمها وتصوراتها وانجازاتها على بني الإنسان شرقاً وغرباً، صديقاً وعدوّاً، رافضاً لها أو قابلاً. وكان لابد من أن تنشأ صراعات، وخاصة بين ما قامت عليه الحضارات من قيم روحية وتصورات فكرية، وأنماط سلوكية وبين الحضارة الغربية بما تحمله من قيم وتصورات وأنماط. فكان الرفض موقفاً، أو التوفيقية موقفاً آخر، أو القبول الكامل لها بكل علّاتها، ولكنّ المتميّز ـ في كل ذلك ـ قبول كل الانجازات العلمية، والتقنية والعمرانية التي أفرزتها الحضارة الغربية.

فالحضارات الإنسانية في كل الحقب التاريخية هي من نتاج الإنسان وخلقه، وهدفها إعلاء شأن الإنسان والعمل على إسعاده، فلا عجب أن تتعاقب زماناً ومكاناً وإبداعاً وإضافةً وتجديداً لاثراء حياة الإنسان العقلية والروحية

والجسدية. نعم كانت كل حضارة من هذه الحضارات الكبيرة ـ تتميز لأسباب ذاتية وموضوعية ـ بخصائص وتصورات نابعة من ذاتية الأمة، وفهمها للدور الحضاري الموكل بها، لكنّ ذلك لا يتناقض مع الخط العام لسائر الحضارات الأخرى.

ومن خلال هذا الاستعراض نكتشف أن حواراً كان قائماً بين الحضارات أحياناً، وصراعاً كان قائماً أحياناً أخرى، وقد يجتمع الحوار والصراع في وقت واحد، فتأخذ حضارة عن أخرى أشياء، وترفض منها أشياء كما هو حاصل في الحضارة الإسلامية فإنها تأخذ ما ينسجم مع قيم الإسلام ومفاهيمه وتصوراته وتطلعاته، وترفض ما يتقاطع ويتعارض معه. فالحوار أمر طبيعي يثمر حضارة جديدة، والصراع أمر طبيعي يستبعد سلبيات حضارية، ويسفر عن حالة انتقائية ايجابية، وكلاهما ـ الحوار والصراع بين الحضارات ـ مطلوب ومرغوب فيه، ما دام يجعل للإنسان بصمات إنسانية خيّرة ومبدعة.

ونحن مع القول بضرورة قيام الحوار بين الحضارات لما ينتج عنه من مكاسب حضارية لكل الأمم المتحاورة، فإن الصراع ـ غالباً ـ ما ينتج عنه تبنّي المغلوب لكل قيم الغالب، ومعنى ذلك قيام عوامل حضارية مشتركة بين الغالب والمغلوب تكون أساساً لقيام حضارة جديدة مبنية على حالة جديدة من تفاعل الأمم تفاعلاً إيجابياً. نعم قد تواجه قيم الغالب ومفاهيمه بنوع من الرفض تبعاً لرفض وجوده العسكري أو السياسي لكنه سرعان ما يكون مقبولاً مستساغاً كما هو الحال في انسياح الحضارة الغربية مقترنة بموجة الاستعمار الحديث.

ويمكن أن يكون تحالف الثقافات بديلاً أو مقدّمة لتحالف الحضارات. فالثقافات بما تملك من سعة أفق وتنوّع وتأثير متبادل فيما بينها، يمكن لها أن تمهّد الطريق لقيام تحالف حضاري وخاصة إذا كانت الحضارات قائمة على أسس فكرية وثقافية، وأوربا الحديثة بما لديها من عروق مختلفة وأجناس متعدّدة وحدتّها الثقافة الجديدة المتمثلة بالثقافة الديمقراطية التي أصبحت المظهر السياسي لعموم أمم وشعوب أوربا التي كانت إلى وقت قريب تمزّقها الثقافات السياسية المتعارضة كالفاشية والنازية والشيوعية.

والثقافة مظهر من مظاهر الوجود الإنساني على هذه الأرض وهي افراز

العقل الإنساني، ونتاج نشاطه الفكري والروحي، وطريقة من الطرائق المتعددة التي عبّر بها إنسان الأرض عن فهمه وتصوره وتفاعله مع حقائق الكون والحياة. فهي ـ على هذا ـ تستطيع أن تكوّن أرضاً مشتركة يقف عليها الإنسان لبناء كيانه الحضاري المشترك الذي عنوانه الحياة والأهداف المشتركة بآليات حضارية مشتركة.

كما أن التقريب بين المذاهب الفكرية يخلق تقارباً مع الأمزجة والتطلعات المشتركة، والمصالح المشتركة مما يدفع بالإنسان إلى التقارب مع أخيه الإنسان، والتفكير بطريقة مشتركة هادفة في أجواء صحية، وهو مظهر حضاري يحقّق تقارباً حضاري ومن ثم تحالفاً حضارياً.

إن الفكر بوصفه حالة حضارية مثالية، قادر على احتواء الاتجاهات الفكرية المتعددة، وخلق حالة من التوحّد على محور أساس هو الإنسان الباحث عن الحقيقة، فإذا انفتح الفكر على بعضه ـ بالحوار وقبول الآخر ـ فإنه يخلق حالة من التوافق، والتلاقي على صعيد الفكر ثم على صعيد الممارسة. وينبغي أن نقرر.. أن حملة الفكر قوم ينأون بأنفسهم عن مواقف التطرف والتشنج والتشدد، بل أنهم يميلون غالباً إلى محاولة استيعاب الآخر أو أن كان مناقضاً لهم في الرأي والموقف، لهذا نرى أن كثيراً من المفكرين والفلاسفة المتعاصرين يتعايشون ويتعاطفون فيما بينهم مؤمنين أن الفكر يمكن أن يكون سبباً للتلاقي. والتوافق تجاه قضايا الكون والحياة، وإن اختلف هؤلاء فخلافهم يكون على الورق، وليس على أرض الواقع، وما يجرّه من صراع دامٍ.

والأديان ـ في كل زمان ومكان ـ تشكّل أهم ملامح الوجه الحضاري لأي أمة من الأمم. بل إنّ الأديان تعدّ أهم عنصر لأي تشكّل حضاري. والأديان ـ كما نعلم ـ متعدّدة، ولكن سبلها واحدة وأهدافها واحدة، وإن اختلفت في التفاصيل، أو في التعبير عنها فإن ذلك يجب ألا يلغي التواصل بينها، ويغلق منافذ اللقاء بينها، بل إنّ مقاصدها السامية توجب عليها أن تتحد في مواجهة دعوات الكفر والالحاد، والتحلّل الخلقي والرذيلة، وأن تشكل جبهة واحدة، وموقفاً واحداً واعياً في احتواء كل الدعوات المعادية لقيم الإنسان التي شرّعتها وأقرّتها ديانات السماء.

والغريب ـ كل الغرابة ـ أن نلاحظ على مرّ العصور أن هناك صراعاً بين الأديان، والواقع أن هذا الصراع لم يكن بين الأديان: مفاهيمَ وقيماً، وتعاليمَ، وأهداف وإنما الخلاف من يدّعي تمثيل هذه الأديان وهو خلاف مصلحي أناني، وهو صراع على الدنيا، وليس تنافساً في طريق رضا الله وطاعته ينفع عباده واسعادهم الذي هو هدف الأديان.

وخير وسيلة للتواصل، والانفتاح، هو الحوار الايجابي القائم على احترام الآخر، والاعتراف بعقائده كقيمة أساسية في الحياة، ومن ثم تقريب وجهات النظر، بالكشف عن وجوه الالتقاء والتلقي، ورسم خطوط عامة للسير في طريق التفاهم، والالتقاء. ولا شك أن الحوار منهج ايجابي خاصة إذا حسنت النوايا، وكان الهدف الوصول إلى الحقيقة، وإلى صلاح الإنسان. وعلماء الدين لهم دور مهمّ في هذا الانفتاح، والتواصل عن طريق الحوار العلمي الجادّ الذي يهدف إلى توحيد جهود الأديان لاسعاد الإنسان. وحين يتحقّق هذا الأمر ـ حوار الأديان ـ فإن ذلك يؤدّي ـ لا محالة ـ إلى توحيد الحضارات بتوجيه خطاباتها، وأساسيات عقائدها، وهذا ما يحدث في العالم اليوم.

إن الدين يكون مصدر فرقة وصراع، واحتراب حينما يكون أداة تخريب بيد الساسة والنفعيين الذين لا يهمهم إلّا تحقيق مصالحهم الدنيوية أو إرضاء نوازعهم الضيّقة، أو خدمة أسيادهم الذين يأتمرون بأواصرهم وهم ينفّذون مخططاتهم في استنزاف الحياة الإنسانية الكريمة وتشويه ملامحها. بالضد مما يريده الدين ويسعى إليه.

إن الدين ـ بمعناه الإلهي والإنساني ـ يكون عامل توحيد عن طريق الحوار والانفتاح وقبول الآخر واحترام قناعاته إذا كان يسعى إلى الوصول إلى رضا بنفع عباده، وتحقيق حالةً من السلم الاجتماعي والتعايش، وتكريس كل القوى الخيّرة ـ بما فيها الدين ـ لبناء الإنسان المتحضّر المتفاعل مع كل انجازات الحضارة الإنسانية وخاصة تلك الحضارة التي ترمي إلى إعلاء كلمة الإيمان، ومنهج العلم، وشأن الإنسان.

ثم جاءت الأنظمة الديمقراطية التي هيّأت للناس قدراً أوسع من المشاركة، وأتاحت لهم فرصة إمرار أفكارهم، وعرض مناهجهم، والتعبير عن تطلعاتهم،

والديمقراطية ـ كما يقال ـ هي أقلّ الأنظمة السياسية سوءاً، جعلت صندوق الاقتراع الحكم في الصراعات الفكرية والسياسية والاجتماعية، مما أتاح متنفساً طبيعياً لتحقيق الارادات بصورة سليمة لا تتعارض مع إرادة الآخرين. وهذه العملية الديمقراطية ـ إذا سارت بصورة صحيحة وسليمة ـ تمتصّ كثيراً من زخم العنف، والشعور بالغبن والظلم والتهميش ما يهيئ أجواءً مناسبة للحوار والتفاهم والتلاقي يدفع إلى تفاعل الحضارات وقيمها، واتحاد وسائلها وغاياتها.

إن الديمقراطية ـ مفهوماً ونظاماً ـ هي حصيلة تجارب الإنسانية على مدى عصور مديدة، وهي تهيء للإنسان القدرة على حرية الاختيار، والتمتع بحقوق المواطنة، وهي ـ بما تهيئه ـ من وسائل وآليات قادرة على امتصاص كل مشاعر الغبن والظلم والاضطهاد من نفس الإنسان فرداً أو جماعة، ومنحه هامشاً زمنياً بعيد النظر في مواقفه واختياراته. والانتقال إلى حالة أفضل في الاختيار.

إنّ مثل هذه الجدلية ومشتقاتها تحتاج إلى تأصيل:

هل هي دعوة إلى الحوار والتحالف بعد إقرار الصراع؟

فالصراع الحضاري قائم وحاصل على مرّ العصور. وهذا الصراع يفرز الايجابي ويصطفيه، ويقوّي ايجابياته، ويطرح السلبي ويرفضه استلهاماً كحالة حضارية جديدة، وما يسلمه إلى الحوار البنّاء والانفتاح الخلّاق، المؤدّي إلى تطابق القيم والمفاهيم، وتفاعلها الذي يخلق حالة جديدة هو ما نسمّيه بالتحالف الحضاري.

إن الصراع حالة طبيعية في حياة الإنسان، واستمراره أمر قائم حاصل، لا يمكن إنكاره، والغاؤه، ولكنّما يمكن توجيهه وجهة سليمة سوية تكرّس لاغناء حياة الإنسان، وتطويرها نحو الأفضل خالية من كل مظاهر العنف، والتخلّف والظلم الاجتماعي، وتكريس الحوار والتلاقي والتعايش الخلّاق بين الحضارات خاصة أن العلم الحديث والأخذ بأسبابه، والعمل بمناهجه قرّب من وجهات النظر، ووحّد أساليب العيش، ولكن تبقى خصوصيات كل حضارة، وكل أمة قائمة نأمل إلّا تكون مدعاة للصراع إذا أحسن فهمها وتوجيهها، وإدامة انسانيتها وفاعليتها الحضارية.

وقد ينظر المراقب إلى الواقع فيرى حالة من الحوار الذي يقود إلى التحالف وحالة أخرى من الصراع والخصومة..

هذا الواقع الذي تتعايش فيه الحالتان، ولكن ليس إلى الأبد، فالصراع والخصومة تكونان باباً للحوار، والتفاهم، والتعايش الذي يقود إلى نشدان التحالف وهذا التحالف ـ كما قلنا ـ هو حالة جديدة خاضعة للتطور والتغيّر لإيجاد حالة حضارية جديدة تخرج على شروط التحالف الحضاري السابق الذي يكون أساساً لها، وقاعدة للانطلاق منها. فقيام الصراع أمر طبيعي، وقد يكون ايجابياً إذا أسلم إلى حالة من الحوار والانفتاح، والتفاهم، والتعايش، ولكنه ـ في الوقت نفسه ـ يكون مدمّراً إذا وقف عند حدّ الصراع غير المجدي، وغير الهادف.

إن الحوار ـ وهو اختيار حضاري متقدّم ـ يمكن أن يكون سبباً للتفاهم، والتلاقي والاتفاق إذا خلصت النيات، وحدّدت الأهداف، واستقامت الخطوات المؤدية إلى ذلك. ولكن الحوار إذا وجّه توجيهاً يخدم إدامة الصراع، وإثارة الاختلافات، والتعصب لوجهات النظر المتطرفة المتشنجة، فإنه يكون مدعاة لقيام صراع عميق مدمّر لكل نوازع الحياة الإنسانية، ومظاهرها، وبهذا يكون الحوار لوناً من الصراع على مستوى الفكر واللسان والقلم، ولا ينتج عنه إلّا الاحتراب.

إنّ الأصل في الأشياء التوافق والانسجام، وحتى لو وجد الاختلاف فإنه حالة تقود إلى التوافق والانسجام، ولكنّ الإنسان بما أوتي من نوازع ونزعات متعارضة متقاطعة فرض فهمه على الأصول المتناغمة، فخلق واقعاً متناقضاً من تصوراته المصلحية، فهل نرجع بالواقع إلى الأصل؟ أو نخضع الأصل للواقع؟ وبين هذين المتعارضين يقع الإشكال الإنساني والحضاري، الذي لا يمكن حلّه إلّا بمراعاة الأصل، واتخاذه أساساً للواقع..

وقبل ذلك كلّه وبعده إن الطبيعة الإنسانية واحدة، والفطرة البشرية السليمة متحدة، فإذا راعينا ذلك فلابد من أن نصدر عن منبع واحد، وطاقة إشعاعية واحدة. وكل ذلك يقود إلى التناغم والانسجام والتوافق تعبيراً عن وحدة بني الإنسان. وقدرته على التفاعل مع بني جنسه فخلق حالة من التوافق والانسجام

تلغي كل دواعي الصراع الذي تفرضه نوازع أنانية، أو خصوصيات ضيِّقة، أو مصالح نفعية تكون على حساب الآخر.

إننا بحاجة إلى تأصيل أبجدي يرجع إلى تخوم الاختلاف.. ثم دراسة ما يترتّب عليه من تداعيات.. تبدأ القضية من البنية التحتية لكل المواقف والممارسات والأعراف والتقاليد.

إن عملية الاستقصاء في البحث والتنقيب في الأصول أمر ضروري ولازم في تحديد الاختلافات والتناقضات، ودواعي الاصطراعات، فإن ذلك يجعلنا على بيّنة من خطواتنا العملية التالية لسدّ الفجوات، وتقريب الخطوات، وفهم الأمور على وجه سليم صحيح مستعينين بذلك بالمناهج العلمية والتاريخية والاجتماعية لتفسير الظواهر تفسيراً علمياً ينزع إلى مصلحة الإنسانية، وبنائها الحضاري العتيد.

إن استخدام المنهج العلمي للكشف عن حقائق الأشياء هو الكفيل بوضع الأمور في نصابها، وترتيبها علمياً وواقعياً، وإنسانياً وفق منظور مستقبلي يجعل الإنسان سيّد نفسه، ويجعل الحضارة سمة من سمات الإنسان، والإنسان ملمحاً أصيلاً في كل تشكل حضاري.

وإذا قدّر للإنسان أن يصطنع المنهج العلمي أداة في النظر والحكم على الأشياء فلابد وأن يكون بعلمية وواقعية وهادفية وإنسانية.

إن من نعم الله ـ سبحانه ـ على الإنسان أن وهب الله العلم وآلياته التجريبية والمختبرية والميدانية فوحّد بذلك معاييره ومقاييسه، ومناهجه، ونتائجه. وهذا الأمر مدعاة لتوحيد الإنسان وتوحيد توجهاته الحضارية إذا أحسن استخدامها لخير بني الإنسان جميعاً.

إنّ إقامة علاقات إنسانية على أساس علمي هو مقدّمة لقيام حضارة علمية، التي هي الحلّ الوحيد لمشكلات الإنسانية شرط أن توجّه إلى خدمة الحقيقة، ولا تجيّر لأغراض أخرى سياسية أو عنصرية أو تعصّبية، لا تخدم مصلحة الإنسان، فإن واحدة من ابتلاءات مكاسب ضيّقة هي بالضد من المنهج العلمي، ومصلحة البشرية.

إن واحدة من الابتلاءات التي منيت بها البشرية هو تسخير المنجزات العلمية الخيرة لاغراض بعيدة عن مصلحة الإنسان بدوافع شريرة وغير علمية، بل وجّهت بعض هذه المنجزات إلى الضدّ من إنسانية الإنسان وديمومته على هذه الأرض فكانت الذرّة شراً على الإنسان، وكانت خلفيات بعض النظريات العلمية سبباً لقيام تيارات فكرية واجتماعية منحرفة عن منهج العلم وانسانية انجازاته، وبهذا قامت صراعات مفتعلة بين نظريات زائفة، فدمّرت حياة الإنسان وزيّفت وجوده على الأرض، وحرّفت دوره في اعمارها، وأشغلته عن بناء نفسه بتدمير غيره، ونزعت سمة الروحية عن حضارته وأغرقتها بنزعات مادية مدمّرة.

إن استغلال العلم وسيلة لتحقيق مغانم سياسية أو شخصية، أو فئوية، هو الذي أدّى إلى قيام دعاوى كثيرة بعيدة عن العلم والحقيقة باسم العلم، وإلى إفراز مذاهب وتيارات فكرية متناقضة متعارضة فالماركسية ـ مثلاً ـ تدّعي العلمية، والدارونية كذلك، ومثلها النازية القائمة على نقاء دم جنس من الأجناس وهكذا. وعلينا أن ندقّق في الأمور ونفرّق بين ما هو حقيقة علمية، أو دعاوى فارغة، أو خرافة تمرّر باسم العلم، تهدف إلى تضليل الناس، وتزييف الحقائق، وتزوير الوقائع لمآرب مشبوهة.

إن العلم بمناهجه ونتائجه، وانجازاته النظرية والعلمية يتميّز بالحيادية ويتصف بالموضوعية، ولهذا السبب فإن إدراك حقائقه لا يكون إلّا من قبل أقوام آمنوا به، وأيقنوا بحقائقه بعيداً عن كل انحياز، أو تسخير لحقائقه إلى اغراض رخيصة تهدف إلى تسويق فكر ما، أو توجّه منحرف، فإن على العلماء أن يقفوا بصرامة بوجه إي تحريف وتسخير للعلم وإخراجه من حياديته وموضوعيته، والكشف عن ذلك لعامة الناس وتحذيرهم من ذلك.

إن الحوار ـ بهذه المثالية ـ حوار منهجي، سوف ينتهي حتماً إلى مقاربات، وإلى الوقوف عند الملتقيات والمشتركات، لتأتي الثقافات والمواقف والأعراف واحدة ومتحدة، فإن المنهج العلمي الصحيح كفيل بتوحيدها، لأنه منهج واحد لا يتعدّد، ولا تختلف نتائجه باختلاف مقدّماته. فإن كانت المقدّمات صحيحة جاءت نتائجه صحيحة. وهكذا تكون الحقائق ثابتة، وتداولها علمياً واحداً، واستثمارها في خدمة وتنمية حضارة الإنسان نافعاً، ومجدياً ومفيداً.

وعندما تتدخّل الأحكام المسبقة، والتراكمات النفسية والانحيازات العقلية لتشكّل قوة ضاغطة على ما يمكن تسميته بالمنهج العلمي، فتغيّر كثيراً من مساراته، وبالتالي نتائجه، وهذا يؤثّر ـ أساساً ـ في مقدّمات المنهج، وجزئياته، فيعطي نتائج مخالفة للواقع ما يؤثر في بناء المواقف والممارسات، والأحكام، والتوجّهات.

إن الحقائق العلمية ـ كما نعلم ـ ثابتة غير قابلة للتغيير والتبديل كونها نتاج حقول تجريبية ومختبرية، ولعل أخطر ما يواجهها هو تزييف هذه الحقائق، وتكريسها لاغراض غير علمية، وإن أي حوار يستند إلى حقائق العلم، لابد من أن ينتهي إلى نتائج ايجابية توجب التقارب والتفاهم لأن المتحاورين يقفون على أرض واحدة مشتركة صلبة هي أرض الحقائق العلمية الثابتة، كما أن الأحكام المسبقة، والتراكمات النفسية والانحيازات العقلية غير قادرة على تدمير هذه الأرض كونها أعراض مرضية تزول بزوال أسبابها واشخاصها. بل إن قوّة الحقائق العلمية قادرة على كل النوايا غير الطيّبة، وطمرها في رمال الواقع دون أن يتنازل العلم عن شيء من حقائقه وانجازاته، وهذا ما نجده في الصراعات القائمة بين العلم كمنهج ونتائج. وبين الانحراف والتزييف، وتشويه الحقائق، وكل التوجهات غير العلمية.

والذي حصل: إنّ المعاصرة ذات وجهين: وجه الحضارة والتطور وما بعد الحداثة والمعلوماتية والتقنية العالية وتقليص الاستبداد وإشاعة اللامركزية.

والوجه الآخر هو.. تنامي الفقر، واستشراء البطالة، والتضخم الاقتصادي، والعنف الديني والعرقي والسياسي.

إنّ هذين الوجهين، متناقضان، بدلاً من أن يكونا متكاملين وبنّاءين وايجابيين.

فالانجازات الحضارية الكبيرة التي حدثت وتحققت بما فيها العلمية، والتقنية والسياسية والفكرية، وتطوّر الآليات، وتنامي الأدوات كل ذلك ينبغي له أن يعالج المشاكل الاجتماعية العالقة، فالفقر والبطالة مصدران من مصادر القلق، والتوجّس، وإحداث المشاكل، يجب معالجتهما وفق آليات سياسية واجتماعية معتمدة على ما تحقق من انجازات حضارية وكذلك إشاعة الوعي

السياسي والاجتماعي والفكري بما يمكن معه احتواء حالة العنف الناجمة عن الاحتقان الديني والعرقي والسياسي.

فالعلم لا ينبغي له أن يكون معلّقاً في الهواء، لا رابط له مع ما حوله من مظاهر حياتية أو اجتماعية. كما ينبغي للعلم ألا يعيش في برج عالٍ معزولاً عن حركة الحياة إنما عليه ـ كحقيقة كبرى ـ أن يلامس جروح الإنسانية الحائرة المعذّبة، ويضعها على طريق التقدّم والتطور، ويخلّصها من كلّ المشكلات التي تعاني منها والتي تعوّق حركتها نحو الأمام، وأن تنبري لمعالجة كل الحالات التي تقف في طريق تقدم الإنسان وتطوره، وتحقيق كفايته من ضرورات الحياة، فالعلم قوّة فكرية وعملية قادر على اجتراح المعجزات في واقع الحياة الإنسانية، ويستطيع انتشال الإنسان من مستنقع الفقر والبؤس والحاجة والتخبط في دروب الضلال.

والذي نعانيه هو فقدان آلية التنسيق، وتوظيف الأول لمعالجة الثاني، والذي حدث هو العكس ـ توظيف الأول لترسيخ الثاني ـ، فإنّ السلبيات الاجتماعية والسياسية، جعلت وسيلة لتوظيف الانجازات الحضارية لمصلحة فئة على حساب فئة، أو طبقة دون طبقة، ما عمّق الشعور بالاحتقان الاجتماعي والسياسي، وصادر كل الانجازات الحضارية التي ينبغي لها أن تجيّر لصالح الجميع، ومعالجة الخلل العام.

إن الانجازات الحضارية القائمة الآن هي حصيلة جهود الإنسان منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا وهي لا تختص بعصر دون عصر، ومكان دون مكان، وإنسان دون إنسان. فهذه الانجازات الحضارية هي ثروة مشتركة بين بني الإنسان وعليه أن يسخّرها لكل بني الإنسان ولا يحتكرها أقوام دون أقوام، وعليهم أن يجنّدوا قوى العلم الفاعلة وانجازاته الكبيرة كل مشاكل الإنسان الفكرية والاجتماعية والاقتصادية وصولاً إلى حلِّ مشاكله مع أخيه من بني الإنسان وإيجاد روح من التعاون والتفاهم والتكافل، بل التكامل الحياتي وعلى كل صعيد، وبذلك يحقّق العلم أهدافه، وتحقق قيم الحضارية تطلعاتها في بناء الإنسان المتحضر المتعالي على صغائر الأمور والمتسامي على كل جراحاته التي نتجت عن خلافاته وصراعاته الممتدة على طول مسيرته التاريخية.

إنّ تربية الوعي الحضاري كفيل بأن يأخذ كل ذي حقّ حقّه عن قناعة، ورضا، دون شعور بالغبن والقهر والانسحاق.

هناك تورم في جانب القدرة، وضمور في جانب العدالة، في حين الموازنة في عالم متحضر لابد أن تكون وفق مقولة العرفاء وهي تلاقح الأسماء وليس انفرادها...

هذه المفارقة تتبدى حين يسود التفكير العام منطق القدرة والهيمنة، منطق الربح والخسارة، لا بمنطق العقل والوجدان والقيم، فتنتهك عذرية العدالة والإنسانية بذلك المارد الفج...

وربما هذا التناقض يصب في أجندة السياسي، بيد أن على رجل الدين أن يجنب الدين السياسة وأن يصنع رأياً عاماً ضاغطاً باتجاه السلام والإنسانية والعدالة والحرية..

إن التحضر الذي هو نتاج الحضارة، أو أحد مظاهرها لا يأتي عفواً، أو تلقائياً، وإنما هو تربية وترويض ونوعية، واكتساب المرء مما حوله من قيم إنسانية متحضرة يحرص على الالتزام بها والتعامل مع مفردات الحياة اليومية من خلالها. فكما أن الإنسان يطلب حقوقاً فإن عليه أن يؤدي واجبات، وكما أن الإنسان يرغب بالتمتع بحريته كاملة فإن عليه أن يحترم حدود حرية الآخرين، وكما أن الإنسان يسعى إلى تحقيق العيش الكريم لنفسه والاكتفاء الذاتي فإن عليه أن يراعي حق الآخر في هذا المجال. فالعدالة الاجتماعية مطلوبة في أي مجتمع متحضر، فالإنسان المتحضر يأبى أن يعيش في مجتمع مختل التوازن اقتصادياً أو قيمياً ما ينعكس سلباً على حياته ونمط عيشه. وربما يكون الدين عامل خير وبناء في جانب تحقيق العدالة لما له من قدرة على التأثير، والتغيير. فالمشاعر الخيِّرة، والالتزامات الصارمة، والمفاهيم العادلة المتوازنة لا يستطيع أي مذهب فكري أو اتجاه فلسفي، أو تيار سياسي اجتماعي أن يزرعها، وينمّيها، ويجسّدها سلوكاً اجتماعياً فاعلاً في حياة الناس إلّا الدين بما له من سطوة قدسية على النفوس والعقول والمواقف، فالمتدين المخلص في تدينه المرتبط بالله ارتباطاً حقيقياً عميقاً مخلصاً، هو وحده القادر على إشاعة روح المحبة والعدالة الاجتماعية في نفوس الناس كافة، والحضّ على التزام حدودها فردياً واجتماعياً.

المشكلة العامة اليوم هي صراع المعنى الضائع والإنسانية المستلبة والعقل المستقيل والقيم المهدورة مع العبثية والقدرة المتورمة والاستبداد الجماعي..

صراع الكونية والخصوصية التي نحتت بقطرات عرق الآباء وشقائهم، من الوطنية إلى القومية إلى الديانة الخاصة والمذهب الخاص والأعراف والتقاليد الخاصة، صراع تخمة الأقلية وجوع الأكثرية..

إن الانجازات الحضارية الكبيرة ـ وبخاصة في المجال المادي ـ قابلها في الجانب الآخر: السياسي والاجتماعي عدم الاحساس العميق بوجوب إشاعة قيم ومفاهيم العدالة الاجتماعية ما أحدث فقداناً في التوازن الاجتماعي. فإن هيمنة منطق المادة والآلة، وتنامي قدرات طبقة اجتماعية على حساب ضمور قدرات طبقة أخرى، يجعل الميزان الاجتماعي مختلاً، وتوزيع المكاسب الاجتماعية قاصراً، ومحدوداً بغياب مفاهيم العدالة الحقيقية القائمة على الحق، والشعور بالآخر.

وهنا يأتي دور رجل الدين الذي يحمل قيماً اجتماعية إنسانية عادلة ويرتبط بالسماء ويبشّر بعالم آخر. وبهذا الدور دور تأسيسي ينبع من وجدان المجتمع، ومنطق السماء، والاستجابة الفطرية التلقائية له ما يساعد على قيام رأي عام ضاغط باتجاه قيام عدالة حقيقية تتبع من إيمان الإنسان بوجوب قيام عدالة تؤيّدها السماء، وتنفّذها إرادة الأرض.

إن مشكلة الإنسان المعاصر تكمن في استيلاء (السياسي) على مقدراته، مع إشاعة مفاهيم جوفاء لا واقع له في حياة الناس، أو تقديمها زائفة خادعة كفقاعة انتخابية دعائية، فالسياسة لا مبادئ لها، والسياسي يغلّب المصالح على المبادئ ـ إن كانت له مبادئ ـ لهذا نرى إنسان اليوم ـ كما هو إنسان الأمس ـ ضحية لسلوك هذا السياسي أو ذاك، ضحية فقدان القيم والمبادئ والمفاهيم الحقّة، والفضائل الاجتماعية النبيلة. وليس كالدين ـ بمفاهيمه ودعاته وحملة علمه ومبادئه ـ قادراً على إعادة التوازن، وإصلاح الخلل، وإقدار المبادئ، وحفظ الفضائل خاصة إذا اقترن بسلوك دعاة صالحين، وعلماء متنورين، واتباع مخلصين، فعلى أيديهم يكون الصلاح والإصلاح، ويكون انقاذ الإنسانية المعذّبة بفقدان القيم الصالحة، والعدالة المكافحة من أجل إنسان أفضل وأكمل، وأجدر بحمل رسالة

السماء الداعية إلى خلق حضارة إنسانية تنبع من قيم السماء، وتقوم على أرضية صلبة صالحة من واقع الأرض.

المشكلة الحقيقية ـ في عالم اليوم ـ تتلخص في ذلك الانفصام القائم بين الإنسان وممارساته الأرضية وبين قيم السماء الرفيعة والتي تبحث عمّن يؤمن بها، وينفّذها، وذلك نتيجة لاستغراق إنسان العصر في الماديات الأرضية. فإنسان اليوم إنسان مستلب وقد اختار هو بنفسه هذا الوضع الاستلابي حين تخلّى عن ارتباطه بقيم السماء وعاش غريباً بروحه ووجدانه وعقله على هذه الأرض البائسة.. ومن هنا نشأت تلك القيم التي تسلب الإنسان حريته وإرادته وتصادر عقله، وتسلمه إلى عبثية قائمة، وتخضعه إلى استبداد اجتماعي مجهول الهوية والمصير.

إن خصوصية الإنسان في عقله، وفي تفكيره، وتطلعاته، وممارساته هو أمر يحسب للإنسان شرط ألا يكون ذلك انفصاماً عن عالمه ومحيطه، وانحيازه إلى قيم ومفاهيم متعلقة تقصيه عن الآخر..

إنّ الخصوصية الفردية مطلوبة لأنها عنوان الشخصية الإنسانية، لكنها مرفوضة حين تقود إلى التمرّد العبثي، والانتماء الأناني إلى الذات وحدها دون الانتماء إلى المجتمع الكبير خاصة إلى إيجابياته التي عنوانها الإيمان بالله، والالتزام بفضائله وأخلاقياته.

إن استغراق الإنسان المعاصر بعالم المادّة جعله يؤمن بقيمها، ومفاهيمها ويخضع سلوكه الفردي والاجتماعي لها، ويقطع صلته بعالم السماء ومبادئها ما جعله يكون في أسر عبودية طاغية توهمه بحريته، لكنه أسير هذه العبودية بكل أغلالها التي لا يستطيع أن يتحرر منها إلّا بالعودة إلى الارتباط بالسماء مفاهيم وسلوكاً وفهماً ووعياً وممارسة: يتحرر سلوكاً فردياً، ويتحرر موقفاً اجتماعياً، ويتحرّر فهماً عقلياً، ويتحرر إرادة مستلبة.

إن الخضوع لقيم المادة هي العبودية الحقيقية التي تجعل المرء أسير الغرائز تتحكم فيه ضروراته، ويتحكم فيه من يقوم باشباع هذه الغرائز، ويلبي هذه الضرورات، وهذا عين عبودية الإنسان للإنسان، وهذا عين استلاب الإنسان من قبل أخيه الإنسان. ولا يمكن للإنسان أن يتحرر من ذلك كلّه إلّا بالرجوع إلى الفضاء الحر المطلق الذي هو عبودية الإنسان لخالقه ـ الله سبحانه ـ وهذه

العبودية هي ذروة التحرر من ضرورة الغرائز والاحتياجات المادية الضاغطة وبذلك يتحرر من عبوديته بكل أنواعها ولكل طاغ متحكّم بمقدراته، والتي توهمه بحرية متوهمة لا واقع لها إلّا في مخيلة مريضة مخدوعة مستكينة لغرائزها الحيوانية، واندفاعاتها المادية التي هي كالسراب الذي يهلك الإنسان للوصول إليه ولن يجده شيئاً، أو كمرض (الجرب) الذي يدعو الإنسان أن يحكّ جسده، وكلما حكّه ازداد رغبة في الحكّ ولن يسبقه ذلك، وما يشفيه إلّا القناعة الواعية التي تنبع من إيمان بالله ومفاهيمه والتزام بمبادئه وحدوده وقيمه وفضائله الكريمة العظيمة.

ومن اسوأ ما أفرزه عالم المادة بقيمه ومفاهيمه هو تعميق شعور الإنسان بخصوصيته وفرديته إلى حد أن أصبح ظاهرة مرضية تصيب الإنسان ومجتمعه.

إن الفرد هو جزء من المجتمع يعمل لاجله، ويحافظ على قيمه، وينمي مصالحه، وهو بذلك يقوم بدوره الاجتماعي، كما تقوم النحلة بدورها الغريزي في بناء خلاياها ولكن انحراف الفهم الإنساني لهذا الدور جعله ينفصل فكرياً ونفسياً واجتماعياً عن أداء هذا الدور الحيوي مما أخل بسلامة شخصيته، وبتركيبة مجتمعه. نعم.. من حق الإنسان الفرد أن تكون له خصوصيته في المأكل والملبس والمشرب والمسكن والتفكير والشعور، على ألا يقوده ذلك إلى العزلة النفسية والفكرية وألا يخلّ بأداء واجباته الاجتماعية التي هي جزء من تركيبته الأخلاقية السوية وواجباته الإنسانية الاصيلة، فهو يشارك من حوله أفراحهم وأحزانهم، ويسهم معهم في البناء الاجتماعي الضروري الخلّاق معنوياً ومادياً، ويكون جزءاً من حضارتهم وتحضرهم، وبذلك يتخلّص من الشعور المرضي بالأنانية التي هي مرض من أمراض هذا العصر، ينعكس فعلاً وردّ فعل في السلوك العام.

إنّ ما نطلق عليه (القوى المعاصرة) أو (التيارات الاجتماعية الفاعلة المعاصرة) انحرفت عن المسار الحضاري لها، وأصبحت قوة مدمّرة، تستغل كل الانجازات الحضارية لتدمير الإنسان وتسميم حياته، وتخريب مفاهيمه بأساليب تنتمي إلى البدائية كإثارة الصراعات الدموية الطائفية، والعنصرية، والفئوية. وبذلك فهي قد فقدت نقاءها الحضاري، وانتمائها العلمي، وانحدرت إلى

مستويات دنيا، لا تمتّ إلى الإنسانية بصلة، وهذا ما يجعلها تغادر مواقعها الطبيعية الخيّرة إلى مواقع الأنانية والرذيلة والتخلّف، والتنكر لقيم الإنسان.

وكان الحلّ...

في ظهور مؤسسات راعية كجمعية الأمم المتحدة، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، وجامعة الدول العربية، والاتحاد الأوربي، ومجلس التعاون الخليجي، وسائر التحالفات الأخرى، ومؤسسات حقوق الإنسان بمختلف تمظهراتها، ومجامع التقريب والتوحيد والحوار...

كل ذلك لتفادي الإشكال المشار إليه، أو تخفيفه اجتماعياً أو اقتصادياً أو سياسياً، وإلا لانجر العام إلى الفناء في أسوء الاحتمالات أو إلى العالم الثاني بل جزءاً من الأول فضلاً عن الثالث في أفضل الاحتمالات..

إن النظريات الفلسفية، والتيارات الاجتماعية والسياسية التي تعارضها في عالم اليوم ما هي إلّا افراز العقل المادي، والفهم المادي للحياة فالوجودية ـ مثلاً ـ التي تعمّق فردية الإنسان وتشعره بعبثية الوجود ما هي إلّا تعبير عن حالة اليأس والبؤس والاحباط والتشاؤم التي يواجهها إنسان العصر، وشعوره بالضياع: ضياع خصوصيته، وضياع دوره، وضياع هدفه والماركسية ـ مثل آخر ـ لمادية الفهم وافرازاتها الفكرية، فهي ردّ فعل لحالة الاستغلال الاقتصادي لفئة كبيرة من المجتمع جاءت على شكل مفاهيم وتصورات متطرّفة خاطئة تخالف ما فطر عليه الإنسان، وما خلق لأجله وفق نظام سماوي كوني حكيم، فهي تدعو إلى محاربة الملكية الخاصة، وتدعو إلى تفكيك الأسرة ـ التي هي نواة المجتمع ـ وتدعو إلى محاربة الأديان وتراه فيها افيوناً للشعوب وتدعو إلى قيام مجتمع إباحي يشيع فيه كل شيء ابتداءً من المال، وانتهاءً بالإنسان. والبرغماتية (النفعية) مثل ثالث لافرازات الفهم المادي للحياة التي ترى أن على الإنسان أن يحقق أكبر قدر من المنافع والمكاسب المادية وبكل الوسائل، ولو كان على حساب المبادئ والأخلاق والمصالح العامة التي لا تعترف بها (البرغماتية). ومعنى هذا ضياع القيم والأخلاق الفاضلة والمصالح العامة، والشعور بالآخر، والتحسس بالإنسان شريك الإنسان على هذه الأرض. وهذا الأمر يؤدّي إلى قيام نزاعات وصراعات تنقص كل بناء حضاري سليم.

إن قيام بعض المنظمات الإنسانية الفاعلة خطوة ايجابية لتخفيف الضغط المادي على عقل الإنسان وروحه، وخلق هامش إنساني يتحرّك فيه الإنسان سعياً على إبقاء إنسانيته، وحفاظه على قيمه، وتجنيبه حالة اليأس الناجمة عن الفهم الأحادي الضيّق للحياة.

إن حوار الحضارات أو تحالف الثقافات يأتي في السياق ذاته.. يضيف لتلك الجهود الجزئية والعامة تراكماً في حفظ توازن البشرية المختل واقعياً بعيداً عن كونه هو الأصل أو هو استثناء مشوه..

إنّ ما تشكل من المنظمات والمؤسسات عامل وقائي يمتصّ كل النتائج السلبية، والتداعيات المؤسفة نتيجة انحراف (المعاصرة) عن خطّها الايجابي الذي قامت لبنائه والسير عليه. وهذا الانحراف في التفكير والسلوك قاد إلى صراعات دموية عنيفة ذهب ضحيتها الإنسان وقيمه، ومنجزاته الحضارية، وآماله الوردية لتحل محلها الخرائب والدمار، والذمم الفاسدة التي تتاجر بالإنسان. نعم قامت هذه المؤسسات لتدارك بعض ما فات الإنسان وايقاف التداعيات المؤسفة في حياة البشرية، وهي وإن لم تعمل بإيجابية كاملة، ونوايا صادقة لخضوعها لتأثير وتمويل الدول الكبرى فإنها تمثّل طاقة الأمل التي يطل منها الإنسان على آمال موهومة يتخيّل أنها ستحقق له شيئاً يوماً ما. كما أنّ هذه المؤسسات تخفّف شيئاً ما من معاناة الإنسان الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ولو إلى حين، وتشعره بأن هناك من يهتم به، ويفكر معه بحل مشاكله، لكنها حلول معقّدة دفع ثمنها من حياته وحريته وكرامته مقدّماً. وتحالف الحضارات يأتي في هذا السياق ليفتح نافذة الأمل على عالم جديد يشعر معه الإنسان بالطمأنينة والأمان، لأنه يغلق باباً للصراع. ويفتح باباً للحوار.

إن زرع أمل ما في نفوس بني الإنسان بات أمراً ضرورياً، وإيقاد شمعة ترسل بصيص ضوء في درب بني الإنسان بات أمراً ملحاً فالمعاصرة بقيمها الدنيوية المادية ضيّقت الخناق على بني الإنسان، وأغلقت كل نوافذ الأمل والرجاء عليه، وحاصرته بقيمها وممارساتها حتى كاد ييأس من رحمة الله بعد أن يئس من المردودات الحضارية الايجابية من هذه الحضارة المعاصرة.

إن قيام بعض المؤسسات الدولية والإنسانية يساعد بني الإنسان على تجاوز

حالات اليأس والإحباط التي تطوّقهم ولو إلى حين، ولو بفعل ضئيل لا يتناسب مع حجم التحديات التي تحيط بالإنسان، ومن جملة هذه المحاولات يقوم حوار الحضارات الذي يتوخّى البحث عن كل ايجابية في كل حضارة ويقرنها بايجابية الحضارة الأخرى، فنقوم بذلك حضارة إنسانية عامة لحمتها وسداها الانجازات الحضارية الايجابية وبذلك يخفّ الطوق، ويتسع الخناق على الإنسان، ويكتشف أن هناك هوامش للأمل في إعادة صياغة حضارة إنسانية متكاملة متوازنة خلّاقة تتجه لبناء إنسان متحضر كريم يقوم بدوره البنّاء في إقامة حضارة إنسانية عادلة حكيمة رحيمة توازن بين قيم السماء ونوازع الأرض.

تكتسب كل المشاريع في هذا الاتجاه.. اتجاه حفظ الخصوصية، بل هي ضرورة قصوى حيث ابتلي العالم اليوم بقطبية الحضارة أو السياسة والثقافة التي تقود إلى المجهول، خصوصاً إذا ما تمَ التأمل فيها وفي ردود الأفعال حولها غير المنضبطة فإن البشرية وصلت لمستوى لا تحسد عليه في مستقبلها، فهي بحاجة ماسة لمثل هذه اللفتات الجادة شريطة أن لا تتحول بدورها إلى أداة وألعوبة بيد من يبغي الإخلال بالسلم والأمن البشري..

إن الحضارة المادية المعاصرة أفرزت قوىً تتبنى مفاهيم مادية، وتسعى إلى فرض وجودها بأساليب مادية، فهي وإن بلغت مبلغاً عظيماً في مجال العلم والتكنولوجيا، لكنّها ما زالت متخلّفة في مجال المفاهيم الإنسانية السليمة. واهم انجازاتها في المجال السياسي هو الديمقراطية التي تقرّ حق المواطنة، لكن ديمقراطية هذه القوى عوراء ذات عين واحدة تنظر بها إلى بلدانها وتنظر إلى البلدان الأخرى بعين عمياء، بل أن ديمقراطيتها مبنية من دماء الشعوب، وثرواتها وبإثارة المشكلات فيها التي تذهب بأهلها وثرواتها ومقدساتها. وهذه القوى الكبيرة التي افرزتها المعاصرة المادية تحارب كل بروز لقوة جديدة توازن بين عوالم المادة وعوالم الروح وتدعو إلى مفاهيم إنسانية هي من وحي السماء.

إن بروز قوى إنسانية على وجه الأرض محاولة جادة لإعادة التوازن لإنسان هذه الأرض وبناء حضارته على أسس سليمة قويمة وتعدّ الأمل المستقبلي لبناء إنساني متحضّر يبشّر بقيم الخير التي تنبثق من سنن الكون الحكيمة وتتطابق معها في العمل والأهداف.

إننا ما زلنا نعاني من الاستقطاب في كل شيء... وما زلنا نعاني من احتكار القيم وفرض المفاهيم، وتسلط القوى الشريرة.. وما زلنا نقتحم المجهول بحثاً عن المعلوم... وما زال الإنسان مستهدفاً... وتحالف الحضارات وحوارها ينقذه مما هو فيه من حيرة وقلق واستلاب وقهر.

مصادر الكتاب

- القرآن الكريم
- نهج البلاغة
- الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي المعروف بـ (الشيخ المفيد)، تحقيق: مؤسسة آل البيت ﷺ لإحياء التراث، جمهورية إيران الإسلامية ـ قم المقدسة
- الإسلام والتعايش السلمي بين الأديان والقوميات المختلفة، حسين درويش العادلي، بحث مقدّم إلى مؤتمر (يد بيد ضد الإرهاب)، فينا 2006م.
- امتاع الاسماع، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد المقريزي، تحقيق وتعليق: محمد بن عبد الحميد النميسي، منشورات: محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية.. بيروت ـ لبنان.
- بحار الأنوار، العلامة الشيخ محمد باقر المجلسي، الطبعة الثانية المحصصة، مؤسسة الوفاء، لبنان ـ بيروت.
- تاريخ الطبري، الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، منشورات: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان.
- تفسير القمي، أبو الحسن علي بن إبراهيم القمي، تصحيح وتعليق وتقديم: السيد طيب الموسوي الجزائري، منشورات: مطبعة النجف، جمهورية العراق ـ النجف الأشرف.
- تفسير مقتنيات الدرر، مير سيد علي الحائري الطهراني، الناشر: الشيخ محمد الآخوند، دار الكتب الإسلامية، جمهورية إيران الإسلامية ـ طهران.
- الاحتجاج، أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي، تعليقات وملاحظات: السيد محمد باقر الخرسان، منشورات: مطبعة النعمان، جمهورية العراق ـ النجف الأشرف.
- الحرية في الإسلام.. مرتكزاتها ومعالمها، عبد الرحمن العلوي، بحث منشور على الموقع الألكتروني.

- الحضارات والثقافات الإنسانية.. من الحوار إلى التحالف، الدكتورة فوزية العشماوي، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ـ إيسيسكو تونس 30/ 1 ـ 1/ 2/ 2006م.

- الحوار بين الأديان، محمد عادل التريكي، الحوار المتمدن، العدد: 2812.

- دلائل الإمامة، أبو جعفر محمد بن جرير بن رستم الطبري (الصغير)، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة الوفاء ـ إيران ـ قم المقدسة.

- دور الدين في المجتمع الإنساني، السيد محمد حسين فضل الله، بحث منشور على الموقع الألكتروني (بينات).

- الدين ومقارنة ودراسة الأديان في الفكر الإسلامي، الموقع الألكتروني .

- سبل الرشاد، الإمام محمد بن يوسف الصالح الشامي، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.

- شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، القاضي أبي حنيفة النعمان بن محمد التميمي المغربي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، طبع ونشر: مؤسسة النشر الإسلامي، جمهورية إيران الإسلامية ـ قم المقدسة.

- العلاقات بين الحضا ات، الدكتور سمير سليمان، رسالة التقريب، العدد 25.، قاموس الكتاب المقدس، عدة من المؤلفين.

- قصص الأنبياء، قطب الدين سعيد بن هبة الله الراوندي، تحقيق: الميرزا غلام رضا عرفانيان اليزدي الخراساني، الناشر: الهادي، جمهورية إيران الإسلامية ـ قم المقدسة.

- الكامل في التاريخ، الشيخ عز الدين أبي الحسن علي بن أبي كرم المعروف بـ (ابن الأثير)، منشورات: دار صادر، لبنان ـ بيروت، لجنة الحديث في معهد باقر العلوم.

- موسوعة كلمات الإمام الحسين ﷺ، منظمة الإعلام الإسلامي، تبليغات إسلامي، الجمهورية الإسلامية الإيرانية ـ قم المقدسة.

- المحاسن، أحمد بن محمد بن خالد البرقي، تصحيح وتعليق: السيد جلال الدين الحسيني، دار الكتب الإسلامية، إيران ـ قم المقدسة.

- مداخل واقعية لنجاح الحوار الإسلامي ـ المسيحي، السيد محمد حسين فضل الله، محاضرة منشورة على الموقع الأكتروني.

- مناقب آل أبي طالب، الإمام الحافظ مشير الدين أبي عبد الله محمد بن علي ابن شهراشوب، المطبعة الحيدرية، جمهورية العراق ـ النجف الأشرف.

- منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، قطب الدين الراوندي، تحقيق: السيد عبد اللطيف الكوهكمري، نشر: مكتبة آية الله المرعشي العامة ـ قم المقدسة.

- منهاج الكرامة في معرفة الإمامة، الحسن بن يوسف بن المطهر المعروف بـ (العلامة الحلي)، تحقيق: الأستاذ عبد الرحيم مبارك، مؤسسة عاشوراء للتحقيقات والبحوث الإسلامية.
- انتشارات تاسوعاء، الجمهورية الإسلامية الإيرانية ـ مشهد المقدسة.
- نخبة اللآلي لشرح بدأ الأمالي، محمد بن سليمان الحلي الريحاوي، مكتبة الحقيقة، تركيا ـ إستانبول.
- نهج البلاغة، شرح الأستاذ الإمام محمد عبدة، منشورات: دار المعرفة للطباعة والنشر، لبنان ـ بيروت.
- وسائل الشيعة، الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، جمهورية إيران الإسلامية ـ قم المقدسة.

المحتويات